تطور المجتمع العربى

فى العصر الحديث

تأليف

الدكتور محمد ضياء الدين الريس

رئيس قسم التاريخ الإسلامى

بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

١٩٦٩ ـ ١٩٧٠

الناشر

مكتبة الشباب

٢٦ شارع إسماعيل سرى بالمنيرة

تطور المجتمع العربي
في العصر الحديث

تأليف

الدكتور محمد ضياء الدين الريس

رئيس قسم التاريخ الإسلامي
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

١٩٦٩ — ١٩٧٠

الناشر

مكتبة الشباب

٢٦ شارع إسماعيل سرى بالمنيرة

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عمارة الدبس : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٢٧٠٦

http://al-maktabeh.com

R 371

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المجتمع العربى

هدف الدراسة

يقصد بـ « المجتمع العربى » مجموعة الشعوب أو الأقطار العربية التى تشغل هذه المنطقة الواسعة الممتدة من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، أو بعبارة أوجز يراد به : « الأمة العربية » . وهى أمة واحدة ، تكون كتلة ضخمة أو قسما كبيرا من العالم ، لها خصائصها ومقوماتها الذاتية التى تثبت لها التميز والتفوق. وكان لها فى التاريخ دور من أعظم الأدوار، ولها رسالة وحضارة تركت أبلغ الآثار فى التقدم الإنسانى ، ولا تزال لها ـ رغم المحن والصعاب ـ أهمية كبرى بالنسبة لحاضر العالم ومستقبله ، وتزداد هذه الأهمية كلما ازداد تقدم الأمة ونمت قوتها، وتوطدت سيادتها ؛ وجمعت أسباب النهوض فى مختلف مجالات الحياة .

والهدف من دراسة المجتمع العربى هو الوقوف على هذه الصفات والخصائص التى تتميز بها الأمة ، أو معرفة طبيعتها العامة وشخصيتها ، وتجلية مكانتها فى التاريخ ، والوقوف على رسالتها وأثر حضارتها فى العالم . ثم الاهتمام بصفة خاصة ـ بتوضيح تطورها فى التاريخ الحديث ، إذ أن هذا الدور الأخير من حياة الأمة كان دور محنة وابتلاء ، نتيجة عوامل تراكمت فى المنطقة على مرور الزمن أدت إلى حالة من الجمود والوهن — وإن كانت حالة عابرة ، وأيضا

نتيجة ما واجهته الأمة من قوى الاستعمار المعادية . فرت الأمة فى دور أو أدوار جهاد عنيف ، بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر واستمر حتى اليوم . غير أن الأمة استطاعت فى خلال هذا الدور أن تسترد روحها وتهب من غفوتها ، وتنهض لتأخذ بأسباب القوة والتقدم التى ورد بها العصر الحديث .

فتاريخ أو تطور الأمة فى هذا الدور من أهم مقاصد هذه الدراسة ، ولذا فإنه يشمل الجانب الأكبر من هذا الكتاب . وهو تاريخ جهاد أو صراع عنيف ، ظلت فيه الأمة العربية تصارع وتقاوم عوامل الضعف والجمود فى الداخل، وقوى الاستعمار والعدوان من الخارج. ولا تزال الأمة حتى اليوم تخوض حومة الجهاد ضد هذه القوى - وإن تغيرت أشكالها — وآخر شكل هو هذه الصهيونية الخبيثة التى قدمها الاستعمار ووقف وراءها يؤيدها ويدفعها ، وهى تمثل نوعا من أخطر ضروب العدوان على الوطن العربى ، وهو الذى يجب أن تعمل الأمة وتعقد العزم على رده والقضاء عليه، حتى يمكن أن تواصل سيرها فى طريق الرقى والمجد والرخاء .

الشخصية العربية

فإذا أردنا أن نقدم صورة عامة عن طبيعة الأمة العربية أو شخصيتها - فإننا نجد أن المجتمع العربى حتى قبل الإسلام كان يتميز بصفات خاصة سجلتها أنباء التاريخ . فمع صرف النظر عن الصفات أو العوائد التى كانت مقترنة بحالة الوثنية أو الجاهلية ، وهى الصفات التى توجد فى تواريخ الأمم فى مثل هذه الأحوال ، والتى جاء الإسلام فهذبها أو أزالها - مع صرف النظر عن هذه أو على الرغم منها ، فإن المجتمع العربى كان يمتاز بصفات طيبة تدل على فضله أو سموه من الناحية النفسية والإنسانية .

فقد كان من أخص صفات العربي الشجاعة وقوة النفس، حتى كان لا يخشى الأهوال أو يخاف الموت، وكانت الحرب صناعته في عصر الجاهلية، حتى سمى بعض المؤرخين هذا العصر بعصر البطولة. كذلك كان من أبرز صفاته شدة الشعور بالعزة والكرامة، والحرص على الشرف وعلى كل ما يجلب رفع الذكر والثناء. وكان هذا في نفس الوقت يدفعه إلى إباء الضيم ورفض الذل أو الاستكانة للغير. وكان من طبائعه حب الحرية ومن خلقه الوفاء بالعهد. كما أن العربي اشتهر بين جميع الأمم بالجود والكرم، بحيث صار مضرب الأمثال في ذلك، وهذا يحمل معنى الإيثار والتضحية والمبادرة إلى النجدة. فهذه من أهم الصفات التي تميزت بها الشخصية العربية منذ أقدم العصور.

ثم جاء الإسلام فقوى هذه الصفات، ووجهها إلى غايات أسمى ومثل عامة. فجعل الشجاعة والبطولة من أجل تأييد الحق والجهاد في سبيل الله، وجعل الحرب من أجل مقاومة دول الكفر والطغيان، وقرن عزة النفس وشرفها بالإيمان والفضيلة وأداء الواجب، وطاعة القانون العادل، وجعل الكرم عاما للإنفاق في وجوه الخير ومصالح المجتمع، والتكافل لتوفير حاجات المواطنين، وهكذا. كما أن الإسلام في نفس الوقت حارب الصفات والعوائد غير الحميدة التي كانت موجودة في عصر الجاهلية، فقضى على كثير منها ودعا إلى إزالة ما بقي منها.

وحينئذ تجلت شخصية العربي في ضوء الإسلام، وقد اهتدت بنوره وآمنت بمبادئه — تجلت في أروع صور البطولة والفداء، والشعور بالكرامة والتحلي بالفضائل، والعمل لرفع شأن الدين والمجتمع والدولة، ولخير الإنسانية عامة، وتحريرها من قيود الذل والاستعباد والاستغلال — كما نشهد ذلك في شخصيات الرعيل الأول من المسلمين من الصحابة والتابعين، وأبطال الإسلام

فى الفتوحات الباهرة ،وهم الذين سجلوا الانتصارات الخالدة وتغلبوا على أقوى دول العالم .

الاسلام والحضارة

لقد كان ظهور الإسلام بدءالحقبة الجديدة التاريخية الهامةفى حياةالعرب. فقد سما بنفوسهم إلى أرفع الغايات ، ووحد صفوفهم ، وخلق منهم أمة واحدة قوية ، وجعل لهم رسالة عالمية .وأوجد العوامل والأسس لبناء حضارة إنسانية راقية ، فانطلقت الطاقات الكامنة فى نفوسهم .

وهكذا أدى امتزاج العبقرية العربية بروح الدين الإسلامى السامى إلى هذه النتائج الباهرة التى عرفها التاريخ ، والتى هى أشبه بالمعجزات . وفى مقدمتها تلك الفتوحات والانتصارات الرائعةالتى جعلت الدولة الإسلامية تبسط سلطانها على دولتى الفرس والروم ،وتمتد من مدينة الرسول (ص) إلى شواطىء المحيط غربا ، وإلى حدود الصين والهند شرقا. وبذا قامت الدولة الإسلامية العالمية الكبرى ، والتى كانت أكبر وأقوى دولة فى عصرها ، ولمدى قرون عديدة .

وقد مرت هذه الدولة العربية الإسلامية بأدوار ، ولها تاريخ طويل . ولكنها كانت تمثل مجد العرب ، وكانت قوة كبرى للتحرر والقضاء على الطغيان . فحررت جماعات كثيرةمن الجنس البشرى ،ومزجت بينهم ،وجعلت منهم شعبا متجانسا موحدا . وكانت دولة ذات حضارة ، من أهدافها العلم والعمران ، وشعارها العدل والتسامح والإنسانية والإخاء . وقد كان من أثر هذه الحركة التاريخية الكبرى أن انتشر الإسلام ، واعتنقه الملايين من بنى الإنسان، إذأدركوا سموأهدافه ومبادئه . كماسادت اللغة العربية،فأصبحت

لغة عالم ممتد من شمال الأندلس إلى أواسط آسيا . وكانت لغة العلم والثقافة ، طوال العصور التي كانت أوربا فيها تائهة في ظلام العصور الوسطى .

قال أحد المؤرخين الغربيين، وهو يتحدث عن تلك العصور : « وأما في العصور الوسطى فقد أخرجت جزيرة العرب هذا الشعب الذى سيطر على معظم العالم المتمدين إذ ذاك ، وكانت مهدا لدين هو الإسلام الذى يدين به في يومنا هذا الملايين من البشر .

وقد استطاعت هذه الأمة في مدى قرن واحد أن تنشيء دولة عظيمة واسعة الأرجاء ، فاقت على امبراطورية روما في أوجها . وتتألق على هامة العرب تلك الهالة الوهاجة التي تقترن دائما بأسماء الفاتحين العالميين » .

وتحدث عن حضارتهم ، فقال : « ولم ينشئ العرب امبراطورية فحسب ، بل أنشأوا ثقافة زاهرة أيضا . ولقد كانت اللغة العربية ، طوال قرون عديدة في العصور الوسطى، لغة العلم والثقافة والفكر الراقى في جميع أنحاء العالم المتمدن بحيث كان ما ألف فيها فيما بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر، من التآليف الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية ، أكثر مما ألف في أى لغة أخرى . وهذه لغات أوربا الغربية لا تزال إلى الآن تحمل أثر الطابع العربى ، في طائفة كبيرة من الألفاظ التي اقتبستها من لغة العرب » .

اثر العرب على اوربا

وليس من اليسير عرض هذه الصفحات المجيدة من تاريخ العرب ، سواء في ميدان السياسة أو الحرب أو العلم أو النظام أو العمران ، كما أنه ليس من الممكن حصر هذه الأسماء الوفيرة من النوابغ الذين خرجتهم أمة العرب : من ساسة وحكام وقادة وأبطال وعلماء وفلاسفة وكتاب وشعراء ومصلحين، فهذه

كلها تعرف من التاريخ العربى أو الإسلامى. ولكن الجانب المهم هو أثر هذه الحضارة فى التقدم الإنسانى، وأثرها بصفة خاصة على أوربا والغرب.

وقد أصبح الآن من الحقائق الثابتة، التى لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر، الاعتراف بفضل العرب على التطور الثقافى والاجتماعى فى أوربا. ويعتبر المؤرخون المنصفون أثر الثقافة العربية فى مقدمة العوامل الرئيسية القوية التى أدت إلى إيجاد الحضارة الغربية الحديثة. وقد كتبت فى ذلك كتب وفصول عديدة، كتبها علماء أوربيون فى العصر الحديث، بحيث أصبحت حقيقة واضحة مؤيدة بالبراهين والأدلة، وأصبحت من الحقائق الأساسية التى تقرر فى التاريخ الأوروبى أو تاريخ الحضارات ومقارنتها.

وقد انتقلت الحضارة العربية إلى أوروبا من طرق مختلفة: من الأندلس فى أسبانيا، ومن صقلية، ومن الاتصال بالشرق فى أثناء الحروب الصليبية. كانت البلاد العربية من المغرب إلى المشرق تموج بطلاب العلم والعلماء، وتزدان بالمئات من المدارس والمكتبات والجامعات. فكانت النموذج الذى تطلعت إليه أبصار أوروبا، ووفد راغبو العلم من مختلف أنحاء الغرب إلى الأندلس، فاقتبسوا ونقلوا ما شاءوا من علوم العرب. وترجمت أهم الكتب الأساسية من علوم العرب إلى اللغة اللاتينية وغيرها. وعن طريق العرب وصلت علوم اليونان أيضا إلى الغرب. وقد كان «ابن رشد» عالم العرب فى الأندلس أكبر فيلسوف فى العالم فى عصره. وعنه، وعن أمثاله من فلاسفة العرب كابن عربى والغزالى — أخذ الأوربيون فلسفتهم. وأنشئت الجامعات فى أوروبا على غرار الجامعات فى البلاد العربية. وقد تثقف الامبراطور «فردريك الثانى» ملك صقلية بآداب العرب وعلومهم، وشجع حركة ترجمة هذه العلوم إلى اللغات

الأوربية . وحين وصل الصليبيون إلى بلاد المشرق انبهروا بما رأوه من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ، فأخذوا يقلدونها وينقلون منها إلى بلادهم .

ولم يكن اهتمام العرب قاصرا على العلوم العقليــة والدينية ، بل اهتموا كثيراً بالعلوم الطبيعية وبالصناعات . وهم الذين وضعوا « المنهج العلمى التجريبى » المبنى على الملاحظة والتجربة ، فأخذته عنهم أوربا . وقد دون التاريخ أن العرب قاموا بتجارب عديدة عملية ، فى مجال الطبيعة والكيمياء والفلك والطب .

وقاموا برحلات عديدة إلى أنحاء العالم ، فأضافوا معلومات هامة إلى علم الجغرافيا ونبغوا فى علوم الرياضة ، واخترعوا علم الجبر ، ووضعوا أسس علم الاجتماع . وكانت أسماء الرازى ، وجابر بن حيان ، والخوارزمى ، وابن سينا ، والخازن وابن الهيثم ، والبتانى ؛ والبيرونى ، وغيرهم — معروفة فى أوربا .

فهذه كلها كانت من العوامل التى أدت إلى نشاط الفــكر الأوروبى ، وتطور المجتمع ، فأخذت أوربا تخرج من ظلمات العصور الوسطى إلى آفاق العصر الحديث . وبدأت آثار ذلك تظهر منذ القرن الثانى عشر ، فكان ذلك كله من أسباب النهضة الحديثة التى وضحت فى القرن السادس عشر ، واستمرت حتى الوقت الحاضر .

بين القوة والضعف :

وطول تلك العصور ، ظلت الأمة العربيــة محتفظة بقوتها وفى مكان السيادة والقيادة ، واستطاعت أن تواجه العديد من الأعداء فى مختلف الجبهات : فواجهت الروم والفرس والترك والمغول والصليبيين والفرنجة ، فتغلبت عليهم عليهم جميعاً وبقيت فى مكانها وواصلت وجودها وتابعت رسالتها . ولقــد انقرض كثير من الشعوب القديمة : من البابليين والكلدانيــين والحيثيين

والآراميين والفينيقيين ، ولكن الأمة العربية ما زالت باقية حية ، ويرجع تاريخها إلى أقدم العصور . واللغة العربية هي أقدم اللغات الحية الآن في العالم ، فهي لغة خالدة لأمة عريقة ، ذات جذور راسخة في أعماق التاريخ .

ثم تعرض العالم العربي لعوامل الضعف ، وتغيرت أحواله ، حين ابتلى بمحنة الحكم العثماني . وكان هذا الحكم يعتمد على الرابطة الدينية ، ولكنه لم يكن حكماً صالحاً ، وأهمل البلاد العربية إهمالا فادحاً ، إذ كان كل همه جباية الأموال ، دون أن يقوم بأي أعمال للتعمير أو التجديد ، أو يعنى بنشر العلم . فساءت أحوال الشعوب في العالم العربي ، ومنيت بالتأخر وعمها البؤس والظلم . وكانت الدولة العثمانية قد تخلفت عن العصر ، وظلت في حالة جمود ، في الوقت الذي نهضت فيه الدول الأوروبية نهضة فائقة ، في جميع نواحي الحياة . وازدادت قوة أوروبا زيادة كبيرة بعد تحقق نتائج « الثورة الصناعية » . فأصبحت الدولة العثمانية حينئذ تنتمي إلى العالم القديم . وانعكست كل هذه الآثار السيئة على العالم العربي ، فأضحى فريسة تتطلع إليها الدول الأوروبية الطامعة . وكانت نتيجة هذا الضعف أن اندفع الاستعمار يشن عدوانه على الأقطار العربية واحداً بعد الآخر ، خلال القرن التاسع عشر ، واستمر العدوان حتى القرن العشرين .

بدء النهضة العربية :

لكن العالم العربي أو الأمة العربية ما لبثت أن تنبهت إلى هذه الأحوال، وثارت على هذه الأوضاع ، فبدأت منذ مطالع القرن التاسع عشر تسعى لإصلاح أحوالها . لكن رابطتها مع الدولة العثمانية كانت لا تزال تثقلها وتعوقها عن السير في طريق الإصلاح . وكان العبء كبيراً وآثار الماضي متراكمة ،

والأدواء مستحكمة . فهناك تركة : من جهل وفقر ومرض وجمود ، تنوء بها كواهل العاملين من أجل الإصلاح .

ولكن في وجه ذلك كله ، أخذت الحركات والثورات والدعوات تظهر من حين لآخر في أنحاء العالم العربي — ثورانا على الأوضاع الداخلية ، أو على حكم استبدادي ، أو على الدولة العثمانية ، أو على قوى الاستعمار العدوانية ، أو على الأمراض الاجتماعية . فاستمرت جهود الأمة العربية — طوال القرنين التاسع عشر والعشرين — توجه للتخلص من آثار ماضي التخلف ، ولمقاومة الاستعمار الباغي ، وتحرير نفسها من ربقة استيلائه . وأيضاً للنهوض للحاق بركب العالم المتقدم ، واقتباس وسائل العصر الحديث .

ويدون التاريخ أن الأمة العربية نجحت في أنها بدأت نهضة ، أدت إلى نتائج نافعة ، وبدت عليها دلائل يقظة سياسية وفكرية واجتماعية ، منذ أواسط القرن الماضي ، وأثبتت حيوية كانت كامنة تبشر بقوى هائلة وطاقة جبارة . وأخذت تشعر بذاتيتها ، وتستعيد عناصر قوتها ، وتظهر شخصيتها وتحقق إرادتها ، وتربط بين حاضرها وماضيها السابق المجيد منذ عهد العروبة والإسلام ، وأيام السيادة والمجد، وتفوق وانتشار حضارتها ، وتعزم أن تعيد عهد المجد الماضي ، وأيام استقلالها ورقيها وعزتها وكرامتها ، وتتهيأ بذلك لأن تستأنف رسالتها من جديد إلى الإنسانية والعالم . وهذا الشعور كله — بكل معانيه وأهدافه — هو حركة « الإحياء »، التي أخذت تعم العالم العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر . وهو شعور الذاتية العربية ، أو هو مولد هذه الطاقة الهائلة التي أخذت تظهر شخصية الأمة العربية قوية متحدة ، وهي ما نسميها الآن في مظهرها السياسي بـ « القومية العربية » .

عوامل ظهور القومية

كان من عوامل ظهور القومية العربية حركة الجهـــاد المستمرة ضد الاستعمار ، وشعور شعوب الأمة العربية بوجوب التضـامن فى وجه الخطر المشترك ، وفظائع الجرائم التى يرتكبها الاستعمار . فأثار هذا كله روح النخوة والشعور الكامن بالعزة ، والوقوف معاً للدفاع عن كرامة الأمة . كما أدى إلى ظهورها أيضاً مساوىء الإدارة العثمانية واستبدادها وفسادها . وكان ذلك كله فى وقت انتشر فيه التعليم ، ووجدت فيه المطابع ، وصدرت فيه الصحف ، فنتج عن ذلك حركة بعث وإحياء للآداب والعلوم العربية ، واتصل القديم مباشرة بالحديث . ثم نشطت الحركات السياسية التى تهدف إلى الحرية وإعلاء إرادة الأمة ، التى تمثلت فى المطالبة بالدستور فى الأقطار العربية .

وتم تميز القومية العربية ، حين انحرف الأتراك « الاتحاديون » الذين استولوا على الدولة العثمانية ، فنادوا بالتعصب للقوميـة التركية أو الطورانية ـ وذلك فى السنين قبيل الحرب العالمية الأولى ـ فأدى هذا إلى استياء العرب ونفورهم من هذا التعصب والاستبداد والاضطهاد ، فانبلج ضوء القوميـة العربية ، وازداد الشعور بها قوة . وأخذت تظهر شخصية الأمة العربيـة مستقلة واضحة ، إذ تخلصت من الارتباط بالنفوذ التركى الذى كان يشدها برباط الدين .

ويعتبر هذا بدء مولد الأمة العربية فى صورتها الحديثة ، وبدء تاريخها السياسى فى العصر الحديث : وتمت هذه العملية كلها بانتهاء الدولة العثمانية واختفائها من الوجود . عقب الحرب العالمية الأولى . وكان ذلك إحدى النتائج الهامة لتلك الحرب ، وعلى إثر ذلك ظهر العالم العربى الحديث.

فإذا نظرنا إلى العالم العربى ، فإنا نجده كتلة واضحة تملأ منطقة الشرق الأوسط ، ممتدة من المحيط إلى الخليج . وتتكون من ستة عشر قسما ، هى على الترتيب من المغرب إلى المشرق : مراكش أو المغرب الأقصى ، فالجزائر ، فتونس ، فليبيا ، فالجمهورية العربية المتحدة (مصر) ، فالسودان ، ففلسطين ، فالأردن ، فلبنان ، فسوريا ، فالعراق ، فالكويت، فإمارات الخليج ،فالمملكة السعودية (الحجاز ونجد) فجمهوريتا اليمن : الشمالية والجنوبية . وهى كتلة ضخمة تتكون من نحو مائة مليون نفس ، وَتشغل منطقة من أهم المناطق فى العالم بأسره .

وترجع أهمية منطقة الشرق الأوسط أو منطقة العالم العربى - إلى أنها تقع وسط العالم ، أو نقول هى « قلب العالم » . فهى تقع بين القارات الثلاث : إفريقيا وأوروبا وآسيا ، وتشرف على أهم بحرين فى العالم ، وهما : البحر المتوسط والبحر الأحمر . وتجرى فيها قناة السويس ، وهى شريان حيوى من أهم طرق التجارة الدولية . فهذه المنطقة هى مركز المواصلات والخطوط العالمية ، البرية والبحرية والجوية ، وازدادت هذه الأهمية فى عصر الطيران . ومن ثم ، فإن هذه المنطقة ذات أهمية « استراتيجية » : أى حربية فائقة . ولذا كانت محل اهتمام الدول ومثار صراع دولى . ثم تضاعفت أهمية هذه المنطقة فى العصر الحديث بظهور البترول فيها بكميات هائلة ، تمثل أعلى نسبة فى العالم . فأثار هذا مطامع الدول الاستعمارية ، وأدى إلى المشكلات الدولية الخطيرة ، التى يشهدها النصف الثانى من القرن العشرين . وكل هذه العوامل هى التى تقف وراء اعتداء الاستعمار ، ومساندته لقريبته الصهيونية .

فالعالم العربى إذن هو قوة أو طاقة هائلة ، بموقعه الجغرافى وأهميته التجارية والحربية ، وبموارده الاقتصادية الوفيرة ، وفى مقدمتها « البترول » الذى هو الروح المحركة اليوم للمصانع وآلات الحرب من طيارات ودبابات ، ووسائل المواصلات الحديثة ،ويمثل ثروة ضخمة لمالكيها ومستثمريها .

مقومات الوحـــدة

والعالم العربى يكون أمة واحدة ، لأنه تتوفر له جميع مقومات الوحدة .

وحدة الوطن

فهناك وحدة الوطن أو الوحدة الجغرافية،لأن الوطن العربى كله من المحيط إلى الخليج هو أرض واحدة متصلة ، فهى جديرة أو أجدر بأن تكون وطنا لدولة كبرى واحدة . وإذا كان يقال إن الجغرافيا تحكم التاريخ ، فإن هـــذه الوحدة الجغرافية تتطلب ، أو تحتم ، أن تقوم فوقها وحدة سياسية — سواء أ كانت دولة واحدة : مثل دولة الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة الأمريكية ، أو دولة الهند، أو دولة الصين الشعبية، أو كانت ترابطا سياسيا واقتصاديا متيناً بين أجزاء كتلة سياسية . وفى الوقت الذى تقدمت فيه وسائل المواصلات السريعة لا يكون مثل هذا الاتحاد أو الوحدة عسيرا . والأولى أن تتدرج البلاد العربية فى تكوين أشكال الاتحاد بينها : من اتحاد « كنفدرالى » ، إلى « اتحاد فدرالى » ، إلى الوحـــدة التامة أو الدولة الواحدة ، مع الاحتفاظ بالمميزات المحلية للوحـدات أو الأقاليم التى تتألف منها .

وحدة اللغة

وهناك وحدة اللغة . وهى رباط أساسى وثيق، لأنه سبيل التفاهم ودعامة الوحدة ، وأساس توحد الثقافة والأفـكار . والواقع أن العربى فى أقصى الشرق : فى العراق أو الخليج ، يستطيع أن يتفاهم مـــع العربى فى أقصى الغرب : فى المغرب الأقصى ، أو الجزء الجنوبى منه الذى يسمى «بموريتانيا» . والسودانى يتفاهم مع المصرى ، أو السورى أو التونسى — كلهم يتفاهمون بلغة واحدة ، هى اللغة الفصحى ، أوما يقرب منها ، مهما تعددت اللهجات . واللغة الواحدة هى المظهر الإنسانى الأول لوجود الـكيان القومى ، ولذا يجب المحافظة عليها ، ومحاربة أى محاولة لإضعافها أو تشويهها، أو تحويلها إلى لهجات محلية أو عامية ، لأن فى المحافظة عليها الاحتفاظ بأساس القومية .

ويجب أن لا ننسى أنه كان من أكبر الأسباب فى حفظ اللغة العربية ، عبر القرون حتى اليوم ، القرآن الـكريم .

وحدة الثقافة

وهناك وحدة الثقافة المشتركة . وقد وجدت هذه نتيجة لوحدة اللغة .

فالآداب والعلوم العربية الموروثة ، من أيام العرب قبل الإسلام ، ومن العهود الإسلامية طوال القرون ، من الأندلس إلى العراق — هى ثقافة عربية مشتركة ، يقرؤها ويفهمها كل عربى فى البلاد العربية ، ويتأثر بها وجدانه ، وتكون الأساس الثابت لعقليته . فينتج عنها عقل عربى ذو طبيعة واحدة أو متشابهة ، وذوق وعواطف متوحدة أو متقاربة : يقرأ كل عربى معلقات العرب وأشعار حسان بن ثابت والفرزدق وجرير والبحترى وأبى تمام والمتنبى والمعرى ، وشعراء الأندلس والمغرب ومصر ، ورسائل بلغاء العرب وخطبهم ،

وكذلك آدابهم من شعر ونثر فى العصر الحديث ، وكذلك مؤلفات العلماء العرب : فى علوم التفسير والحديث والشريعة والكلام والفلسفة ، والتاريخ مثل مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وغير ذلك — فتكون هذه كلها ثقافة واحدة مشتركة بين أبناء الأمة العربية جميعا ، فى مختلف أقاليمهم من شمال سوريا إلى جنوب السودان ، ومن إمارات الخليج إلى جبال المغرب . وهذه الثقافة هى التراث العربى الخالد ، الذى يشعر العرب بأن أمتهم أمة منتجة ذات فكر نشيط ، أسهمت فى إثراء وتقدم الثقافة الإنسانية ، فيجعلهم هذا يعتزون بمقدرة أمتهم ، وامتيازها وقيمتها وحيويتها .

وحدة الحضارة والعقيدة

وهناك أيضا الحضارة المشتركة . ونعنى بهذه التقاليد والمبادىء والأصول التى تقوم عليها الحضارة الاجتماعية .

وحضارة المجتمع العربى تتأسس على التقاليد العربية الأصيلة - التى أشرنا إلى جانب منها من قبل — وهى الاعتزاز بالكرامة الإنسانية ، ونبل النفس والشجاعة والكرم والوفاء بالعهد . ومن التقاليد الأصيلة أيضاً الاعتقاد فى المساواة ، وحب الحرية ، ورفض الخضوع للسلطة المستبدة أو الفردية. فالعربى إذن ديمقراطى بطبيعته. الأساس الثانى الكبير ،الذى تقوم عليه الحضارة العربية الأخلاق الإسلامية: وهى تجمع التقاليد العربية الأصيلة ،التى ذكرناها وأمثالها، وتؤكدها وتقويها ، ثم تضيف إليها مشاعر المحبة والتواد والإخاء والتسامح ، وقول الحق ، والولاء للعدل والقانون بدل العصبية ، وللأمة والمجتمع بدل القبيلة ، وخدمة المصلحة العامة ، والتكافل الاجتماعى والتعاون ، والتسابق فى أعمال الخير ، والعمل للإصلاح ، والجهاد فى سبيل الله.

ولذا ، فإن وحدة الحضارة تشمل فى نفس الوقت وحدة العقيدة أو الوحدة الدينية. فالإسلام هو دين الأغلبية العظمى من الأمة العربية . ومبادؤه الأخلاقية وقانونه المتمثل فى الشريعة الإسلامية تكون الأسس المتينة الثابتة للحضارة العربية ، منذ بدء عهد الإسلام . والإسلام كان أكبر العوامل فى إيجاد وبناء هذه الحضارة بصورتها الباهرة التى تجلت بها فى تلك العصور . وحتى الذين بقوا على عقيدتهم القديمة، وهم أقلية كالعرب المسيحيين، فإنهم عاشوا ويعيشون فى جو الإسلام وضوء حضارته ويتعاملون مع إخوانهم المسلمين فى إخاء وتحاب وتعاون وتسامح ، فصار المجتمع العربى موحدا منسجما .

والحضارة العربية تكره التعصب والانغلاق ، فهى مستعدة للاتصال بالحضارات الأخرى الراقية والتأثر بها ، والانتفاع بآثارها . وقد اقتبس المجتمع العربى فى القديم من حضارة اليونان أو الرومان ، ويقتبس اليوم من الحضارة الغربية مايزيده قوة وتقدما ونظاما ، أو ما يسمو بحضارته ويدعمها ، بشرط أن لايتعارض مع المبادىء الأساسية للحضارة العربية الإسلامية .

وحدة التاريخ والاصل

وهناك وحدة التاريخ :

فالعالم العربى له تاريخ واحد منذ ظهور الإسلام .وكانت تجمعه دولة واحدة طوال عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد الدولة الأموية ، فعهد الدولة العباسية . وكان نظام هذه الدولة هو « الخلافة » التى كانت رمزا للوحدة ، مهما تعددت الوحدات السياسية داخلها .وكان الوطن العربى يعتبر مسرحا واحدا تتنقل عليه الأحداث والأشخاص ، ويقف كله جبهة واحدة أمام الأعداء . كما أن الأعداء كانوا ينظرون إليه كوحدة . وخاض العالم العربى المعارك ضد الروم والصليبيين

بروح واحدة وشعور واحد - وإن كان يقابلها ببعض قواه أو بالبعض الآخر. لكنه كان يعتبر الاعتداء على جزء منه اعتداء على كل الوطن العربي. ويعتبر المعركة في أي ناحية معركته كلها. وكان المثل السياسي الذي يتطلع إليه دائما هو أن تتوحد جميع أقطاره في دولة واحدة، فكانت الحركات التاريخية الكبرى فيه تهدف إلى هذه الغاية.

وقد كان من نتائج وحدة واستمرار التاريخ أن انصهرت العناصر التي كانت تتكون منها الأمة العربية، وامتزجت الأجناس واندمجت، فأصبحت كلها عنصرا أو جنسا واحدا، مهما اختلفت نسبة الأصل أو الدم العربي من قطر إلى آخر. فقد تكفل التاريخ المشترك واللغة والثقافة المشتركة بأن مزجت العناصر وأخرجت منها طبيعة واحدة هي الطبيعة العربية. وانحدرت أجيال الأمة من هذه الطبيعة. وهذا هو الذي يسمى أحيانا «بوحدة الأصل». ولكن جعلناها جزءاً من وحدة التاريخ أو نتاجا لها.

وفي العصور الأخيرة، أمكن للدولة العثمانية التي كانت دولة دينية، أن تجمع معظم أقطار العالم العربي في دولة واحدة، واستمر هذا الترابط والتوحد حتى العصر الحديث. وجاء الاستعمار فنظر إلى العالم العربي كوحدة، وأخذ يشن عدوانه عليه في هذا المكان أو ذاك، ويدبر خططه ويحيك مؤامراته ضده جميعا. وكان شعور الأمة العربية متحدا ضد الاستعمار. فالأمة العربية لها إذن تاريخ واحد مشترك الأحداث والغاية، واستمر هذا التاريخ متصلا منذ بدء الإسلام — أربعة عشر قرنا متتالية - حتى الوقت الحاضر، وهو التاريخ العربي الإسلامي.

وحدة المصالح المشتركة :

وهناك وحدة المصالح المشتركة :

فالوطن أو المجتمع العربى يعتبر وحدة متكاملة : من النواحى الاقتصادية والثقافية والحربية أو الدفاعية ، يكمل بعضه بعضاً ويقوى بعضه بعضاً . وإنه من الممكن أن يكون سوقاً اقتصادية مشتركة ، تتبادل فيه المواد والأموال والمنافع . إذ أن كل جزء أو قطر فيه يحتاج إلى موارد ومنتجات الأجزاء الأخرى . وبالتعاون والتعامل ، تتحقق وتتضاعف المصالح المشتركة بين جميع الأقطار العربية .

وهـــذا الذى هو صحيح بالنسبة للاقتصاد ، ينطبق أيضاً على مجالات التبادل الثقافى أو الفــكرى . وينطبق أيضاً على المسائل الحربية أو مصالح الدفاع . فالأقطار العربية كلها يحتاج بعضها إلى بعض ، ويعتمد بعضها على بعض ، فى مقتضيات الحرب وحاجات الدفاع . فمصالحها مترابطة مشتركة فى ذلك ، ولا يمكن لقطر عربى أن يعزل نفسه أو ينعزل عن أشقائه ، وإلا عرض نفسه لأفدح الأخطار ، ولا يستطيع الدفاع بسهولة عن نفسه . ولذا ، فإن هذه المصالح المشتركة — اقتصاديا وثقافياً وحربياً — هى التى كانت دائماً توجب الوحدة ، وهى التى تدعو إليها فى كل وقت وتجعلها محتمة .

وحدة الخطر والمصير المشترك

ثم هناك الخطر المشترك والمصير الواحد :

فالعالم العربى يكون كتلة واحدة ، مثل البناء الـكبير المتين ، إذا انهار أو انهدم جزء منه أدى ذلك إلى ضعف البناء ، وأنذر بتخلخله أو تهدمه . أو هو مثل الجسم الواحد ، إذا أصيب منه عضو اشتكى ، أو تداعت — أى

تجاوبت — لهسائر الأعضاء بالسهر والحمى ، لأن أثر الإصابة والألم يمتد إليها. فبقاء العالم العربي مرتبط بعضه ببعض ، وجوهره أو روحه كل لا يتجزأ، وأعداؤه ينظرون إليه هذه النظرة . وهؤلاء الأعداء — في العصر الحاضر - هم المستعمرون ، وأتباعهم الصهيونيون . فهم ينظرون للعرب كلهم على أنهم خصم واحد وجنس واحد . وغاية المستعمرين إخضاع العرب كلهم لاستغلالهم وهدف الصهيونيين إبادة العرب أو إخراجهم من أوطانهم ليحلوا المهاجرين اليهود محلهم .

وهم يعادون العرب لأنهم يعادون الإسلام ، ويعادون الثقافة والحضارة العربية التي يمثلها العرب جميعاً . فالاستعمار والصهيونية يدفعهما أيضاً — إلى جانب المطامع الاقتصادية والأهداف الحربية — يدفعهما تعصب ديني وجهل وحقد كريه ، موروث من أيام عداء اليهود للاسلام ،وأيام حروب الصليبيين - هـذا إلى جانب غرائز أو نوازع الإجرام والتوحش ، التي لا تزال متأصلة في أعماق اليهود والمستعمرين من أوربيين وأمريكيين . وقد كان أكبر ممثل للاستعمار وأكبر عدو للعرب ، منذ القرن الماضي حتى أواسط القرن الحالي ، هم البريطانيون والفرنسيون — وهم الذين أوجدوا إسرائيل . ومنذ الحرب العالمية الثانية صار أكبرعدولهم - ويبدو أنه شر عدو على الإطلاق - هم الأمريكيون ، الذين يساندون إسرائيل ويعدونها بالأسلحة والأموال ، ويريدون أن يضربوا بها العرب جميعاً . فما زلنا إذن في عهد الاستعمار — وإن اتخذ شكلا أو أشكالا جديدة — والعرب جميعاً مهددون بهذا الاستعمار ومطامعه ومشروعاته .

فالأمة العربية تواجه هذا الخطر المشترك ، ومصيرها واحد . وهـذا يحتم

عليها – من أجل البقاء والدفاع عن الحياة ، إن لم يكن من أجل الاحتفاظ بالاستقلال والعزة والكرامة، ومواصلة التقدم والارتقاء – يحتم عليها أن تكون دائماً قوة واحدة ، وصفا واحداً ، ويداً وقلباً واحداً ، حتى تستطيع أن تدفع عن نفسها هذا الخطر أو هذه الأخطار ، وتعيش فى أمن واستقرار وسلام .

تجارب الوحدة

والشعور بوجود هذه المقومات ، أو الشعور بوحدة الأمة العربية ، الكامن فى نفس كل فرد من أبناء الأمة العربية – أو الشعور « بالقومية العربية » – هو الذى دعا بعض الأفراد من شعراء وكتاب العرب إلى أن يتغنوا بمجد العرب، ويثيروا فيهم روح الاعتزاز بقوميتهم ، ويحثوهم على الاستقلال عن التبعية لغيرهم ، ويدعون إلى قيام الوحدة العربية . فظهرت إذن هذه الدعوات فى العالم العربى منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وقويت وعلا صوتها بعد اتباع الأتراك الاتحاديين سياسة التتريك والتعصب ، واضطهاد العرب . فكانت ثورة بعض العرب فى الشرق على الأتراك ، فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، تعبيراً عن ظهور هذه القومية العربية فى صورة سياسية . وأثمرت هذه الحركة قيام بعض دول عربية جديدة .

لكن العالم العربى وجد نفسه مشغولا – عقب الحرب العالمية الأولى بالمقاومة والجهاد ضد الغزو والاحتلال الأجنبى ، الذى شمل كل أقطاره تقريباً . وفى أثناء المعركة ، كان يسمع أنات أو صرخات الألم من فلسطين الجريحة التى دهمها الاستعمار والصهيونية . فكانت الأحداث تدفعه إلى بذل جهود ومحاولات ، من حين لآخر ، لتكتيل قواه أو السير خطوات نحو الوحدة ، أو عقد معاهدات لإزالة الخلافات وتوثيق عرى الأخوة .

فمن هذه الجهود أو التجارب : المؤتمر العربى الإسلامى، الذى عقد فى القدس فى عام ١٩٣١ ، لبحث مسألة فلسطين والشئون العربية عامة . ومعاهدة الصداقة التى عقدت بين المملكة السعودية والعراق فى نفس العام ، وقد جاء فى مقدمتها : « وبناء على رغبة جلالتيهما فى بذل ما يستطاع لجمع شمل الأمة العربية وتوحيد كلمتها » . وفى نفس العام أيضا عقدت معاهدة صداقة بين العراق واليمن ، وجاء فى مقدمتها : « تمهيدا لتوحيد كلمة الأمة العربية » .

ولما نشب خلاف بين المملكة السعودية واليمن فى عام ١٩٣٤ ، أسرع زعماء العرب وتألف وفد من مصر ، فتوجه للتوسط بين المملكتين ، ونجح فى إعادة الاتفاق وتصفية الجو ، فأبرمت معاهدة صداقة بين البلدين ، وجاء فى مقدمة للمعاهدة : « إنه رغبة فى إنهاء حالة الحرب التى كانت قائمة ـ لسوء الحظ — فيما بينهما ، ورغبة فى جمع كلمة الأمة العربية الإسلامية ، ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها — قررا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما » . وكان لنجاح الوساطة وعقد هذه المعاهدة رنة فرح كبيرة، تردد صداها فى جميع أرجاء العالم العربى . وفى عام ١٩٣٦ عقدت معاهدة صداقة وتحالف بين المملكة العربية السعودية ومصر، أنهت ما كان بينهما من سوء تفاهم ، وتوطدت علاقات الأخوة بين الدولتين .

وبعد أن قام العرب فى فلسطين بثورتهم ضد الغزو الصهيونى كان الشعور عاما فى البلاد العربية بوجوب التضامن ، وتأييد إخوانهم العرب فى فلسطين فى ثورتهم ومقاومتهم لهذا الاعتداء على وطنهم وحقوقهم . فكان أول عمل قام به وفد مصر ، حين دخلت مصر «عصبة الأمم» فى عام ١٩٣٧ ، أن وقف الوفد يدافع عن قضية فلسطين ، ويندد بالاستعمار والاعتداء الصهيونى ، وكان لهذا الدفاع

صدى فى الدوائر الدولية ، فاضطرت بريطانيا ، تحت ضغط العرب وبسبب تضامنهم ، إلى دعوة ممثلين للدول العربية لعقد اجتماع « المائدة المستديرة » ، الذى عقد فى لندن فى عام ١٩٣٩ ، لبحث قضية فلسطين. وكان اجتماع مندوبى الدول العربية ، على مائدة واحدة لبحث قضية مشتركة ، أول مظهر لاتحاد الدول العربية فى مؤتمر دولى .

الجامعة العربية :

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية قويت الرغبة فى إيجاد منظمة رسميه تمثل اتحاد أو وحدة العرب . وكانت التطورات الدولية والعربية تقتضى ذلك . فبدئت المشاورات فى صيف سنة ١٩٤٣، بين رؤساء حكومات الدول العربية المستقلة ، فاجتمعت كلمتهم على « إنشاء جامعة تضم الدول العربية المستقلة » . وانتهت المباحثات بتوقيع « بروتوكول » الإسكندرية ، فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . وفى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ أنشئت « جامعة الدول العربية » وأعلن ميثاقها.

ولم يكن هذا الميثاق محققا لكل أمانى العرب، ولكن إنشاء الجامعة ــ على كل حال ــ كان خطوة فى سبيل التعاون والتضامن بين العرب . وكان للجامعة جهود طيبة فى تأييد القضايا العربية ، ومساعدة بعض الدول على الاستقلال ، وأداء خدمات ثقافية واجتماعية فى المجال العربى ــ إلا أنها لم تستطع مواجهة المؤامرة الاستعمارية لإقامة إسرائيل، ولم تنجح فى توحيد قوى العرب السياسية والعسكرية . وهى لا تزال قاصرة عن تحقيق الآمال العربية ، فهى تحتاج إلى تعديل وتطوير بحيث تتحول إلى اتحاد أقوى للدول العربية، ذى سيادة عامة وله قرارات ملزمة وإجراءات فعالة .

الضمان الجماعى :

وبعد أن ظفرت سوريا باستقلالها فى عام ١٩٤٦ ، وبعد حرب فلسطين (١٩٤٨) — دعت حكومة سوريا المستقلة إلى عقد معاهدة بين الدول العربية للدفاع المشترك ، فعقدت هذه المعاهدة باسم معاهدة « الضمان الجماعى » فى يونيه سنة ١٩٥٠ .

وكانت نصوص هذه المعاهدة معبرة عن المطالب العربية ، إلا أنها — مع الأسف ـ لم تنفذ فيما بعد. وقد جاء فى المادة الثانية من هذه المعاهدة : «أن الدول المتعاقدة تعتبر كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة أو أكثر منها أو على قواتها ـ اعتداء عليها جميعاً. ولذلك فإنها ـ عملا بحق الدفاع الشرعى، الفردى والجماعى، عن كيانها ـ تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة أو الدول المعتدى عليها ، وبأن تتخذ ـ على الفور ومجتمعة ـ جميع التدابير ، وتستخدم جميع مالديها من وسائل، بما فى ذلك القوة المسلحة ، لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابهما ». ونصت المادة الخامسة على أن تؤلف لجنة عسكرية دائمة ، من ممثلى هيئة أركان حرب جيوش الدول المتعاقدة ، لتنظيم خطط الدفاع المشترك ، وتهيئة وسائله وأساليبه . ونصت المادة السادسة على أن يؤلف مجلس للدفاع المشترك ، من وزراء الخارجية والدفاع الوطنى للدول المتعاقدة ، يختص بجميع الشئون المتعلقة بتنفيذ أحكام المعاهدة .

نقول: وهذه النصوص يجب أن توضع دائما موضع التطبيق .

ولما عقدت مصر صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ـ فى سبتمبر عام ١٩٥٥ ـ وكسرت بذلك احتكار السلاح الذى كانت تفرضه الدول الغربية الاستعمارية على دول الشرق العربى ، كان لذلك صدى كبير من الاغتباط

فى أنحاء البلاد العربية ، إذ شعر العرب أن دولة عربية تستطيع أن تنشىء جيشاً قوياً مسلحاً بأحــدث وأقوى الأسلحة ، بدون تحكم واحتــكار من الأعداء ، ليــدافع عن حقوق العرب وسيادتهم ، ويعمل لتحرير فلسطين . فـكان هذا التأييد العام دليل الشعور بالوحدة والخطر المشترك .

الجمهورية العربية المتحدة

وتجلى هذا الشعور مرة أخرى عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ ،عقب تأميم قناة السويس.فأدت كل هذه الأمور – إلى جانب تهديد الدول الاستعمارية لسوريا وغيرها — أدت إلى أن فـكر زعماء سوريا فى إقامة دولة واحدة تضم سوريا ومصر ، فقامت هــذه الدولةفى فبراير سنة ١٩٥٨ ، وأطلق عليها اسم « الجمهورية العربية المتحـدة » . وكانت تجربة رائدة جريئة لتـكوين وحدة عربية . وعاشت هــذه الوحدة — فعلا — ثلاث سنوات ، حتى سبتمبر عام ١٩٦١ .

ثم حدثت تجربة أخرى بعد عامين،حيث سعى زعماء العراق وسوريا ومصر لعقد اتفاق لإقامة دولة عربية كبرى، تتألف من هذه الدول الثلاث . وقد وضع فعلا دستور هذه الدولة ، وأعلن فى ١٧ ابريل عام ١٩٦٣ — على أن يبدأ قيام الدولة فى آخر سبتمبر من نفس العام . ولـكن أموراً طرأت منعت التنفيذ .

وكان مما جاء فى ديباجة «ميثاق الوحدة» مايلى: « امتثالا لإرادة الشعب العربى فى الأقطار الثلاثة ، وفى الوطن العربى الـكبير — فقد استلهمت الوفود فى كل مباحثاتها الإيمان بأن الوحدة هدف حتمى ، يستمد مقوماته من وحدة اللغة التى تحمل الثقافة والفكر ، ووحدة التاريخ التى تصنع الوجدان والضمير، ووحدة الـكفاح الشعبى التى تقرر وتحدد المصير ، ووحـدة المفاهيم الروحية

والإنسانية النابعة من رسالات السماء ، ووحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية القائمة على الحرية والاشتراكية ، واسترشدت بإرادة الجماهير الشعبية العربية التى تطلب الوحدة ، وتناضل لإدراكها ، وتضحى حماية لها وحفاظا عليها ».

وهكذا تعاقبت هذه التجارب والمحاولات نحو تحقيق آمال الأمة العربية فى الوحدة . ولابد أن تنجح الأمة يوما ما فى تحقيق هذه الوحدة ، لأن هذا هو مصير تطورها الطبيعى ، ولأنه يتوقف عليه بقاؤها .

نجاح العالم العربى

وإذا كانت الوحدة — وهى الغاية الكبرى — لم تتحقق بعد ، ولا بد أن الأمة ستصل إليها بعد أن تتم مرحلة النضج ، وتحدث تطورات ، وتوجد الظروف الملائمة — فإن التضامن بين الشعوب العربية كان دائما موجوداً ، وقد تضامنت وساند بعضها بعضاً فى الجهاد من أجل الاستقلال .

وكان من نتائج ذلك أن الأمة العربية حققت نجاحاً كبيراً ، فى معارك جهادها ضد الاستعمار القديم ، الذى كانت تمثله بريطانيا وفرنسا وإيطاليا : فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ، نرى أن سوريا ولبنان ظفرتا باستقلالهما فى عام ١٩٤٦ . وأعلن استقلال ليبيا فى عام ١٩٥١ . وعقدت مصر معاهدة مع بريطانيا من أجل الجلاء عام ١٩٥٤ ، فجلا آخر جندى بريطانى عن أرض مصر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ ، وأعلن استقلال السودان فى أول عام ١٩٥٦ . وأكد الأردن استقلاله فى نفس العام ، ثم أتم العراق استقلاله فى عام ١٩٥٨ ، وتوج الجهاد العنيف الذى خاضته أقطار المغرب العربى ، ضد الاستعمار الفرنسى ، بإعلان استقلال تونس فى عام ١٩٥٥ ، فاستقلال مراكش فى عام ١٩٥٦ ، ثم استقلال الجزائر فى عام ١٩٦٢ . وأعلن استقلال عدن فى عام ١٩٦٦ .

وهكذا، يعتبر أن العالم العربى خطا خطوة هائلة وأتم مرحلة هامة فى تاريخه، فسجل انتصاره أو انتصاراته على الاستعمار القديم — الذى كان قد أنشب مخالبه فى بلاد العروبة، منذ القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية. ظهر العالم العربى إذن مكونا من دول مستقلة عديدة، واسترد سيادته وأجلى الجنود الأجنبية عن أراضيه. وبذا تجلت ذاتيته فى المجال الدولى، وأصبح يجمع قوى سياسية، لها وزنها ولها أثرها. وأصبحت الأحوال ملائمة والطريق مفتوحاً ليدخل فى مرحلة البناء، وتدعيم القوة، وتثبيت المكاسب التى حصل عليها. ومؤدى ذلك أن العالم العربى صار قويا مستقلا، وقد وضع قدمه فى طريق الرقى والمجد، وسيكون أقوى على تحقيق الوحدة فى المستقبل بعد أن وصل إلى هذه المرحلة.

غير أن الاستعمار وضع فى طريقه هذه العقبة، التى يدعونها «إسرائيل»، لتعوق تقدمه ووحدته. وتولى الاستعمار الجديد الذى تمثله أمريكا إتمام تأييد وتقوية هذه الدولة المصنوعة. فهذه العقبة ستستنفد جهداً ووقتاً من العالم العربى، ولكن على الرغم من خطورتها، أو ما تقتضيه من جهود، فإنه – فى ضوء هذه التطورات التى ذكرناها، والتى حدثت فى العالم العربى منذ الحرب العالمية الثانية – لن يكون من العسير تحطيم هذه العقبة، بل إزالتها. فالموقف يبعث على التفاؤل والأمل، وسيكون هذا حافزاً للدول العربية على مضاعفة قواها، وتنسيق جهودها، وسيكون دافعاً قوياً يدفعها إلى تحقيق الوحدة، لأن التغلب على هذه العقبة يكون أسرع وأضمن إذا تمت الوحدة.

نحو تحقيق النصر

فعلى العالم العربى إذن أن يكافح ويواصل نضاله، لكى يقاوم ويهزم

الاستعمار الجديد ، كما قاوم وانتصر على الاستعمار الآخر قبله . ولكي ينتصر ويصل إلى هذا الهدف ، عليه أن يوفر لنفسه شروط أو وسائل النصر :

فالشرط الأول هو أن يقف العالم العربى كله صفاً واحداً أمام هذا العدو الجديد: أمريكا وتابعتها الصهيونية ، ومن يشايعها ، بحيث يشعر الأعداء بثقل الضغط العربى وقواه مجتمعة . ويجب أن تستخدم الدول العربية كل مالديها من أسلحة : مادية واقتصادية وسياسية ، لمحاربة هذا الخطر الهاجم لها . ولا بد أن توجه الدول العربية كل جهودها إلى توفير كل أسباب القوة لها ، وذلك يكون بتحقيق التقدم العلمى (التكنولوجى) فى مجال الصناعة والإنتاج ، بحيث تصل إلى مستوى الدول العصرية . وفى الميدان العسكرى، تعد جيوشها بحيث تصل إلى أرقى مستوى يمكن الوصول إليه ، فى التزويد بالأسلحة الحديثة والتدريب . وفى الناحية السياسية ، بتحقيق الديمقراطية وسيادة القانون ، وضمان الكرامة والحرية للفرد العربى . وفى المجال الاقتصادى ، بتطبيق الاشتراكية بمعناها العلمى . وفى الميدان الاجتماعى ، بنشر الأخلاق والفضائل الإسلامية ، والتقاليد العربية الحميدة . وعلى العموم ، يجب أن تتحول الدول العربية إلى « دول عصرية » متقدمة قوية ، مدعمة بروحها التاريخية ، ومهتدية بضوء مبادئها وغاياتها الإسلامية والعربية .

دولة عربية كبرى

وهى الآن فى دور التطور والانتقال ، وهو التطور الممهد للمستقبل . وتحدث فيها التغيرات والثورات والمحاولات ، ولكن هذا كله ينبئ ببعث جديد ، وظهور قوة جديدة ، وتطور سيكون له نتائجه وصداه فى الأفق العربى

والدولى . إن الأمة العربية تثبت الآن وجودها . وعليها أن تخرج من الاختبار منتصرة ، مرفوعة الرأس ، لتفرض احترامها على أعدائها ، وتستأنف رسالتها المجيدة إلى العالم .

ويتنبأ المفكرون السياسيون بحدوث هذا التطور ، فى وقت غير بعيد . فما يدل على ذلك أن الصحف نشرت ، منذ وقت قليل ، مقالا لأحد المعقبين الألمان،شرح فيه تفسيره لما يحدث الآن فى الشرق الأوسط.قال هذا المفكر ـ وهو (سباستيان هافنر) فى مجلة « دير شتيرن » — وهى أكبر مجلة تصدر فى ألمانيا الغربية —وقد نشرت الأهرام هذا المقال فى العدد الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٩

قال ـ تحت عنوان « مولد دولة كبرى » :

« إن الأحداث التى يشهدها الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر تشير إلى مولد دولة كبرى جديدة فى العالم » .

وقال : « إن التطورات التى تحدث داخل العالم العربى فى الوقت الحاضر تماثل التطورات التاريخية التى اجتازتها الصين واليابان ، لتصبحا دولتين كبيرتين فى العالم ».

ثم أضاف:«إن الاضطرابات السياسية المتكررة فى دول العالم العربى ينظر إليها فى ألمانيا الغربية — فى معظم الأحيان — فى ضوء صلتها المباشرة بالنزاع العربى الإسرائيلى ، ولكن هذه النظرة ليست سوى نظرة سطحية .

« والحقيقة أننا نرى الآن فى الشرق الأوسط فصلا من فصول عملية التطور التاريخية العظيمة ، التى من الأفضل أن نقارنها بالتحول التاريخى العالمى الذى حدث فى الصين خلال القرن الحالى .

« إن الشعب العربى شعب عريق ، مثله فى ذلك مثل الشعب الصينى. وهو شعب أصيل ، له حضارة متقدمة . وكانت له إمبراطورية كبرى فى العصور الوسطى ـ كانت مثل الإمبراطورية الصينية قوة دولية كبرى . وقد شهدت هاتان القوتان — فى النصف الأخير من الألف عام الماضية — هبوطاً وتخلفاً فى العصور الحديثة ، نتيجة الإذلال الذى عانيا منه على أيدى الامبريالية الغربية ، ثم بعد ذلك نتيجة للمغتصبين الأجانب ، الذين قاموا بهجمات مباشرة على أراضيهما — مثلما فعلت اليابان من ناحية،وإسرائيل من الناحية الأخرى .

وفى كلتا الحالتين ، أثارت الشوكة المغروسة فى الجسم اضطرابات عنيفة — أشبه بالتقلصات ، ظهرت على شكل انقلابات وثورات ، وثورات داخل الثورات . ومن خلال هذه الاضطرابات ، ظهرت الصين كدولة كبرى فى العالم . وفى الوقت نفسه طرد الجسم الغريب المهيج ، الذى بدأ فى الحقيقة عملية التجدد المؤلمة .

وهناك حركة مماثلة ، يشهدها الآن العالم العربى » .

رسالة الامة العربية

والواقع أن العالم الآن فى أشد الحاجة لحدوث هذا التطور ، ومولد هذه الدولة العربية الكبرى . لأن العالم الأوربى والأمريكى حضارته مادية ، وقد أصبح لا يعبد إلا المادة ، ولا يسعى إلا لها . ومن أجل ذلك اندفع فى طريق التوحش والإجرام ، والعدوان على الآخرين وسفك الدم ، وأهمل الأخلاق والمبادىء الإنسانية إهمالا تاماً . وقد نتج عن هذا انتشار التحلل ،

والاستهانة بالقيم ، وهدم الأسرة ، وانهيار النظام الاجتماعى . فما أحوجه إذن إلى مبادىء وفضائل الحضارة العربية الإسلامية التى تدعو إلى الأخوة الإنسانية وما أحوجه إلى الحياة الروحية التى تنقذه من فوضى المادية والوحشية والفساد وترق به إلى المستويات الأخلاقية الرفيعة .

وهذه هى رسالة الأمة العربية الخالدة . وهـذه هى مهمة الدولة العربية الـكبرى ، الأمينة على الرسالات الإلهية ، وهى الدولة التى لابد أن تعمل الأمة العربية لإيجادها ، والتى لابد أن يشهد العالم ميلادها وشروق شمسها فى وقت قريب .

* * *

والآن ، بعد أن تـكلمنا عن طبيعة المجتمع العربى ، وتطوراته ومستقبله ـ نعود لندرس تاريخه دراسة علمية تفصيلية ، فى ضوء الحقائق والأحداث .

ونبدأ بمقارنة تاريخية بين الشرق والغرب ، لنتوصل منها إلى معرفة نشوء الاستعمار . ثم نتتبع الثورات والتغيرات التى حدثت فى العالم العربى ـ أو فى منطقة الشرق الأوسط ـ نتيجة بدء عصر الاستعمار ، وذلك منذ أواخر القرن الثامن عشر ـ أو منذ الحملة الفرنسية ، التى كانت المحاولة أو الوثبة الأولى للاستعمار ، ثم طوال القرن التاسع عشر ، وحتى الوقت الحاضر ـ مع بيان أهم الأحداث الداخلية : كالتطورات الدستورية ، ومحاولات الإصلاح ، ثم مراحل تطور الجهاد ضد الإستعمار ، فى العالم العربى فى القرن العشرين ، وذلك إلى نضاله الأخير ضد العدوان الصهيونى على فلسطين والبلاد العربية .

ونبدأ بالفصل الأول ، وعنوانه : « فى التاريخ المقارن » .

بين الشرق والغرب

ونشوء الاستعمار

يعتبر هذا الفصل مقدمة لدراسة التاريخ الحديث .

وهو مقارنة بين التطور العام لتاريخى الشرق والغرب ، منذ بدء ظهور الدولة الإسلامية أو القرن السابع من الميـلاد ، وعبر القرون الوسطى حتى العصر الحديث .

ولما كانت إنجلترا ـ أو بريطانيا ـ هى التى مثلت دور الاستعمار فى أظهر صوره ، وكانت الدولة الاستعمارية الأولى منذ القرن التاسع عشر حتى أواسـط القرن الحالى ، وكانت لها أكبر الآثار فى توجيه أو تقرير مصائر الدول فى الشرق الأوسط أو العالم العربى والإسلامى — فقد اخترناها كنموذج ممثل لغيرها من الدول الأوروبية ، واتخذنا تاريخها محورا لهذه المقارنة . وإذا كانت أمريكا أو الولايات المتحدة الأمريكية قد أخذت تحل محلهـا ، أو ترث امبراطوريتها ونفوذها — وذلك منذ الحرب العالمية الثانية — فما هى إلا فرع لإنجلترا وأوروبا ، وتاريخها من الناحية الدولية هو استمرار لتاريخ إنجلترا . وهو امتداد لسياسة الاستعمار، أو التسلط « الامبريالى » ـ وإن اتخذ التدخل أو النفوذ أشكالا جديدة .

ومن هذه المقارنة ، سنعرف كيف أمكن لتلك الدولة ـ « بريطانيا » ـ

وهى تلك التى تعيش فى جزيرة نائية فى بحر الشمال ـ أمكن أن تبلغ هذه المكانة، ويكون لها هذا النفوذ القوى الذى جعلها تتحكم أمداً طويلا فى حياة ومصائر الشعوب فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى الشعوب العربية والإسلامية .

— ١ —

انجلترا فى العصور الوسطى

كانت « إنجلترا » — فى الوقت الذى أشرقت فيه شمس الإسلام وأخذ نورها يمتد إلى آفاق مترامية فى أنحاء العالم — أى فى خلال النصف الأول من القرن « السابع » الميلادى — كانت عبارة عن جزيرة شبه مجهولة ، منعزلة عن العالم المتحضر ، ظلت تنزح إليها من عهد قريب القبائل « الجرمانية » — الأنجلو سكسونية — التى كانت تقطن فى شمال أوربا ، وذلك هربا من زحف جموع « الهون » أو « المغول » ، أوسعيا وراء الرزق . وكانت حالتها السياسية فوضى — وظلت كذلك طوال القرنين السابع والثامن — فهى مقسمة إلى مقاطعات ، كل مقاطعة تكون مملكة ، والحروب مستمرة بينها . وهى فى حالة اقتصادية متأخرة ، فمناطق واسعة من أراضيها غير منزرعة تغطيها الغابات ؛ وليست لها تجارة تذكر ، ولا يعرف أهلها الصناعة . وبالجملة يعيش سكانها فى حالة قريبة من الهمجية أو الوحشية .

ولم تكن لها صلة بالعالم الخارجى إلا مجرد وفود بعض رجال الدين ، من قساوسة أو رهبان ، يرسلهم « البابوات » فى رومه أو بعض الأديرة لنشر الدين المسيحى فى ربوع الجزيرة . وكان تقدم المسيحية فى بادىء الأمر بطيئاً ؛ ثم كان كل مافهمه الذين اعتنقوا هذا الدين الجديد — الذى كان موطنه الأول هو الشرق الأوسط ـ هو مجرد إقامة بعض المراسم، والاحتفاظ ببعض الشعائر.

ولكن هؤلاء المبعوثين ، على كل حال ، كانوا ينقلون طرفا من الحضارة التى أخذت تعرف فى بلاد جنوب أوربا ، وهى الواقعة على حدود العالم الإسلامى، المتأثرة بما يجرى فيه ، وكانوا بهذا النقل أو الاقتباس ـ على ضآلته ـ يساعدون على نقل السكان « الإنجليز » من حالة البربرية والهمجية إلى حالة يمكن أن تؤدى ـ ولو بعد قرون طويلة — إلى مايوصف بأنه « حضارة » .

* * *

وفى خلال عهود طويلة بعد ذلك ـ إلى مابعد نهاية القرن العاشر الميلادى : الرابع الهجرى ـ بينما كانت تلك العملية تسير ببطء ، ولم تؤد إلا إلى نتائج محدودة ، وعلى حين كان العالم الإسلامى قد وصل ـ نتيجة لجهوده المتواصلة التى يبذلها ـ إلى قمة المجد والسيادة ، وأسفرت جهوده المعنوية والمادية عن حضارة منقطعة النظير ، لم يكن لها مثيل فى تاريخ العالم فى أى عصر من عصوره السالفة ، إذ شملت كل النواحى العمرانية والثقافية ، مما نتج عنه تقدم فى العلوم والفنون والآداب ـ كما هو معروف فى تاريخ هذه الحضارة فى عصور الدولتين الأموية والعباسية ـ بينما كل هذا كان يحدث ، كانت « انجلترا » إذ ذاك لاتزال هذا البلد المتأخر ، الفقير فى الموارد، المنعزل فى بعض مناطق العالم التى كادت أن تكون مجهولة ؛ يعيش على الفتات الذى تقدمه له بعض الشعوب الساكنة إلى الجنوب . وهذه الشعوب تلتقط هذا الفتات بدورها من موائد العالم الإسلامى ، الزاخرة بألوان شهية شتى من ثمار تلك الحضارة التى وصفناها. ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، فان هذا البلد ـ أى انجلترا ـ قد منى فى خلال تلك القرون بكوارث متلاحقة ، فقد غزى مرات عديدة بجموع مغيرة وفدت من بلاد النرويج والدانمرك أفقدته استقلاله، وأصبح «الإنجليز» أمة محتلة خاضعة

لغير الأجانب . وسامهم هؤلاء السادة الحاكمون لهم سوء العذاب .

وكان آخر هذه الغزوات احتلال « وليم النورماندى » ، الذى لقب بـ « الفاتح » — لبلادهم فى تاريخ لا ينساه « الإنجليز » سنة ١٠٦٦م (وكانت الدولة والحضارة الإسلامية إذ ذاك فى غاية مجدها : فى القرن الخامس الهجرى) — غزاهم على رأس « النورمانديين » ـ وهم قوم كانوا يسكنون مقاطعة (نورمانديا) فى شمال فرنسا ، وأصلهم من بلاد « النرويج» ؛ فهم من الجنس الشمالى لكن حضارتهم فرنسية — صورة منقولة من حضارة البحر الأبيض المتوسط — احتل « وليم » بلادهم ومعه « البارونات » الفرنسيون ، واستولى على أراضى إنجلترا كلها فقسمها بين قواد جيشه وأتباعه . وأصبحت الجزيرة البريطانية شبه مقاطعة « مستعمرة » ملحقة بأملاك وليم والنورمانديين فى فرنسا،وصارت اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية ، والطبقة « الأرستقراطية » مكونة من الفرنسيين ، وهم الحكام والولاة الآمرون الناهون ، المتمتعون بكل خيرات البلاد . أما « الإنجليز » فما كان أشبههم ـ مدى قرون ثلاثة : إلى القرن الرابع عشر ــ بحالة « الفلاحين » فى ظل « الباشوات » الأتراك ــ كما سيظهرون فى الشرق فيما بعد ــ : كانوا محرومين فقراء ، مبعدين عن الحياة العامة ، يكدون ويشقون من أجل متعة « اللوردات » الذين كانوا من أصل فرنسى ، ويخضعون لقوانين ظالمة وأكثرهم كان يكون تلك الطبقة الدنيا : طبقة « الأرقاء » فى نظام الإقطاع . واللغة الإنجليزية كانت لغة محتقرة ، لا يتكلم بها إلا فى الريف فهى لغة أهل القرى ، لا تصلح لعلم أو أدب أو لشئون المجتمع .

هذه كانت حال الإنجليز بصفة عامة . وهذه حقائق مقطوع بها يعرفها

كل من درس تاريخ إنجلترا ؛ ويذكرها المؤرخون البريطانيون أنفسهم في كتاباتهم لتاريخ بلادهم .

* * *

نحو العصر الحديث

وقد ظلت أحوالهم هكذا — مع تغير يقتضيه مرور الزمن — إلى مطالع عهد النهضة . وفي تلك الأثناء ، لما بدأ يضمحل النفوذ الفرنسي أخذوا يشعرون بوجودهم كمملكة مستقلة ؛ وأخذ الرجل الإنجليزي الذي كان محتقراً ، مضطهداً من « سيده » الفرنسي ، يصعد على سلم الدرجات الاجتماعية ، ويشغل الوظائف ؛ وبدأت اللغة الإنجليزية — بعد أن اقترضت أكثر مادتها من اللغتين اللاتينية والفرنسية — تظهر إلى الوجود ، وتغادر الريف إلى المدن ويعترف بها كلغة رسمية ثانوية في الديوان ودور التعليم ، ولغة — بعد أن تغذت بالمادة من غيرها — يمكن أن تستعمل في الشعر والأدب ؛ وبدت في إنجلترا — كغيرها من البلاد الأوروبية — بعض ظواهر التقدم ، أو الانتقال من درك « العصور الوسطى » .

ولكن هذا التطور ، أو بدء الانتقال من تلك العصور ، لم يحدث — أولا — إلا نتيجة للحروب الصليبية ، والهزة العنيفة التي سرت في أنحاء أوربا كلها ، كأثر لاتصالها ببلاد الشرق الإسلامي واطلاعها على بعض جوانب حضارته . حيث كان من أهم نتائج تلك الحروب تحرير طبقات « أرقاء الأرض » التي كانت تكون السواد الأعظم للشعوب الأوروبية ، وذلك على أثر تحطم النظام الإقطاعي ، ونشاط حركة التجارة وبدء توفير النقد ، واتساع أفق المواطن الأوربي بعد أن كان ضيقاً جامداً يعين حدوده التعصب ، إذ

أطلع على آفاق فسيحة للحضارة ومختلف ضروب التقدم الإنسانى فى بلاد الشرق الإسلامى . كما كانت هناك إلى جانب ذلك عوامل أخرى ، تعمل على إيجاد هذا التطور . وأهمها انتقال الحضارة والثقافة من الأندلس الإسلامية وصقلية إلى أوربا . وكانت إنجلترا دائماً فى كل هذه الأحوال تتبع أوربا فى كل ما يحدث لها ، وتفيد من كل ما تفيده القارة ، وتسير وراءها سير الظل وراء الشمس . وقد اشتركت أيضاً فى الحروب الصليبية ، وبدت فيها كل هذه الظواهر .

فى الشرق والغرب :

كانت هذه هى حال إنجلترا : أى أنها ظلت ، برغم هذه التغيرات ـ وبعد أن كان العالم الإسلامى قد قضى أدهراً طويلة وهو فى مكان السيادة وبلغ أوج الحضارة، وصارت ثمرات نشاطه الفكرى تملأ مكتبات بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها، وهى ثمرات علوم متنوعة من فلسفة وأدب وطب وعلوم تجريبية: طبيعة وكيمياء وفلك وقانون ، إلى غير ذلك من العلوم — وكان قد شهد عصر الخلافتين الأموية فالعباسية إلى نهايتها ، إذ انتهت بعد أن انقضت خمسة قرون طويلة — وكان ذلك فى عام ١٢٥٨ من التاريخ الميلادى — ثم بعد فترة أخذت تتكون خلافة أو دولة جديدة هى الدولة العثمانية ، التى ستكون أقوى دولة فى أوربا مدة طويلة أخرى — بعد هذا كله ، إلى بداية ما يسمى عهد النهضة فى أوربا — أى فى مطالع القرن السادس عشر — الذى بدأت تدخل أوربا فيه فى دور جديد : أى منذ أربعة قرون ونصف فقط — وهى مدة ليست بالطويلة بالنسبة إلى التاريخ البشرى العام — إلى ذاك الوقت كانت « إنجلترا » لا تزال أيضاً تعتبر دولة « صغيرة » ، وقد فقدت جل ما كان لملوكها من

أملاك فى فرنسا ، وخسر أولئك كل مازعموا من دعاوى بعد تلك الحرب التى يقال لها « حرب المائة سنة » ، والتى جرت فى ذيولها حرباً أخرى أهلية فى داخل إنجلترا ، هى التى سميت : حرب « الوردتين » بين فريقين من البيت المالك يتنازعان على العرش ، وقد مزقت تلك الحرب الحياة السياسية فى إنجلترا شر ممزق ، وجعلت حياتها الاجتماعية والاقتصادية مضطربة غاية الاضطراب .

كان ذلك كله فى خلال القرن السابق لعصر النهضة . فجاءت إنجلترا فى أوائل القرن السادس عشر وهى دولة قليلة الشأن فى الحياة الأوربية ، لا ثقل لها فى ميزان السياسة الدولية ، ومنيت ببعض الهزائم فى « اسكتلنده » — ولم تكن تلك المقاطعة قد ضمت إليها — وعلى أرض القارة الأوربية أمام جيوش فرنسا والإمبراطورية النمساوية الألمانية ؛ وكانت مواردها محدودة ولا تزال فى الغالب مملكة « زراعية » تعيش على ما تنبته الأرض ، وعلى ما تحصل عليه من أصواف من القطعان السائمة فى مراعيها . ولم يكن لها أسطول بعد — لا حربى ولا تجارى — إذ كانت مراكز المال والاقتصاد فى الأراضى المنخفضة أو إيطاليا أو فرنسا . وليس بها إلا الصناعات البدائية اليدوية ، وكثير من الأيدى العاملة بها من المستوردين من هولندة أو ألمانيا ومن المضطهدين المهاجرين من القارة بسبب معتقداتهم الدينية ؛ كما كانت متخلفة عن الدول الأوربية فى الجنوب من حيث التيقظ للوعى الجديد الذى صار يتمثل فكريا فى حركة « الإحياء » لتراث الإغريق والرومان ، وروحيا فى حركة « الإصلاح الدينى » ؛ إذ أن كلا من الحركتين كان ناشئاً فى أوربا نفسها ؛ ولم تكن « إنجلترا » إلا تلميذة أخذت — بعد وقت متأخر — تتلقى نتائج العلوم التى

كانت تتقدم باطراد فى أوربا . ولم يكن عدد سكانها إذ ذاك يزيد على مليونين ونصف إلا قليلا .

* * *

هذه الدولة التى كانت ، منذ أربعة قرون ونصف فقط ، فى هذه الحالة ، التى صورناها بإجمال ، ضعيفة ، متأخرة ، شبه منعزلة ، فقيرة تخشى من أعدائها ولا يخاف أعداؤها منها ؛ وكان العالم الإسلامى قد مضى عليه إلى ذاك الوقت منذ بعثة النبى محمد عليه الصلاة والسلام — رسول الإسلام ومؤسس دولته — قد مضى عليه مايقرب من ألف عام ومازال متمتعا بقوته معتزا بجاهه ، غنيا بموارده ، محتفظا ليس فقط « باستقلاله » ولكن بسيادته وسطوته — هذه الدولة كيف تأتى لها إذن — كما وضعنا السؤال فى أول البحث — أن تتغير مكانتها ويصير لها هذا النفوذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل يصل الأمر بها فى بعض الحالات أن تكون هى المتحكمة فى مصير بعض شعوبه المملية عليه سياسته ، المعينة له اتجاهه ؟ ما الذى حدث ؟ ما الذى غير الجدود وبدل الأوضاع ؟ ما الذى قلب ميزان العالم ؟

كل هذه الأسئلة لا بد لها من جواب . وسنحاول أن نجيب عنها فى الفصل التالى .

— ٢ —

منذ عصر النهضة

تتبعنا فى الفصل السابق تاريخ « إنجلترا » إلى مطالع القرن السادس عشر؛ وذكرنا أنها إلى ذلك العهد كانت لا تزال دولة صغيرة ، محدودة الموارد ، تعتمد فى شئون كثيرة على أوربا . وإلى ذلك نضيف الآن أنها لم تكن تملك خارج المياه المحيطة بها غير ثغر صغير هو ثغر « كاليه » فى شمال فرنسا ، الذى كانت ستفقده أيضاً بعد وقت غير طويل .

* * *

غير أنه فى خلال القرن المذكور حدثت تغيرات كثيرة فى حياة أوربا والعالم، ثم فى حياة إنجلترا . فقد أخذت تظهر آثار حركتى « الإحياء » و « الإصلاح الدينى » . والأولى هى اهتمام الأوروبيين بدراسة كتب الإغريق والرومان ؛ والأخرى هى المطالبة بأن يكون للفرد حق قراءة الكتب المقدسة، والحد من سلطان الكنيسة التى كانت تحجر على حرية الفكر والضمير. وهاتان الحركتان إذا كانتا قد بدأتا حقاً عهداً جديداً فى حياة أوربا ، فهما فى الواقع — وكما يظهر عند المقارنة — لم تفعلا إلا أنهما قربتا أوربا فى هاتين الناحيتين من مبادىء الإسلام . فالمسلمون قد قرأوا آثار القدماء ودرسوا كتب اليونان منذ حركة النهضة والترجمة فى العصر العباسى ، بل لم تعرف أوربا « أرسطو » إلا عن طريقهم ؛ والإسلام قد حرر عقل الفرد وضميره من سلطان الهيئات المستغلة، واعترف له بحق الاجتهاد ؛ بل قرر أن الإيمان لا يصلح إلا على أساسه .

ولكن كان من نتائج هاتين الحركتين أن تكون فى أوربا « الوعى الجديد » الذى أخذ منذ ذلك الوقت ينمو ويزداد ، وكان الأساس لكل ماتلاه من حركات النهوض والتقدم . وانضمت إليه فى ذات الوقت عوامل أخرى كانت — من الوجهة العملية — أكثر أهمية ؛ وكانت هى ذات الأثر المباشر فى تحول أوربا من عصور التفكك والضعف والفقر إلى العصر الحديث ، الذى أخذت تمتلك فيه أسباب القوة وتحرز وسائل الغنى ، وتستأثر بالجاه والسلطان .

وفى مقدمة تلك العوامل أولا نشاط حركة الكشف الجغرافى ، والتوفيق إلى العثور على « العالم الجديد » أو القارة الأمريكية ، بما تحتوى من موارد غنية لا حصر لها وأراض شاسعة ؛ وارتياد البحار والمحيطات ، ومعرفة صلات القارات بعضها ببعض ؛ واكتشاف الطريق من أوربا إلى الهند ، فالشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح . وعامل ثان : هو تكون دول إقليمية قوية منظمة تنظيما حديثاً ، تعتبر أن قوتها تستمد من قوة الشعوب ؛ وتعمل دائبة عن وعى ، ووفقاً لمناهج مدروسة نظامية ، لرفع شأن هذه الشعوب ، وتوفير كل أسباب القوة والرخاء لها — وإن كان توزيع الثروة فى الدور الأول لم يكن متساويا بين الطبقات — فوجود هذه الحكومات المنظمة ذات المبادىء ، والتى جندت نفسها لخدمة مصالح أقوامها ، والعثور على هذه الكنوز للطمورة التى كانت مجهولة ، فى العالم الجديد وفى جميع أنحاء العالم ، مع الوعى العقلى الذى نشأ نتيجة للتحرر من أوهام الكنيسة ، ثم ماسيتحقق من التقدم العلمى والصناعى الذى سنتحدث عنه بعد قليل — كل هذا دعا إلى التنافس بين تلك الدول ، وأدى إلى ازدياد النشاط الاقتصاد والعمرانى ؛ وبالجملة هو الذى أوجد « أوربا الحديثة » .

انتفعت إنجلترا بنتائج كل هذه الحركات ، وما لبثت أن اشتركت — بعد قليل — فى هذا النشاط ؛ وإن كان لم يكن لها فضل كبير فى إيجاد الأسباب التى أدت إليها. ووجهتها هذه الوجهة أسرة « التيودور » المالكة التى كانت تحكمها فى خلال القرن المذكور « السادس عشر » ؛ وكانت حريصة كل الحرص على خدمة مصالحها والنهوض بها كدولة قوية . فأورثها « هنرى السابع » حكومة مستقرة غنية ، وبنى لها « هنرى الثامن » أول أسطول لها — وسيكون الأسطول أقوى سلاح فى يدها فى القرون التالية — وشجعت الملكة « اليصابات » حركات المغامرين والقراصنة ؛ وكان هدفهم الاعتداء على سفن الدول الأخرى التى سبقتهم إلى الاكتشاف والاستعمار ، كأسبانيا وهولندة والبرتغال . ثم تأسست شركة « الشرق » للتجارة ، وفى أواخر عهدها فى عام ١٦٠٠ تأسست « شركة الهند الشرقية » التى سيكون لها تاريخ حافل ، والتى كانت طليعة استعمار القارة الهندية بأكملها :

* * *

فى العالم الاسلامى :

ولكن العالم الإسلامى كان إلى ذلك العهد لا تزال تمثله دول ، بل إمبراطوريات ظاهرة القوة : فالدولة العثمانية فى الشرقين الأدنى والأوسط ؛ والدولة الفارسية الصفوية فى إيران ، والإمبراطورية المغولية فى الهند . ويقول المؤرخون الأوربيون أنفسهم إن اسم السلطان « سليمان القانونى » كان أضخم اسم فى أوربا فى القرن السادس عشر . وكان الجيش العثمانى الإسلامى أقوى جيش فى القارة كلها بل فى العالم ! كان قوة رهيبة تنظر إليه أوربا وجلة مذعورة ؛ إذ كان دوى انتصاراته المتتالية — ولا سيما منذ اقتحم « محمد الفاتح » القسطنطينية

وفتحها، وقضى بذلك على الإمبراطورية البيزنطية ـ لا يزال يرن فى آذانها .

وقد وقف الجيش أيضاً فى عهد السلطان سليمان (عام ١٥٢٩) على أسوار « فينا » وهدد بفتحها ؛ وارتجت أوربا كلها لذاك الحادث ، وأسرعت إلى نجدتها ـ مع الشتاء ـ خوف أن تلحق بأختها « القسطنطينية » .

ومما سجله التاريخ أن « فرانسو الأول » ملك فرنسا التمس من السلطان العثمانى أن يمنحه بعض « ضمانات » تحمى أفراد رعيته من التجار ـ الذين كانوا لا يستطيعون عبور حدود الدولة العلية ـ وهذه الضمانات هى التى تطورت فيما بعد ، إذ تغيرت الأحوال ، إلى أن صارت « امتيازات » وكتبت الملكة « اليصابات » إلى السلطان فى عهدها عدة رسائل تتقرب إليه : ومما ادعته أنها قالت إن دين دولتها « أى البروتستنتى » أقرب إلى الإسلام من الدين « الكاثوليكى » الذى تتبعه فرنسا منافستها فى التجارة ! وكان للدولة العثمانية أيضاً أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط أرهب أوربا وقتا طويلا ؛ كما أن سلطانها امتد فى أنحاء ولايات البلقان حتى شمل الجنوب الشرقى من أوربا كله. وكانت الدولتان الفارسية والهندية قويتين أيضاً فى حدودهما ومحيطيهما ؛ تمتلكان موارد كثيرة ، ولهما جيوش منظمة وأساطيل. والأخيرة منهما تحكم قارة الهند المترامية الأطراف ، مع أن عدد سكانها من الهندوكيين وغيرهم يزيد على أربعة أضعاف عدد السكان من المسلمين .

كل هذا فى وقت لا يعتبر بعيداً فى نظر التاريخ : أى فى خلال القرن السادس عشر . والقرن المذكور فى اعتبار المؤرخين ـ هو القرن الأول من العصر الحديث فالعالم الإسلامى فى مطلع العصر الحديث كان لا يزال عملاقا هائلا ، مخوف القوة ، تمتد المساحة المطوية بين ذراعيه من شمال البلقان ومن المحيط الأطلسى إلى جبال التبت وسهوب آسيا ؛ بل أبعد من ذلك . ويتمثل فى تلك الإمبراطوريات

الثلاث ؛ وتبدو الدول الأوربية إلى جانبه وحدات صغيرة لم تتيقظ إلا منذ عهد قريب ، وهى حديثة النعمة ؛ تفكر فى مرضاته والتقرب إليه ولا تستطيع عبور حدوده إلا بإذن ، وإذن صادر عن تعطف وتنازل !

فى القرن الثامن عشر :

وقد بقى هذا العالم محتفظاً بمركزه ونفوذه طوال القرن السابع عشر أيضا؛ وحتى منتصف القرن التالى : وهو الثامن عشر. فإلى ذاك الوقت أى منذ قرنين فقط من الزمان ، وهى فترة قصيرة فى نظر التاريخ لا تزيد على أعمار بضعة أجيال كان التوازن لا يزال محفوظاً بين الشرق والغرب ؛ بل كانت كفة الشرق لا تزال تتذبذب نحو الرجحان . إذ كانت الإمبراطورية العثمانية مافتئت قادرة على أن تناضل روسيا — روسيا الحديثة — التى نظمها بطرس الأكبر — وتنزل بها هزائم فادحة ، كما حدث حين أجبرتها على عقد معاهدة « بلغراد » عام ١٧٣٩ ؛ وكانت شروط المعاهدة فى صالح الدولة العلية . وظلت تركيا تحكم ولايات البلقان ، حتى بعد هذا العهد بوقت طويل .

* * *

ولكن منذ ذلك الوقت حدث تطور بالغ الأثر . فأخذ ميزان القوى يتأرجح ؛ ثم مالت كفة القوى والغلبة نحو الغرب . وأخذت المسافة بين العالمين تتسع ، وصار الغرب يزداد قوة ودول الشرق تزداد ضعفاً وانحلالا ! .

كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر هو بدء التحول أو نقطة الافتراق وكان لابد من حدوث ذلك ؛ كان لابد أن يمر الشرق بأوقات عصيبة . ولابد أن يجتاز محنة : محنة قاسية عنيفة، تتقاضاه جهوده ودماءه ، وترهقه بالآلام الممضة وتملأ فصول حياته بالمآسى ! !

فإنه إذا كان الشرق الإسلامى قد بقى إلى ذلك الوقت وهو متماسك الأجزاء

وتحتفظ بمظهر قوته ـ فإنما قد بقى بقوة الدفع فقط ، هـذه القوة التى ظلت تدفعه أكثر من ألف عام ، وكانت تتجدد ما بين حين وآخر بآثار قـوى إصلاحية تظهر من عهد إلى عهد . ولـكن فى خلال هذه القرون الأخيرة من حكم الدولة العثمانية — وكذلك الدولة المماثلة لها فى الهند — كان الشرق قد فقد عوامل القوة والحيوية ، وأصبح جسما أو هيكلا ضخما بدون روح . وذلك لأن روحه كانت هى الإسلام ؛ وهو قد أخذ منذ وقت طويل يبتعد عن روح الإسلام ويخالف مبادئه ؛ بل إن حياته الاجتماعية ونظم الحـكم فيه ، والقوانين والسياسات التى تنفذها حكوماته ، كانت تحدياً سافراً للإسلام نفسه .

فالحـكم قائم على القوة والاغتصاب ، لا على الشورى . ووسائله الاستبداد والعسف ، لا الحرية والاختيار . وغاية الحـكم إسعاد طبقة معينة لا تحقيق مصالح الأمة . وطرق الحـكم الرشوة والفساد واستغلال النفوذ ، لا العدالة ولا المساواة . والأرض إقطاع ، وانقسمت الأمة إلى طبقات . والولايات والمناصب تباع وتشرى بطريق المزاد . والجيوش أصبحت مأجورة مرتزقة ، لا يحرك حماسها وطنيـة ولا دين . والأمة مهملة لا يفكر أحد فى توفير وسائل المعيشة لها ، ولا ينظر إليها إلا على أنها السائمة الحلوب التى تدر الخير لسادتها ، إلى أن جاء وقت نضب فيه المعين وجف الضرع ، من شدة الظلم والطغيان والاستغلال . ووقف العلم عند حد لا يعدوه منذ قرون ، حتى صار ألفاظاً وقشوراً . وبالجملة تحول الإسلام إلى مجرد عقائد فردية ، بعد أن كان نظاماً للمجتمع وأساساً للدولة ، ودستوراً للتشريع وحافزاً إلى الرقى والازدياد من المعرفة ، ورافعاً للقوة المعنوية فى الفرد والجماعة لبلوغ غايات القوة والمجد .

فهكذا تقوض أساس الحياة الاجتماعية فى ظل هذه الدول الجوفاء : فى ظل الحـكم التركى الإقطاعى ، سواء فى آسيا الصغرى أو الهند . وفقد الشرق رسالته

وساد حياته الركود ، وغفل عن سنن الله فى خلقه . وإذ أصبحت فيه حكومات بلا شعوب صار من السهل أن تقع هذه الحكومات ، واحدة بعد الأخرى، فريسة لأول طامع أوربى ينقض عليها ، يريد استغلالها أو التهامها !

ومن هنا وجدت الظروف المناسبة للاستعمار ، وبدأ عهد الاستعمار الذى لا نزال نعانى آثاره إلى اليوم .

* * *

هذا ، بينما فى الغرب كانت أوربا ، ومعها إنجلترا ، قد أخذت تجنى ثمار تلك النهضة التى وصفناها آنفاً ؛ وكانت تلك النهضة فى بدئها — كما ألمعنا إلى ذلك من قبل — قبساً من نهضة البلاد الإسلامية إبان عصورها الزاهرة . كذلك اهتدت الأمم الأوربية ، بالتجارب وبالعقل والعلم ، إلى بعض مبادىء الفطرة السليمة التى دعا إليها الإسلام، فتكونت لها إذن عوامل القوة . فوجدت فيها الدول المنظمة، التى تعمل لتحقيق مصالح الشعوب — وإن كانت فكرتها ظلت قومية لا عالمية أو إنسانية ، وكان تحيزها أيضاً إلى طبقات معينة فى داخل القومية — وصار الحكم فيها فناً يقوم على خطط مرسومة؛ وبدأت الدعوة تنتشر وتقوى من أجل العدالة والمساواة ـ ولكن فى حدود الوطن الواحد ـ وأخذ التشريع الاجتماعى يهدف إلى حماية الحقوق وكفالة الكرامة الإنسانية . واتجهت الجهود كلها إلى الإنتاج والعمران والعمل على زيادة الثروة . وزخرت الحياة الأوربية بالنشاط فى مختلف ميادين الصناعة والتجارة ، فضلا عن الزراعة .

* * *

الثورة الصناعية :

ثم توجت هذه الجهود كلها بحدوث ما عرف فى التاريخ باسم « الثورة الصناعية » .

وهذه « الثورة الصناعية » - التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر - هي التي ضمنت لأوربا التفوق ؛ وهي التي كفلت لحركة الاستعمار النجاح وهي التي قلبت ميزان القوى بين الغرب والشرق.

هذه الثورة الصناعية عبارة عن مجموعة الاختراعات التي اكتشفت منذ هذا الوقت ، وإلى نحو قرن بعد ذلك ، في عالم الصناعة . ومنها اكتشاف القوة البخارية ؛ وطرق استخدامها ، وتحسن صنع الآلات وازدياد تنوعها ، ومعرفة استغلال المناجم ، وتقدم الوسائل المستعملة في صناعة النسيج والتعدين والسلاح والبناء وغيرها؛ ونشوء الصناعات الثقيلة ، ونمو الإنتاج على نطاق كبير، وما أدى إليه ذلك من إيجاد وسائل جديدة للنقل وسرعة المواصلات باختراع القاطرات والسفن البخارية ، التي أخذت تربط الأقطار البعيدة بعضها ببعض ، ونحو ذلك. ثم اكتشفت بعد ذلك القوة الكهربائية ثم غيرها . ووجدت ثورة صناعية ثانية ، فثالثة .

كانت إنجلترا أسبق الدول إلى الانتفاع بنتائج تلك الثورة . وبدأت فيها الحركة الصناعية فازداد رخاؤها - بعد فترة انتقال واضطراب . وصارت إنجلترا أو بريطانيا في أثناء القرن التاسع عشر أغنى الدول الأوربية وأقواها . ولذا فإنها تمكنت من أن تتفوق على الجميع في الإستعمار ولاسيما أنها كانت منفردة بنفسها محصنة وراء البحار، تعيش في أمان واستقرار . بعيدة عن مشاكل القارة الأوربية وأخطارها ، إلا حيث تشترك فيها لتضرب دول القارة بعضها ببعض ، لتحفظ « التوازن » بينها ؛ وتجنى هي من وراء ذلك المغانم الكبرى .

— ٣ —

بدء الاستعمار

كانت « إنجلترا » قد ذهبت إلى « الهند » أولا للتجارة ، فى إثر البرتغاليين والفرنسيين . ثم أخذت منذ منتصف القرن الثامن عشر تقلد فرنسا فى طرقها الاستعمارية ، وتمكنت بعد ذلك من التغلب عليها والقضاء على نفوذها ، وحلت محلها . وتحولت « شركة الهند الشرقية » إلى جيش استعمارى قوى يستخدم كل الوسائل ، حتى ما يجافى مبادىء الأخلاق والعدالة ، لكى يستغل الشعوب الهندية . وجاءت نتائج الانقلاب الصناعى فسلحت الاستعمار بسلاح جديد بتار ، أخذت بريطانيا العظمى تستعمله بلا هوادة ، وبدون شفقة أو رحمة .

بذا بدأ عهد استعمارها بحق ، وأخذت تلك الدولة التى كانت فقيرة محصورة فى جزيرتها تملك امبراطورية شاسعة الأطراف ، كانت سبب رخائها وأساس قوتها .

وهنا فى القارة الهندية احتكت إنجلترا لأول مرة ببعض الشعوب الإسلامية ، فى إقليمى البنغال والبنجاب (اللذين سيكونان فى المستقبل : الباكستان الشرقية والغربية — على الترتيب) ، وهكذا أخذت تتسلل إلى العالم الإسلامى من الباب الخلفى ، وتثبت أقدامها فى تلك النقط الضعيفة البعيدة . ثم تطورت علاقاتها بعد ذلك مع الهند ، وأخذت تفكر أيضاً فى علاقات جديدة مع بلاد الشرق الأوسط الواقعة على الطريق إلى الهند ، والتى كانت تؤلف الأجزاء الهامة للدولة العلية . وهى القلب النابض للعالم الإسلامى . ومن ثم بدأ الدور الخطير للاستعمار .

استولت « إنجلترا » على البنجاب (الباكستان الغربية الآن) فى عام ١٨٤٩ . وكان هذا ختام الدور الذى بدأ منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، لوضع يد إنجلترا على شبه القارة الهندية بأكملها . ثم بعد التغلب على الثورة التى اندلعت نيرانها فى عام ١٨٥٨ — وكانت نوعاً من المقاومة الوطنية والدينية للاستعمار — قررت إنجلترا إلغاء « شركة الهند الشرقية » بعد أن أدت مهمتها ، وضمت الهنـد إلى أملاكها . وفى عام ١٨٧٦ أعلن رئيس وزرائها « دزرائيلى » الهند امبراطورية ، ونصب ملـكة إنجلترا « امبراطورة » عليها .

كان استيلاء إنجلترا على الهند القاعدة أو الدعامة التى شيدت عليها إنجلترا صرح استعمارها . وقد تمـكنت ، بفضل فرض سيطرتها على شبه القارة الغنية المترامية الأطراف ، واستغلالها لشعوبها المتفرقة وأمرائها الإقطاعيين — ولم تـكن تجمعهم وحدة سياسية أو اجتماعية — تمـكنت من أن تصبح دولة استعمارية قوية ، ووجدت فى بلاد الهند أسواقاً واسعة لتصريف منتجاتها ، وتضخمت رءوس أموالها عن طريق التجارة مع الهند .

لذا كان من أول واجبات حكوماتها المتعاقبة المحافظة على هذا الـكنز الذى تـكاد موارده لا تفنى . وأصبح من القواعـد الـكبرى الأساسية للسياسة البريطانية أن تعمـل دائماً على أن تظل طرق المواصلات إلى الهند مفتوحة آمنة .

* * *

فى الشرق الأوسط

ثم تطور التفـكير فى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر — وذلك

نتيجة ضعف البلاد التي كانت تقع على هذا الطريق ، ونشاط حركة الاستعمار ، وتحقق نتائج التقدم الصناعي الذي جعل إنجلترا وغيرها من الدول الغربية تشعر بقوتها — تطور إلى ضرورة الاستيلاء على هذه البلاد نفسها .

* * *

وهذه البلاد — وهي التي عرفها الأوربيون باسم « الشرق الأوسط » والتي تجمع أهم الأقطار الإسلامية — كانت كلها تابعة للدولة العلية : أي العثمانية . ولما كانت هذه الدولة — في الوقت الذي أخذت فيه الدول الأوربية تمتلك أسباب القوة ، للأسباب التي عددناها سابقاً — قد وصلت هي إلى نهاية الضعف ، حتى صارت تدعى في المجامع الدولية بـ (الرجل المريض) ! فقد جنت هذه التبعية على البلاد شر جناية ، وأصبحت ضعيفة مثلا للجمود والتأخر ، غير قادرة على الدفاع عن نفسها . وحينئذ لم تكن هناك أية عقبة — لولا أن كان هناك التنافس بين الدول الطامعة نفسها ، أو عدم ملاءمة الظروف الدولية أحياناً — أمام أية دولة مستعمرة تريد أن تنفذ إلى أي منها وتبسط عليها سلطانها . وإذن فقد جاء دورها ! ولم تكن إنجلترا — حينما تهيأت لها الأحوال — غافلة ولا وانية عن انتهاز هذه الفرصة .

وكما حدث في الهند ، كانت فرنسا هي البادئة بالاستعمار أو محاولته في الشرق الأوسط . ثم جاءت انجلترا ، وقد دلتها خصيمتها على الطريق — بعد وقت قريب أو بعيد — تقفو إثر خطواتها ، ثم تعمل على أن تزاحمها ، لتشاركها فيه أو تنحيها عنه .

الحملة الفرنسية

فقد كانت « الحملة الفرنسية » — التي قام بها نابليون على مصر (١٧٩٨— ١٨٠١) التجربة الأولى للاستعمار الغربي في الشرق الأوسط .

وكان من نتائجها أنها نبهت إنجلترا إلى فوائد استعمار هذا الجزء من العالم، وإلى خطورة موقعة من الناحية الحربية ، وبينت ضعف الامبراطورية العثمانيه، الواهنة المفككه الأوصال ، التي كانت تدعى أنها حامية هذا الجزء . فبعدفشل هذه الحملة — لأسباب قومية ودولية ، من بينها هبة الروح المصرية الإسلاميه الكامنة ، لمقاومة الاعتداء الأجنبي — على الرغم مما كانت تحمله من أثقال وما تعانية من أدواء الحكم الاستبدادى الإقطاعى الغاشم —وذلك إلى جانب مساعدة الظروف الدولية — بعد هذا بدأ تاريخ طويل من التنافس الاستعمارى بين الدولتين : إنجلترا وفرنسا ، كان هدفه محاولة الاستيلاء على أملاك الدولة العثمانية ،فان لم يمكن فبسط النفوذ على الأقل . ومجموع أدوار هذا النزاع هو الذى يكون تاريخ الشرق الأوسط فى خلال القرن التاسع عشر . ويعرف - إذا ضمت إليه أيضا علاقات الدولة العلية مع روسيا والبلقان - فوق علاقاتها بهاتين الدولتين يعرف باسم « المسأله الشرقية » .

* * *

كسبت فرنسا الجولة الأولى ، إذ نجحت فى أن ضمت « محمد على » إلى صفها ، وجعلت منه أداة لتنفيذ أغراضها الاستعمارية أو التمهيد لها لتكون وريثته بعد موته . وقد كان نفوذها هو السائد فى مصر ، وكان رجالها هم مستشاريه وعملت على أن يكون لها التأثير الأقوى فى الحياة المصرية وفى الشرق . فأذن لها الوالى بأن ترسل بعثاتها التبشيرية ، فوفدت هذه البعثات إلى مصر ثم إلى سوريا . وهى — أى فرنسا — هى التى أوحت له بالنزاع بينه وبين سلطان الأستانة لينشغل هذا عنها ، إذ أنها كانت قد هاجمت « الجزائر » سنة ١٨٣٠ واستطاعت أن تضع قدمها فيها — وكانت هذه محاولتها الثانية لاستعمار الشرق

الأوسط — وأيضا لتجنى الفوائد من الحرب التى تنشب فى داخل البلاد الإسلامية فى الشرق — وكان آخر ما كسبته ما استطاع «ديلسبس» أن يحققه وهو مشروع فتح « قناة السويس » ، فى عهد الوالى « سعيد باشا » الذى منحه كل ما طلب وفوق ما تمنى ، من أراضى مصر وأموالها وعمالها ، دون مقابل .

ولكن إنجلترا تدخلت — أولا — لتفسد على فرنسا أغراضها ، وذلك فى نهاية حرب « محمد على » فأشرفت على عقد « معاهدة لندن » سنة ١٨٤٠ ، وأملت هى شروطها ، وكانت هذه الشروط ضد فرنسا ومصالحها . ثم عادت إلى التدخل — ثانية — بعد أن تم فتح « قناة السويس » سنة ١٨٦٩ . وكان هذا التدخل هو أخطر الأعمال التى أقدم عليها الاستعمار ، فترتبت عليه شر النتائج ، وجاءت فى إثره الكوارث لمصر والشرق . سعت إنجلترا أولا لشراء أسهم قناة السويس ، فتم لها ذلك فى تلك الصفقة المشهورة التى عقدها معها الوالى « إسماعيل باشا » ، والتى يثنى الإنجليز بسببها على وزيرهم اليهودى « دزرائيلى » لبراعته فى عقدها . ثم أخذت إنجلترا تتدخل ، كدائنة ، فى شئون مصر الداخلية حتى تمكنت أن تعين وزيراً للمالية أحد رجالها ، ثم استطاعت فى أوائل عهد توفيق أن تستولى على القصر ، ويكون « قنصلها » هو المستشار الأول للخديوى . وظلت ترتقب الفرصة حتى تتمكن من أن تضرب ضربتها الأخيرة بأن تحتل « مصر » !

ذروة الاستعمار

وجاء احتلال مصر فى عام ١٨٨٢ ، فكان أكبر كارثة منى بها الشرق والعالم الإسلامى ! وكان مما مهد له خيانة الشراكسة للأتراك الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على الجيش ولا يزالون فى الحكم ، واتفاق سلطان « الدولة العلية »

ووالى مصر مع إنجلترا ضد حركة الجيش ، التى كان يتزعمها (أحمد عرابى)ومن معه من زعماء مصر الوطنيين. وما هذه إلا مأساة متعددة الفصول يطول شرحها.

وكانت فرنسا فى العام السابق ١٨٨١ قد سارعت فاحتلت تونس إلى جانب (الجزائر) التى كانت احتلتها من قبل . ومن ذلك الوقت انفتح باب العدوان على سائر بلاد الشرق : فامتدت أنظار إنجلترا إلى جنوب مصر ، وطمعت فى الإستيلاء على السودان . وبعد أن قاومتها القوة الوطنية هناك بزعامة المهدى ثم خلفائه ، تمكنت من ذلك بمعونة جنود مصر (١٨٨٣ — ١٨٩٨) وتطلعت ألمانيا أيضاً إلى الشرق، وأخذت تتنازع مع فرنسا على (مراكش) ، فحدثت أزمة دولية عام ١٩٠٦ . وكانت إنجلترا قد عقدت قبل ذلك بعامين ١٩٠٤ الإتفاق الودى مع فرنسا ، على أن تطلق يد إنجلترا فى مصر وتؤيد إنجلترافرنسا فى احتلالها لمراكش . فبتأييد إنجلترا وغيرها من الدول ، دخلت فرنسا «مراكش» وفرضت عليها حمايتها سنة ١٩١٢.وكانت إيطاليا فى العام السابق ١٩١١ قد وثبت على طرابلس لتحتل « ليبيا » . وثارت ولايات البلقان فى عام ١٩١٢ فانتزعت من الدولة التركية نفسها كل ما كان لها فى بلادها . ثم بعد الحرب العالمية الأولى وضعت إنجلترا يدها على العراق وفلسطين.وخلقت إمارة شرق « الأردن » تابعة لها . وكانت قد أعلنت حمايتها على مصر من قبل . واستأثرت فرنسا بسوريا ولبنان . بل احتلت هذه الدول « الأستانة » نفسها ؛ وشجعت اليونان على غزو الأناضول فى آسيا الصغرى ؛ وكاديقضى على تركيا نهائيا لولا أن قامت قومة رجل واحد فدافعت عن حياتها بقيادة مصطفى كمال .

* * *

كانت هذه هى الذروة التى وصل إليها الإستعمار . وهذه هى قصة المحنة التى ابتلى بها العالم الإسلامى ، منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وكان المسئول عن هذه المحنة القاسية التى كلفته ثمناً غالياً ، واقتضته كثيراً من جهوده ودمائه ، بل كادت تودى به — هم القادة الخونة ، والحكام المستبدون ، والباشوات الإقطاعيون ، والسلاطين المستهترون ، والجنود المأجورون ، والنظام الفاسد نفسه الذى كانت تتمثل فيه كل هذه المعائب ، والذى لم يكن متفقا مع روح العصر ، والذى نشأ عنه فشو الجهل ، وإهمال المرافق ، وتسيير أمور الحكومة بالرشوة — إلى غير ذلك من المفاسد .

المقاومة والاصلاح

وقد قامت حركات إصلاح كثيرة متعاقبة فى أنحاء الشرق ، لمقاومة هذا الضعف ، وتخفيف بعض شروره .

فهبت الحركة الوهابية فى بلاد العرب ، ثم الحركة السنوسية فى ليبيا ، فثورة المهدى فى السودان. وظهر المصلح العظيم « جمال الدين الأفغانى » وتلميذه الروحى وصديقه « الإمام محمد عبده » داعيين إلى إحياء الروح الإسلامية لإنقاذ الشرق .

وقام « أحمد عرابى » البطل المصرى بثورة مع الجيش ليقاوم استبداد الحكام الأتراك والشراكسة ، ومؤامرة أعداء البلاء عليها . وفى أوائل القرن العشرين ظهرت حركة « مصطفى كامل » ودعوته الوطنية الخالصة القوية فى مصر .

وفى تركيا نفسها تكونت جمعية « تركيا الفتاة » وزعيمها « أحمد مدحت باشا — المجاهد الدستورى الكبير — لتضع حداً لاستبداد السلاطين الطغاة وحاشياتهم الآثمة ؛ وما زالت هذه الجمعية حتى أثمرت « جمعية الاتحاد

والترقى » التى ثلث عرش « عبد الحميد » وأنزلته من عليائه ، وخلقت من تركيا دولة جديدة .

* * *

فكل هذه الحركات والثورات تدل على أن العالم الإسلامى — على الرغم من المحنة العنيفة القاسية التى امتحن بها — بقيت روحه حية ، وكان فيه منبع للقوة الكامنة . وذلك لأن الشعوب المظلومة المضطهدة المحرومة فيه — على خلاف حكامها — ظلت مستمسكة بمبادىء دينها ، محتفظة بروح الإسلام ، متطلعة إلى المثل العليا التى يدعو إليها ؛ تتشوق إليها فى حرقة ولهفة ، وتشجع كل مصلح . وهى تنتظر اليوم الذى تستطيع فيه أن تتحرك وتفرض إرادتها ، وتعمل على أن تحقق هذه المثل ، وتلقى زمامها لمن يؤمن بها ويسعى إلى أن يجعل هذه المثل دستور الحياة .

وقد ظهرت نتائج هذه الجهود جلية واضحة بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية . فأخذت كل دولة تسعى إلى نيل استقلالها ، وطرد العدو المغتصب من أراضيها . كما قام رجال فى كل منها بنهضات إصلاحية ، فى نواحى التعليم والاقتصاد والتعمير .

كل هذا أشار إلى حقائق لم يعد يشك فيها أحد ، وهى أن عهد الاستعمار قد بدأ فى الزوال ، وأن التقدم المادى والصناعى الذى مكن لدول الغرب من العدوان لم يعد مقصوراً على تلك البلاد ، وأن أقطار العالم الإسلامى خطت وتخطو خطوات واسعة فى سبيل التقدم .

* * *

فلا شك أن الشرق الأوسط ، والعالم الإسلامى بصفة عامة ، بدأ — نتيجة للعوامل السابقة ، ونتيجة أيضاً للقوة الكامنة فيه — بدأ يدخل فى دور جديد . وكلما انتشر فيه التعليم وفقاً للمناهج الصحيحة ، وكلما ازداد نشاطه فى ميادين العمران ونما إنتاجه ، وكلما طبقت فيه خطط الإصلاح ، وسعى نحو تحقيق المثل العليا — كلما قوى الأمل فى وصوله إلى الأهداف التى ينشدها : أهداف الاستقلال والحرية والاتحاد والتقدم . وبذلك تعلو مكانته ويقوى نفوذه فى المجتمع الدولى . وهذا يحتم على الدول الغربية التى جعلت أساس علاقاتها مع الشرق الاستعمار — يحتم عليها أن تبدأ فى وضع أسس جديدة للعلاقات ، فتكون علاقاتها مع الشرق العربى والإسلامى علاقة المبادلة الاقتصادية فقط دون استغلال أو إجبار بالقوة ، وعلاقة التفاهم السياسى مع صون الكرامة وعلى قدم المساواة ، وعلاقة الود فى حدود المبادئ الإنسانية . وهذا يجب أن تعيه أيضاً الدول التى بدأت تفكر فى الاستعمار بدورها — فى أية صورة — أو فى الحلول محل الدول الاستعمارية السابقة .

وإنه لما يشاهد ، على كل حال ، أن الخطط — وربما المقاصد الاستعمارية أيضاً — قد طرأ عليها تطور فى السنين القلائل الأخيرة ، وأخذت إنجلترا ، وما يماثلها من الدول ، تغير فى أساليبها ، وتضع أسساً لسياسات جديدة . كما أن « إنجلترا » لم تعد الدولة المستعمرة الأولى بل أخذت تخلى مكانها ، شيئاً فشيئاً ، لأمريكا ، أو هذه تنافسها لأنها صارت هى الأقوى . وظهرت قوة ضخمة أيضاً تقابل هذه القوى وهى « روسيا » ، التى طالما كان لها شأن — وأى شأن — فى (المسألة الشرقية) فى عهود القياصرة ، والتى ازداد اهتمامها فى الأعوام الأخيرة بمسائل الشرق الأوسط ، والبلاد الإسلامية عامة .

فهذا إذن أيضا دور جديد للدول الأوربية عامة ، ودور جديد تدخله العلاقات بينها وبين العالم الإسلامى والعربى .

ويكفى المؤرخ الآن أن يسجل بدء هذا الدور ، لأن التطورات التى ستظهر فيه لاتزال رهن المستقبل . وها هى ذى الأحداث تترى والعالم لايكاد يفرغ من مشكلة دولية حتى يعود لأخرى ، بسبب مناورات السياسة وأغراضها فى الشرق الأوسط .

فالنتيجة التى تستخلص من كل ذلك هى أن التطور قد ظهر وتحقق فى كل من الجانبين الشرقى والغربى . وأن العالم العربى والإسلامى لاشك الآن فى دور نهضة ، وقد قوى وعيه وازدادت ثقته بنفسه ، وأنه يتطلع لآفاق بعيدة . وأن الدول الغربية قد أخذت أيضا تدرك ذلك وأخذت تفهم أنه غدا من المستحيل أن تعود إلى نفس الخطط القديمة أو ترجع عقرب الزمن إلى الوراء .

فمن واجب هذه الدول الغربية إذن ، كلها ـ بل هذه هى مصلحتها الحقيقية ـ أن تعمل على أن تضع علاقات جديدة لها بالدول العربية والإسلامية بدلا من العلاقات السابقة . وإن هـــذه العلاقات ــ إذا أريد لها أن تكون باقية ، وأن تكون ثمارها نافعة ــ لا بد أن تكون مبنية على التعاون ، والعدالة والاعتراف بالحقوق والاحترام المتبادل ، وعلى مشاعر الود والإخاء فى نطاق المبادىء الإنسانية .

فهل للدولة الأوربية أن تتطور مع العصر ، وتتدارك الزمن قبل الفوات؟ وهل لها أن تختار هذا الطريق ـ الذى هو الطريق الوحيد فى نفس الوقت ـ لحفظ المصالح ولضمان السلام العالمى ! ؟ .

أو

الحملة الفرنسية على مصر

كانت « الحملة الفرنسية » على مصر تصور على أنها بدء عهد نهضة لمصر، وأنها إنما جاءت لتنشر المدنية والنور فى مصر والشرق. ففيما يلى ننظر إليها نظرة جديدة، ونصورها التصوير الحق، كما يتفق مع حقائق التاريخ.

كانت « الحملة الفرنسية » أول تجربة للاستعمار الغربى فى بلاد الشرق العربى أو الأوسط، فى العصر الحديث.

وقد وفدت إلى مصر وعلى رأسها « نابليون » القائد الحربى الشهير — بعد أن كتب لنفسه صفحات خالدة فى ميادين الحرب بإيطاليا، حيث هزم هنالك جيوش الامبراطورية النمسوية، وأذل كبرياء تلك الدولة العتيدة. وكان من قبل قد نجح فى القضاء على زعماء الثورة الفرنسية. فكان يرجو بقدومه إلى مصر — وهى فى جبهة العالم الإسلامى، ومفتاح الطريق إلى الهند والشرقين الأوسط والأدنى — أن يكسب من الانتصارات الرائعة ما يضيفه إلى صحائف مجده، وما يجعله يظهر فى نظر العالم كأنه يعيد سيرة (يوليوس قيصر) أو (الإسكندر الأكبر)، أو غيرهما من الغزاة الفاتحين.

ولكن (نابليون) سرعان ماخاب ظنه، إذ وجد فى مصر عاملا لم يدخل له فى أى حساب، إذ قابل الروح الإسلامية الوطنية والأمة المصرية التى تمثل

تلك الروح . فقد كان شعب مصر – على الرغم مما كان يعانيه من أرزاء الفقر، وإهمال الدولة لشئونه فى جميع النواحى ، وتأخر مستواه الثقافى والاجتماعى – لا تزال روحه المعنوية عالية ، ولا يزال يعيش فى جو من الاستقلال ، ويشعر بكرامته ويتذوق الحرية ويقدر قيمتها . وكان ذلك كله مستمداً من المثل الإسلامية التى كان يؤمن ويعتز بها ، ومبادىء الإسلام السامية التى يستمسك بها ، ويحاول جاهداً – بالرغم من الصعاب والعقبات – أن يحققها .

فكانت نتيجة ذلك أن حبطت أعمال نابليون ، وباءت حملته بالفشل . ولم يستطع هو أن يبقى فى مصر أكثر من عام ، أيقن بعده أنه إذا لبث بعد ذلك فسيكون هذا البلد – الذى علق عليه من قبل أكبر الآمال – سيكون قبراً له ، فعادسراً إلى فرنسا . ولم تستطع حملته أن تبقى بعده إلا بقاء مزعزعا، تهاجمها ثورات الشعب من آن لآخر ، وهى أشبه بأن تكون محصورة . حتى أرغمت على الجلاء بعد عامين ، وعادت إلى مصر حريتها واستقلالها . وكانت العوامل الدولية قد جاءت لمساعدة الشعب المصرى فى ثورته المجيدة .

ذلك أن (نابليون) – أو (بونابرته) الكبير ، كما كان يدعوه أفراد الشعب المصرى فى ذلك الوقت – وصل على رأس (حملته) إلى الشواطئ المصرية يوم أول يوليه سنة ١٧٩٨ . فوقف أهالى الإسكندرية فى وجهه وقفة باسلة ، ودافعوا عن استقلالهم – بالرغم من أنه لم تكن لديهم معدات للقتال دفاع المستميت ! حتى إن (مينو) أحد ضباط نابليون كتب إليه فى خطابه ، يقول : (إن الأهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم) ! لكن نابليون زعم عند وصوله أنه ما جاء إلا ليحارب المماليك ، وقال فى منشوره الذى وزعه غداة وصوله إلى الإسكندرية : (. . . قولوا للمفترين : إننى ما

قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . . . وإننى — أكثر من المماليك — أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ..! و (أن الفرنساوية هم أيضاً . . . مسلمون مخلصون ! ! !) . . إلى آخر هذه المزاعم ، أو أكاذيب النفاق الجريئة !

ولكنه لم يمكث فى مصر إلا قليلا ، حتى تبين أنه جاء ليحارب المصريين أيضاً . وكانت كل أعماله تدل على ذلك .

كان من الأوامر الأولى التى أصدرها (أن كل قرية تقوم على العساكر الفرنساوية تحرق بالنار !) . وفى نفس الوقت ترك جنوده يعيثون فى الأرض فساداً ، ويعتدون على الأهالى الوادعين . وكان أول عمل له بعد حضوره إلى القاهرة هو تعيين « برطلمى » الرومى — الذى كانت العامة تدعوه تفسكيا، أو تهكيا : « فرط الرمان » — عينه نائباً لمحافظ القاهرة ، فكان هو الحاكم الفعلى لأنه معين من قبل السلطات الفرنسية ومحل ثقتهم . وكان هذا — كما وصفه « الجبرتى » — « من أسافل الأروام » : سيء الخلق مشهوراً بالقسوة والفجور؛ فكان تسليط هذا الأجنبى الوغد على أهل القاهرة من شر مافعله « بونابرته » للتنكيل بالمصريين ، الذين أعلن أنه إنما جاء ليخلصهم من يد الظالمين .

و « برطلمى » هذا أول « حكمدار » للعاصمة يعينه الاستعمار من هذا الصنف الذى شهدت القاهرة من أضرابه كثيراً ؛ وقاست من أعمالهم وأعمال تابعيهم ماظلت تعانى آثاره إلى عهد قريب .

ولم يمض على نابليون فى القاهرة بضعة أيام ، حتى جمع الديوان وطلب منه فرض ضريبة أسماها « سلفة » على تجار العاصمة وأرباب الحرف بها ، مقدارها خمسمائة ألف ريال فقط . وكان قبل ذلك قد فرض على أهل الثغر غرامة حربية

كبيرة ثم زادها إلى الضعف . ولم يكن هذا إلا القطر الذى يسبق انهمار الغيث: فبعد ذلك توالى طلب الضرائب والسلف وتعددت مقاديرها ،واختلفت مناسباتها ، وفرضت على أهل الريف كما فرضت على المدن . ولم ينج من ذلك حتى النساء : فقد أجبرت السيدة (نفيسة) المرادية — وكانت من شهيرات النساء فى ذلك العصر وذات مكانة رفيعة فى المجتمع — على أن تدفع ٤٠٠٠٠ ريال ؛ وأرغم غيرها من النساء على أن يفتدين أنفسهن بمبالغ أخرى.

وكانت البيوت تهاجم وتفتش باستمرار ، بحجة البحث عن دفائن وخبايا أو إحراز أسلحة . وسلط الفرنسيون على الناس لهذا الغرض ولجمع الضرائب نصارى الشوام ، وبعض الصيارفة من القبط الذين رضوا أن يتعاونوا معهم ، تساعدهم الجنود المسلحة . فكانوا أول من أثار النعرة الدينية ، وغرس بذور الخلاف بين أبناء الوطن الواحد !

ثم لما أعيت الفرنسيين الحيلة فى جمع المال أنشأوا ما أسموه (محكمة القضايا) أو (التسجيل) ؛ فجعلوا عدد قضاتها أو أعضائها اثنى عشر . وكانت مهمة هذه المحكمة — ولم تكن فى الحقيقة أكثر من لجنة أو إدارة — أن تلزم الناس بتسجيل ممتلكاتهم ! وأن يقدم كل واحد الحجة التى تثبت ملكيته . فمن وجد الحجة وجب عليه أن يدفع رسوم القيد ، ثم رسوم التثبيت . ومن لم يجد - وكان هؤلاء أغلب الناس - أصبح للحكومة الحق فى أن تصادر أملاكه وتضع يدها عليها.

وقرر (نابليون) أيضا أن ينعقد فى يوم ٥ أكتوبر من ذلك العام ما أطلق عليه اسم (الديوان العام) . وهو مجلس استدعى إليه أعضاء من الأقاليم ، ولم يكن المراد منه أن يكون — كما قد يدعى من لم يفهم أغراض الحملة — نظاما

(برلمانيا) أو شوريا . وإنما كان الغرض الحقيقى إعداد الرأى العام لفرض ضرائب جديدة ، وإيجاد أداة لتحصيلها . فبدأن قرأ خطبة الافتتاح القاضى (ملطى القبطى) طلب انتخاب رئيس للديوان ، فتم انتخاب الشيخ (عبد الله الشرقاوى) بالأغلبية ؛ ولكنها كانت رئاسة صورية . وظل المجلس ـ بتوجيه ممثلى السلطات ـ يتناقش فى مسائل تشريعية وقضائية ، وأخيرا أصدر قراره الخطير بفرض ضرائب عقارية على جميع الأملاك ؛ ثم قسمت الأملاك إلى مراتب: عليا ، ووسطى ، ودنيا ، واتخذت الاجراءات ؛ وعين المهندسون الذين سيقومون بمعاينة المنازل وربط الضرائب عليها ، وكاد يتم تحقيق كل ذلك ـ لولا أن فوجىء الفرنسيون بقيام ثورة خطيرة .

* * *

أدت هذه المظالم كلها — مضافة إلى مظالم وأسباب أخرى سنشير إليها بعد قليل ـ إلى انفجار ثورة وطنية خطيرة بالقاهرة فى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ـــ وافق ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ـــ فكانت هذه الثورة إعلانا للسخط العام على الحكم الأجنبى ، وتعبيراً عن الشعور القومى، وإيذانا لنابليون بفشل سياسته وقرب نهايته .

وقد كان من بين الأسباب الاستيلاء على الأوقاف ؛ وقطع الرواتب عن مستحقيها ؛ والاعتداء على الحرية الشخصية . وانتهاك حرمات المنازل ، وتجريد العاصمة من الأسلحة ، وتعريضها للهجوم باقتلاع أبواب الحارات والدروب ، واستبداد (برطلمى) الظالم .

كما كان فى مقدمة الأسباب سياسة القمع والإرهاب ؛ إذ أصدر نابليون تعلياته لرجاله فى الأقاليم بالتنكيل بالزعماء الوطنيين وإخماد كل معارضة . وأمر

هو فى القاهرة بإعدام السيد (محمد كريم) حاكم الإسكندرية السابق الذى دافع عنها دفاع الأبطال ، حتى شهد له الفرنسيون أنفسهم بالشهامة والشجاعة ؛ فلم تقبل فيه شفاعة ! ونفذ فيه حكم الإعدام فى يوم ٦ سبتمبر ؛ إذ صعدوا به إلى القلعة (وكتفوه وربطوه مشبوحاً) — كما يقول الجبرتى — (وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ؛ ثم قطعوا رأسه ، وطافوا به !) كما قتل كثير غيره .

على أن السبب الأول والأخير للثورة كان هو الأنفة من الرضا بحكم الغاصب ، والشعور بالكرامة الوطنية . وهذا الشعور موجود منذ قدوم الحملة إلى البلاد : ظهر فى هبة الإسكندرية للدفاع عن نفسها دون أى تدبير سابق ، كما ظهر فى احتشاد أهل القاهرة عند ساحل (بولاق) للاشتراك فى المعركة ، التى كان متوقعا أن تحدث هناك ، كما ظهر فى المقاومة المستمرة التى كانت تواجه بها الحملة أنى رحلت أو أقامت . وإذا كانت موقعة (إمبابة) قد انتهت بين نابليون و (المماليك) ، فانه كان عليه أن يعد نفسه لخوض معارك عديدة تنشب بينه وبين الأهالى العزل من السلاح : فحدثت مواقع فى المنصورة والجمالية وفى رشيد وطنطا ودمنهور وفى قرى صغيرة كسنباط والشعراء ، وفى كل مدينة من مدن الوجه القبلى ! وكانت الاضطرابات تنتشر من مديرية إلى أخرى ، وظهر زعماء المقاومة فى كل مكان . ولقد قال أحد كبار مهندسى الحملة : (بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها. وقد ذهب كثير من الفرنسين ضحية هذه المقاومة) .

وكان هذا الشعور الوطنى نتيجة الروح الدينية القوية ، التى كانت من

أظهر مميزات هذا العهد ، إذ أن المسلم ، ودينه يغرس فى نفسه معانى العزة والكرامة ، يأبى أن يذل لغير الله ، أو يخضع لحكم الأجنبى !

وقد نظر المصريون أول ما نظروا لقائد الحملة وجنوده على أنهم أبناء أولئك (الفرنسيس) ، الذين حاولوا أن يغزوا مصر أيام الحروب الصليبية ، فباءوا بالفشل ، وأدت إحدى حملاتهم إلى أسر مليكهم (لويس التاسع) وسجنه فى دار ابن لقمان ! ولم تتغير هذه النظرة فى جوهرها أثناء مقام الحملة ، بالرغم من اختلاف الأحوال فى مصر عما كانت فى ذلك العهد فظلوا يناوئونها بكل الوسائل وإن كانت ناقصة — حتى استطاعوا — مثل أسلافهم أن يخرجوا الغاصب ، ولو بعد حين ، ويجلوه عن بلادهم .

كانت ثورة القاهرة إحدى الثورات التى انبعثت عن كل هذه المشاعر كما كانت كل الثورات التى تلت بعد ذلك .

استعرت نيرانها فى الأحياء الوطنية كالحسينية والجمالية والغورية ، وكان مركزها العام « الجامع الأزهر » — ندوة مصر النيابية الكبرى فى ذلك الوقت الذى اتخذ الثوار منه معقلهم الحصين ، وسدوا كل الطرق الموصلة إليه بالمتاريس وقد بدأت الحركة فى فجر ذلك اليوم بمظاهرة كبيرة توجهت إلى (بيت القاضى) لتعلن الاحتجاج على فرض الضرائب الجديدة وغير ذلك من المظالم ولم تنقلب إلى ثورة دموية إلا حينما حضرت القوات الفرنسية ، واعتدى (برطلمى) على الأهالى بإطلاق الرصاص . فهاجت الجموع المحتشدة ، ونشبت معركة عنيفة بينها وبين فرسان الفرنسيين ، أسفرت عن قتل الجنرال (ديبوى) قومندان القاهرة .

ثم انتشرت الثورة فى جميع أنحاء العاصمة ، وهاجم الأهلون معسكرات الفرنسيين وحاولوا الاستيلاء عليها . وقتل من الفريقين عدد كبير . كما قتل

فى اليوم الثانى (الكولونيل سلكوسكى) ياور نابليون ، فى إحدى المعارك . وأوشك أن يفلت الزمام من يد القيادة الفرنسية ! فلم ينقذ الموقف إلا أن أمر نابليون بنقل المدافع تحت جنح الظلام ، ونصبها على تلال المقطم المشرفة على مراكز الثورة ، فظلت تضربها ساعات متواصلة ، وأرادوا — بصفة خاصة — هدم الجامع الأزهر الذى كانت الجموع محتشدة فيه؛ ولكن الله أراد أن لا يمس بسوء . فبهذه الطريقة وحدها استطاعوا أن يسيطروا على الحالة ، وتحت حماية المدافع نفذت الجنود إلى الأحياء الوطنية التى عجزت عن اقتحامها من قبل ؛ ودخلوا إلى الجامع الأزهر وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا فيه « وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع . ! » ثم لما هدأت الحال عمدوا إلى الانتقام من أهل القاهرة بدون تفريق ، وبصورة وحشية تدل على مبلغ ما وصل إليه هؤلاء الفاتحون من الحضارة والمدنية ، التى زعموا أنهم جاءوا لينقلوها إلى مصر ! ؟ .

فقتل من أهل القاهرة — باعترافهم — ما يزيد على أربعة آلاف ! اوقبضوا على كثيرين ، وأعدموهم سراً بالقلعة ، وبدون محاكمة . وبينهم عدد كبير من النساء ! وبحثوا عن زعماء الثورة ، فاتهموا خمسة من العلماء . وبعد أن حبسوهم أكثر من عشرة أيام وأجروا معهم محاكمة صورية ، حكموا عليهم بالإعدام ؛ فنفذوا هذا الحكم فى يوم ٤ نوفمبر ١٧٩٨ . ويصف « الجبرتى » حادث استشهادهم فيقول : « وذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجاميز . . . فلما وصلوا بهم هناك جردوهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ؛ وألقوهم من السور خلف القلعة ؛ وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً » .

فهؤلاء هم شهداء الوطنية الأول ؛ وهذه هى أسماؤهم : الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى . وكانوا جميعاً من شباب مدرسى الأزهر .

فهذه هى الثورة الوطنية الأولى التى دلت على حيوية المصريين ونزعتهم القوية إلى الاستقلال ، واستعدادهم للتضحية بالأرواح والأموال . ولم يستطع الفرنسيون بعد ذلك أن يحكموهم إلا بالقلاع التى بنوها على التلال ، وسموها بأسماء قتلاهم فى هذه المعارك ، ولم يجسر أى جندى أن يسير فى شوارع العاصمة إلا مسلحاً . وعرف نابليون أنه أمام شعب لا يقهر ، وقد وطد العزم على مكافحته وإخراجه . ولكن بقى أن تساعده العوامل الدولية والظروف الخارجية .

فحين وجدت هذه العوامل تحقق الجلاء . وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر عام ١٨٠١ ، أى بعد ثلاث سنوات ـ وما أقصرها ـ من قدوم « بونابرت » . وظهر كأن الحملة لم تكن إلا سحابة صيف فى سماء مصر ، ثم تقشعت !

ثورة الشعب المصرى
ضد الحكم العثمانى

ظفرت مصر بالجلاء ؛ وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر من عام ١٨٠١ .

وكان المأمول أن مصر ، بعد أن كافحت هذا الكفاح المجيد فى سبيل كسب حريتها ، وبعد أن واجهت النار والحديد طوال ثلاث سنوات واصلت فيها المقاومة ، ولم يهدأ لها بال أو يقر لها قرار ما دام هناك جنود من الأجانب يدنسون أرضها ؛ فكانت تلك السنوات محنة قاسية كشفت عن حديد إرادتها وصادق إيمانها ، ومبادرتها إلى التضامن والوقوف صفاً واحداً لاثغرة فيه فى أوقات الشدة والخطر ، حتى انتهت المحنة بفوز مبين — كان المأمول ، بعد هذا كله ، أن مصر ستفتتح صفحة جديدة من حياتها ، وتهنأ بعهد جديد من الاستقرار ، تنمحى فيه متاعبها ، وتنتظم أمورها ، ويتحقق كثير من آمالها .

ولكن الدولة العثمانية ـ وكانت مصر مثل سائر البلاد العربية لاتزال تعترف بالتبعية لتلك الدولة ، وتشترك معها فى نظمها السياسية والحربية باسم الخلافة ـ التى لم تعد إلا خلافة اسمية ، وهى أبعد ماتكون عن نظام الحكم الصالح الذى رسم معالمه الإســـلام ـ كانت تلك الدولة جامدة لاتساير قوانين التطور .

وعلى الرغم من أنه ظهر عجزها عن الدفاع عن الأقطار المنضوية تحت لوائها، كما تجلى ذلك إبان الحملة الفرنسية ، فإنه بمجرد أن تمكنت مصر من اجتياز تلك المحنة بفضل جهاد أبنائها ، ومعاونة العوامل الدولية — إذ كانت بعض الدول الأوربية قد وحدت جهودها لمناهضة سياسة فرنسا الاستعمارية فى عهد نابليون — بمجرد أن تحقق ذلك ، إذا بهذه الدولة العتيقة تعود إلى استئناف سياستها القديمة التى طالما أن منها المصريون ، وبذلوا المحاولات تلو الأخرى للتخلص منها ، أو لتخفيف بعض شرورها - كأن الزمن لم يتقدم خطوة واحدة ، وكأن مصر لم تقاس من العذاب صنوفاً ، وتبذل من التضحيات ألواناً ؛ وكأن لم يقع من الأحداث ما كان ينذر بأن العالم ينتقل من طور إلى طور !

كان أهل مصر ينتظرون أن تصغى الدولة لمشورتهم ، أو على الأقل أن تعين لهم والياً صالحاً، أو تخفف عنهم عبء الضرائب، أو تعمل على رفع المظالم المتعددة الأنواع التى كانت تثقل كواهلهم، وكان قد تكون فى البلاد وعى جديد بدأت تدل عليه آثاره ، منذ قيام على بك الكبير بمحاولة جريئة لإعلان استقلال البلاد عن الأستانة ؛ ثم اشتد وقوى نتيجة لظلم ابراهيم ومراد بك ؛ ثم تحول إلى قوة وطنية يرهب بأسها فى عهد وجود الحملة الفرنسية . فكان هذا الوعى يتطلع إلى عهد جديد تغلب فيه إرادة البلاد ، ويعترف بقوميتها وتكون الرعاية الأولى فيه لمصالحها .

ما كان أبعد الفرق بين هذا الوعى وبين عقلية الحكام الذين كانوا يقررون مصائرها ، وهم مقيمون بالأستانة : ما بين باشوات وإقطاعيين وأغوات ، ورؤساء وجاقات، وجند انكشاريين، وغيرهم. كانت الهوة سحيقة والمدى بعيداً.

ولقد ظلت مصر — خلال السنوات الأربع التى تلت جلاء الفرنسيين —

مسرحا للصراع بين قوى مختلفة متضاربة. فهناك العثمانيون، والجنود الانكشارية، والجنود الأرناءود «الألبان» والمماليك، والدسائس الاستعمارية، ثم أضيف إليهم أخيرا جموع «الدلاة أو الدالاتية» أى الأكراد، فكان هؤلاء الجنود يسرحون ويمرحون فى ربوع البلاد، لاهم لهم إلا السلب والنهب، والاستيلاء على أقوات الناس، وفرض الضرائب والاعتداء على الحريات. فكانت الحال فوضى مطلقة، وظهر الولاة، ومن ورائهم الدولة، عاجزين عن أن يفعلوا شيئا لتغيير الحال، أو لم يكونوا فى الحقيقة يريدون أن يفعلوا شيئا.

عينت الدولة فى عام ١٨٠١ والياً على مصر: «محمد باشا خسرو» - وكان مملوكا سابقاً للقبطان حسين باشا - فمكث فى الولاية نحو عامين إلى عام ١٨٠٣. وفى عهده تمثلت كل مساوىء الحكم العثمانى، وعاد إلى ارهاق الناس بالضرائب؛ وانتهى أمره بأن ثار عليه الجند من انكشارية وأرنؤود بقيادة «طاهر باشا»، لتأخره فى دفع رواتبهم، وأحرقوا قصره بالأزبكية، واضطروه إلى الفرار. فتولى «طاهر باشا» الحكم ستة وعشرين يوماً، ثم اغتاله فى آخرها جنديان من الإنكشارية.

حينئذ خلفه فى زعامة «الأرنؤود» نائبه «محمد على» - وهو من جنسهم - وسعى «محمد على» إلى أن تحالف مع زعيمى المماليك: «ابراهيم بك» و«البرديسى»، ليستعين بهما ضد قوة الإنكشارية التى كانت خطراً على جنده. وبعد أن حقق هذا التحالف أغراضه وأخرج الإنكشارية من البلاد، غدر محمد على بحليفيه وأرغمهما على الفرار. ولكنه لم يجرؤ على مناوءة الدولة العلية وإعلان عصيانه جهاراً، لأن مثل هذه المحاولة كان لابد أن تبوء بالفشل. فعينت الدولة حينئذ «أحمد خورشيد باشا» الذى حاكما للاسكندرية من قبل وعرف عنه الظلم

والقسوة ، ولم يستطع محمد على إلا أن يقر له بالولاء ويخضع لأمره ، وكان تعيين هذا الوالى فى عام ١٨٠٤ ، وفى عهده تتابعت المظالم واضطربت الأمور .

هذه هى الحوادث الرئيسية التى انتهت إلى قيام تلك الثورة ، التى تحدى فيها الشعب سلطان الخلافة ، وأعلن الحرب على الوالى الذى عينته ، وأعلن عزمه على أنه يريد أن يقرر مصيره بنفسه . وكانت هناك قوة تدفع الشعب ، ناشئة عن ذلك الوعى الذى تحدثنا عنه — ولو أنها كانت قوة غامضة ولم تظهر أمامها الأهداف واضحة محدودة — قوة تدفعه إلى أن يبنى لنفسه مستقبلا جديداً ، ويضع الأسس لحياة جديدة تعود بها مصر دولة حديثة راقية ، وتبرز شخصيتها وتظهر إرادتها . وكانت الأسباب العامة التى أدت إلى الثورة هى تلك التى وصفناها : أى ما كانت تعانيه البلاد من حالة الفوضى ، وعدم الاستقرار ، وتمادى الدولة العلية فى تجاهل رغبتها وإهمال شئونها .

وقد لبثت مصر فترة بعد فوزها بجلاء الفرنسيين وكأنما كانت تستجم قواها وتجدد حيويتها، فتركت تلك الجيوش الطارئة تتصارع فيما بينها ،ويوهن بعضها من قوة بعض ، حتى إذا حانت الساعة وبلغ الظلم مداه وثبت إلى الميدان لتضع حدا لهذا التصارع بين القوى ، وتشعرهم أنها القوة التى يجب أن تبقى وحدها ،وهى التى يجب أن تقرر مصير الوطن .

أما الأسباب المباشرة فكانت الكوارث التى حلت بالبلاد من جراء استخدام جند جديد ، أربى عددهم على ثلاثة آلاف ؛ هم جند « الدالاتية » ، الذين جلبهم الوالى العثمانى الأخير « أحمد خورشيد باشا » وكان يريد أن يعيد بهم نفوذ العثمانيين ، ويقضى على قوة الأرنؤود وزعيمهم محمد على ،ويطيل أمد حكمه حتى يستولى على مايشاء من الأموال والضرائب التى تمتد إليها مطامعه .

حضر هؤلاء الجنود وهم غير نظاميين ؛ وأطلق لهم الوالى العنان ليجبوا الأموال التى وعدهم بها بأيديهم ؛ فتفرقوا فى أنحاء العاصمة وغزوا بلدانا أخرى فى الأقاليم ؛ وهم ينهبون ويخربون ، ويشاركون الناس فى مساكنهم وأقواتهم، ولا يراعون حرمة ؛ بل انتهى بهم الأمر إلى الاعتداء على الأعراض ! والناس يجأرون بالشكوى ويتقدمون إلى الوالى بطلب الضرب على أيديهم ؛ ولكنه لا يصغى لطلبهم وكأنه يحرضهم على المضى فى عدوانهم ؛ فبلغ السخط حينئذ بالشعب مداه وانفجرت الثورة !

بدأت الثورة فى يوم أول صفر من عام ١٢٢٠ هـ (وهو الموافق أول مايو سنة ١٨٠٥) فى حى « مصر القديمة » ، حيث كان معسكر الجنود الدالاتية بها . ثم توجهت الجموع إلى « الجامع الأزهر » — وكان قلب العاصمة النابض فى ذلك الوقت ، وبمثابة « برلمان الشعب » — فشكوا إلى العلماء ما يعانون ؛ وكان العلماء إذ ذاك زعماء الأمة ـ إذ كانوا يعبرن عن روحها ، ويتكلمون بلسانها ، ويتجاوبون مع شعورها ؛ وكانوا أقوياء فى الحق معتصمين بالله ، لا يخافون فى الله لومة لائم ولذلك كان الحكام والأمراء يهابونهم ، ويأتمرون بأمرهم . وكم لهم من أفضال على مصر فى عهود الظلم والظلام ؛ فطالما دافعوا عن الشعب ورفعوا عنه المظالم . كان على رأس العلماء فى ذلك الوقت السيد عمر مكرم النقيب ـ العالم الثائر المجاهد ـ والشيخ محمد السادات الذى اضطهده الفرنسيون وقذفوا به فى السجن هو وأهله ، وكانوا يضربونه بالعصى فى السجن صباحا ومساء ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد الأمير ، وغيرهم .

فانضم العلماء إلى الشعب ، وقادوا الثورة وأضربوا عن الدروس . وكان ذلك إيذانا بأن أغلق التجار حوانيتهم ، وأخذ الناس يستعدون لجمع الأسلحة .

وانتشر الإضراب فى المدينة . وبقيت الحال هكذا نحو اثنى عشر يوما . وفى اليوم الأخير ذهب العلماء إلى « بيت القاضى » فازدحمت ردهاته وأفنيته بالناس حتى قدر عدد الحاضرين فيه بنحو أربعين ألفا ؛ وكان من بين الهتافات التى ينادون بها : « شرع الله بيننا وبين الباشا الظالم ! » ؛ « حسبنا الله ونعم الوكيل » ! وأيضاً : « يارب يامتجلى أهلك العثملى !! » . وهذا الهتاف الأخير كان يبين روح الشعب ويدل على اتجاهه .

* * *

حرر العلماء وثيقة تاريخية بمطالب الشعب ، أرسلوها إلى الوالى وذكروا فيها اعتداء طوائف العسكر على الحريات ، وإيذاءهم للناس ، والمظالم والضرائب ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة ، وغير ذلك . وطلبوا الجواب فى اليوم التالى . ورفضوا أن يذهبوا إليه حينما أرسل يترضاهم ، آملا أن يخدعهم . فلما لم يحضر الجواب فى الموعد الذى ضربوه ، اجتمعوا مرة أخرى فى « بيت القاضى » ، وتداولوا فى الأمر . ثم قرروا خلعه ؛ وان يولوا غيره بمحض اختيارهم ومشيئتهم ، وبإرادة الشعب الذى كانوا يمثلونه وينطقون باسمه.

كان اختيارهم قد وقع على « محمد على » ، زعيم قوة الأرنؤود ؛ إذ أنه كان قد تقرب إليهم ، وظهر أمامهم بمظهر الرجل الذى يمكن أن يوثق به ، والذى يتعهد بأن يطيع أوامرهم ويعمل على تنفيذ رغباتهم ، ويتعاون معهم على تحقيق البرنامج الإصلاحى الذى كانوا يفكرون فيه ويتوقون إلى تحقيقه . وكانوا فى حاجة — على كل حال — لأن يعتمدوا على قوة حربية ، ليستطيعوا أن يشهروها فى وجه القوى التابعة للوالى ، وتسندهم إذا اختارت الدولة أن تتحدى إرادتهم. فبدت قوة « الأرنؤود » — وعلى رأسها محمد على — كأنها القوة الصالحة الوحيدة التى يمكن أن يعقد معها الشعب تحالفا .

لـكن محمد على — كما كانت الأيام ستظهر فيما بعد — لم يكن أكثر من ممثل بارع ،قدأتقن دوره كل الإتقان! فكان يتفق معهم وهو لاينوى إلا الغدر؛ وكان لايقصد أن يتخذ من ثقة الشعب إلا أداة توصله إلى نيل مطامعه وأغراضه الذاتية . على أن قادة الشعب لا يستحقون أن يوجه إليهم لوم على وضع ثقتهم هذه فيمن لم يكن أهـلا لها ؛ فهم ليسوا أول ولا آخر من خدع؛ والناس لايطلعون على النيات والسرائر . ثم كانت هناك علة أخرى ؛ وهى أن القوم فى ذلك الزمان كانوا يعتمدون على كلمة الشرف ، وكانوا لا يزالون يقدرون قانون الشرف ؛ إذ كانت الأخلاق الدينية لاتزال قاعدة المجتمع . ولـكن «محمد على »أتى بفكرة جديدة وقانون لم تـكن تعرفه الديار ، وهى فكرة الوصول إلى تحقيق المآرب الذاتية بطريق الغدروالختل : كان القانون الذى جاء به هو قانون أن الغاية تبرر الوسيلة : أى وسيلة كانت ولو كانت منافية للشرف . فـكان أول من اتبع السياسة التى يسمونها« الميكيافيلية » فى هذه البلاد. وهى السياسة التى لاتتقيد بقوانين الدين أو الأخلاق . وقد عين « الجبرتى » هذه الصفة ، بالذات ، على أنها أبرز صفاته ،وضرب الأمثلة العديدة على غدره بكل من حالفه حتى أنه لم يتورع عن أن يخون « البرديسى» ـ بعد أن شرب كل منهما من دم الآخر ، دليلا على الأخوة الدائمة وضمانا للوفاء !

* * *

أما ما حدث فى ذلك اليوم — وهو يوم تاريخى أو يوم فاصل فى حياة البلاد ـ فإن العلماء، وقد اجتمعوا فى داره ليعقدوا معه الحلف ويبايعوه ، قالوا له فيما قالوا : « إننا لانريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية . وإنا نرتضى أن تـكون واليًا علينا ، بشروطنا ؛ لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ! » . وكان كل من سمع أقواله وتصريحاته للعلماء يتوسم فيه ذلك أيضًا .

ثم — كما يقول مؤرخ العصر — : « أحضروا له كركا وعليه قفطان ؛ وقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى، فألبساه له . وذلك وقت العصر؛ ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » !

فهكذا تمت الثورة الدستورية الأولى فى تاريخ مصر الحديث (عام ١٨٠٥). إذ أن الشعب قد قرر خلع واليه الظالم — وهو « أحمد خورشيد باشا »، المعين من قبل السلطان — دون أن ينتظر حتى يعرف مشيئة الدولة ، وعين بدلا منه شخصاً آخر ، هو « محمد على » ، الذى ظن فيه الخير حينذاك . وقد امتنع الوالى من تنفيذ القرار ، وقال إنه لا يعزل بأمر الفلاحين : أى المصريين ؛ وتحصن بالقلعة وانضم إليه جنده . لكن الشعب حاصره وقام بثورة مسلحة ضده ، وقاد الثورة زعيمان من رجال الشعب ، هما « حجاج الخضرى » و « إسماعيل جوده » ؛ وكانا يعملان تحت إمرة « السيد عمر مكرم »، الذى ينبغى أن يعتبر بحق زعيم مصر الوطنى الأول . ومازال الحصار مضروباً ، والشعب مستمراً فى جهاده، حتى جاء خطاب من الأستانة يقر ما فعله الشعب . ويبين سبب الإقرار بقوله : « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » . فعندئذ لم يجد الوالى المخلوع بداً — بعد أن استمر فى إصراره وعناده شهراً آخر — لم يجد بدا من أن ينزل من القلعة ، ويغادر مصر !

وليس هناك ما هو أدل على الروح التى كانت تدفع تلك الثورة، والتى وجهتها، من إجابة السيد عمر مكرم لأحد زعماء الأرنؤود الذين كانوا معضدين للوالى . فقد اعترض هذا الرجل المؤيد للوالى ، قائلا :

« كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ .

فأجابه السيد عمر مكرم : « أولو الأمر هم: العلماء ، وحملة الشريعة، والسلطان العادل . وهذا رجل ظالم . وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة .. حتى الخليفة والسلطان، إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه » !

وبمثل ذلك أجابه بقية العلماء أيضاً .

فهكذا كان العلماء الذين يفهمون روح الإسلام ، والذين كانوا يعملون لإقامة شريعة الله العادلة فى الأرض .

ولقد نجحت الثورة : ووضعت آمالها فى « محمد على » — وإن كان هو لم يرع العهد ، ولم يحقق آمال الشعب فيه .

وعلى كل ، فإذا كانت مصر قد أفادت من عهده خيراً ، من أى وجه ، فإنما الفضل فى ذلك يرجع إلى الدين ولوه . وهم على كل حال قد خلصوا الشعب من الحكم العثمانى ؛ ووضعوا الأسس لمصر المستقلة . ولو كان هذا الرجل قد وحد قوته مع الشعب ، لكانت مصر قد أصبحت فى عداد الدول الكبيرة فى مطالع القرن التاسع عشر . ولكنه سعى وراء مجده الشخصى ، واغتر بالبريق الخادع ، وضحى بالشعب فى سبيل الوصول إلى مآربه .

وكذلك فعل خلفاؤه وأحفاده . ولقد قام الشعب بثورة أخرى فى عهد البطل أحمد عرابى ليخلع حفيداً له ، ولكن الاستعمار تدخل وقضى أن يستمر حكم الاستبداد والفساد .

محاولة استعمارية أخرى :

أو

انتصار الشعب فى « رشيد »

على الحملة الإنجليزية

كان هذا أول لقاء بين الشعب المصرى والإنجليز . وقد سجل الشعب فى هذا اللقاء صفحة خالدة تضاف إلى صحائف أمجاده ؛ ينبغى أن يعيها كل مصرى ، ويذكرها التاريخ بالفخر والإعجاب .

لم يكن الشعب يعرف الإنجليز قبل ذلك ، إلا حين حضروا فى العام الأخير للحملة الفرنسية (عام ١٨٠١) ، كحلفاء للدولة العلية ليتعاونوا معها فى إخراج الفرنسيين من مصر . وكان المنتظر ، بعد أن تم إجلاء الفرنسيين — بل الذى كان يجب أن يحدث — أن يحزم الإنجليز أمتعتهم ويغادروا البلاد فى إثرهم . ولكن — كعادتهم ماطلوا — فى التنفيذ ؛ وما فتئوا يتلكأون وينتحلون الأعذار ، حتى أجبرتهم العوامل الداخلية والخارجية على الرحيل ؛ فجلوا عن البلاد فى عام ١٨٠٣ .

غير أنهم لم يرحلوا حتى كانوا قد خلقوا أسبابا يستطيعون أن يعتمدوا عليها فى تبرير عودتهم . فقد انتهزوا فرصة الجو السياسى المضطرب ، وأخذوا فى أثناء مقامهم يلقون شباكهم ليصطادوا فى الماء العكر ؛ فدخلوا فى مساومات مع « المماليك » ونصبوا من أنفسهم حماة متطوعين للدفاع عنهم وانتهت هذه المساومات إلى عقد مؤامرة بينهم وبين كبير زعماء المماليك

وأقوى شخصية بينهم ، وهو « محمد بك الألفى ». قوامها العمل على إعادة دولة المماليك التى انهارت دعائمها منذ أحداث الحملة الفرنسية — على أن تكون خاضعة لنفوذ البريطانيين ومشمولة برعايتهم . ولتنفيذ هذه المؤامرة أو حبك خططها اصطحبوا معهم فى عودتهم هذا المغامر الأفاق ، الذى كان يطمح إلى أن يعتلى عرش مصر ،وهو « الألفى بك » (وقد كان فى الأصل مملوكا لمراد بك، اشتراه بألف أردب من القمح ، ولذلك سمى باسمه) — أخذوه معهم إلى إنجلترا ليتموا معه المفاوضة ، فمكث هناك سنة وبضعة أشهر ؛ ثم عاد فى ربيع عام ١٨٠٤ ليبدأ فى تنفيذ الخطة .

* * *

كانت هذه أول مؤامرة استعمارية تدبرها إنجلترا لاحتلال مصر . ولم يكن تنفيذها فى ذلك الوقت — وفى الظروف التى سادت البلاد — بالأمر السهل . فقد كانت إنجلترا تعلم « أولا » كيف دافع المصريون عن استقلالهم وحريتهم فى عهد وجود الحملة الفرنسية . وكانت لا تزال تدعى « ثانيا » أنها صديقة لتركيا . إلى جانب ذلك كان « البرديسى » ينافس « الألفى » ؛ فالمماليك منقسمون على أنفسهم . ثم إن الشعب قد رأى أن يقطع الطريق على المؤامرات والدسائس ؛ فتقدم ليشرف على تصريف شئونه بنفسه ، فانتخب فى عام ١٨٠٥ — وذلك على أثر ثورته الدستورية التى قام بها — انتخب حاكما جديداً ، قصد أن لا يصغى إلا إلى مشورته ، ولا يخضع إلا لإرادته ،ويكون مستقلا عن نفوذ العثمانيين والمماليك وعملاء الاستعمار . وكان ذلك الحاكم الذى انتخبه الشعب هو « محمد على » .

لذلك لم تنجح المحاولة الأولى التى قام بها « الألفى » وحماته الإنجليز فى عام ١٨٠٦ ، إذ استطاعوا أن يحملوا أحد وزراء « الباب العالى » — وهو

« خسرو باشا » — كان مملوكا ايضا — يحملوه بالرشوة والخداع على أن يرسل أسطولا ، يريد أن ينقض به قرار الأمة . فحضر - تنفيذاً لذلك - القبطان « صالح باشا » على رأس قوة بحرية ، في يوليه من ذاك العام ؛ ومعه أوامر جديدة بتعيين من يدعى « موسى باشا » بدلا من « محمد على » الذى اختاره زعماء الشعب إذ ذاك ؛ومعه أيضاً إعلان بالعفو عن «المماليك» ووعد بإعادتهم إلى ما كانوا عليه قبل انتقاض الأمور وتغير الأحوال . ولكن الشعب أبى أن يخضع للتهديد . وكتب زعماؤه إلى الدولة يخبرونها بأنهم مصرون على الاستمساك بقرارهم . وحاول « الألفى »أن يستولى على « دمنهور »(١٨٠٦) ليتخذها قاعدة حربية له ؛ فقاومه أهلوها مقاومة عنيفة باسلة وردوه عنها !

ومن هنا فشلت المحاولة الاستعمارية الأولى ، وتمسكن الشعب من أن يظل قابضاً على ناصية الأمور . ثم أراد الله أن يحبط كيد الإنجليز والخائنين ، فتوفى « الألفى » فجأة فى يناير من عام ١٨٠٧

* * *

بيد أن الأحوال الدولية كانت قد تغيرت ، ودب الشقاق بين إنجلترا وبين تركيا ، لرفض الأخيرة الانضمام إليها فى حربها ضد « نابليون » - الذى خرج منتصراً على التحالف الدولى عقب موقعة « استرلتز » الشهيرة (١٨٠٥)— ثم استفحل الشقاق فاعتبرت إنجلترا تركيا عدواً لها .

ومن أجل ذلك وللأسباب السابقة ، عزمت إنجلترا — ولم يكن خبر وفاة الألفى قد بلغها — أن تقوم بمحاولة أخرى . فانتهزت تلك الفرصة ، وصممت على أن تنفذ بنفسها الخطة التى سبق أن رسمتها . وكان قوام هذه الخطة إعادة تمثيل الدور الذى قام به نابليون من قبل ؛ وهو غزو مصر بحملة حربية قوية ووضعها تحت يدها لتحويلها إلى مستعمرة تابعة لها، تستحوذ على خيراتها وتجعلها

قاعدة هجومية دفاعية لها فى الشرق الأوسط، وتحمى باستيلائها عليها خطوط مواصلاتها إلى إمبراطوريتها التى أنشأتها فى الهند، ومصالحها فى الشرق الأقصى. فبدأت بإعلان الحرب على « تركيا ». وحينئذ أرسلت أسطولا بقيادة الأميرال « دكورث » لمهاجمة القسطنطينية ، فى فبراير سنة ١٨٠٧ . ولكن تركيا دافعت عن نفسها دفاعا قويا ؛ فرد الأسطول على أعقابه مهزوما .

ثم ثنت — (أى إنجلترا) — بأن أعدت حملة كبيرة ، برية وبحرية ؛ وأرسلتها فى الشهر الذى بعده (مارس) إلى « مصر » .

* * *

فهذا هو تفصيل الأسباب ، التى أدت إلى إرسال إنجلترا حملتها هذه (فى مارس ١٨٠٧) لمحاولة احتلال البلاد .

ومنها يتبين أنها كانت محاولة خطيرة أرادت بها تلك الدولة أن تعتدى على كيان البلاد وحريتها . وبها ثبت أنها ما كانت تحركت لمناصرة الدولة العلية ضد « بونابرت » — حينما غزا مصر — إلا حسداً وحقداً ، لأن فرنسا سبقتها فى أعمال العدوان . وأن صداقتها لتركيا لم تكن إلا مخادعة ، وأنها لم تفكر طوال الوقت إلا فى مصالحها ؛ وأنها — حين تريد — لا تعبأ بقانون دولى ولا حقوق مشروعة ولا مبادىء إنسانية .

ولو قدر لهذه المحاولة أن تنجح فى ذلك الوقت، لتغير تاريخ مصر والشرق ولمنيت مصر بأرزاء الاحتلاء سبعين عاما أخر ؛ ولأصابها من الكوارث ما لا يمكن للذهن أن يحيط به . ولكنها أنقذت من هذا كله بفضل فريق من أبنائها، بل بفضل بسالة أهل « رشيد » والبحيرة ، الذين كانوا فى مقدمة الجبهة ، والذين وقعت ديارهم فى خط الدفاع الأول عن الوطن بأكمله فأبلوا ، أحسن البلاء

ودافعوا خير دفاع، وكتبوا صفحة خالدة فى تاريخ مصر تشهد بصدق الوطنية ورسوخ الإيمان وعلو الهمة.

وصلت « الحملة الإنجليزية » بقيادة الجنرال « فريزر » إلى الإسكندرية، حوالى منتصف مارس. وأرسلت إنروصولها مكاتبات إلى المماليك — من أتباع الألفى — ولكنهم ترددوا فى قبول الدعوة. وحين علم الضباط والجنود و«الكشاف» الأجانب — من أرنئود ودلاة وأتراك، وغيرهم — بوصول الحملة، سارعوا إلى الفرار واستعدوا له. وسلم محافظ الإسكندرية التركى — وكان اسمه « أمين أغا » — للقوة المعتدية، إذ رشوه بالهدايا والأموال. وكان «محمد على» غائباً فى الصعيد؛ فتباطأ فى العودة، وفضل أن ينتظر تطور الأحوال، من بعيد، بالرغم من خطورة الأمر!

وبعد دخول الإنجليز الإسكندرية فى يوم ٢١ منه، صار الطريق مفتوحا أمامهم إلى القاهرة. وكانت خطتهم أن يستولوا على الثغور أولا بمعاونة الأسطول. فبعد أن وطدوا مركزهم أخذوا فى الزحف إلى «رشيد» — وكان فى ذلك الوقت أهم ثغر بعد الإسكندرية، لأنه يقع على الطريق النيلى إلى العاصمة، فى وقت لم تكن فيه مواصلات حديدية — ووصل الجيش الزاحف تحت قيادة الجنرال «ويكوب» إلى أسوار رشيد فى ٣٠ مارس. وأخذ يتأهب للاستيلاء عليها فى صبيحة اليوم التالى.

* * *

وأصبح مستقبل البلاد كله معلقا على ما كان سيسفر عنه ذلك اليوم التالى.

كانت قوة المقاومة يتألف معظمها من الأهالى. فقد كان عدد الحامية قليلا. وأحكمت الخطة. وكان على رأس المجاهدين السيد « حسن كريت »—

ـ كبير علماء رشيد ونقيب الأشراف فيها ـ كما كان يؤيده ، و يرسل إليه الأمداد والذخائر من القاهرة ، السيد « عمر مكرم » — نقيب الأشراف بالعاصمة ، وزعيم مصر الأول — الذى سهر على الدفاع عن مصر كما سهر عليه إبان غزو الحملة الفرنسية . وإذ تقدم الإنجليز فلم يلقوا مقاومة خارج الأسوار ، صمموا على اقتحام المدينة . ولكنهم لم يدروا أن المدينة كانت فخا أو قبرا ، ستتردى فيه جثثهم وتتراكم أشلاؤهم . فإن الأهلين كانوا لهم بالمرصاد؛ وانطلقت سيول الرصاص من كل بيت ، وقلعة ، وأكمة ونافذة. وانقض عليهم الفدائيون من كل صوب ، بكل ما أمكن أن تقع عليه أيديهم من سلاح . فكانت ملحمة رائعة . وانقضى اليوم المشهود فكان الإنجليز بين قتيل ومدبر ! وهكذا كان انتصار الحق على الباطل، والعدل على العدوان، والوطنية على القرصنة والهمجية، واحتراف الاعتداء على القوانين !

دارت موقعة رشيد فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ . وكانت اللقاء الأول بين الشعب المصرى والإنجليز ، فألقى الشعب عليهم درساً قاسياً .

* * *

وإنا نورد هنا بعض مادونه « الجبرتى » فى مذكراته — وكان مؤرخاً معاصراً لتلك الأحداث :

قال :

« وفى تاسعه » — أى من المحرم (سنة ١٢٢٢ هـ) وردت مكاتبات مع السعادة من ثغر الإسكندرية . . وفيها الإخبار بورود مراكب الإنجليز . .

ولما انقضت الأربعة وعشرون ساعة التى جعلها الإنجليز أجلا بينهم وبين أهل الإسكندرية ـ وهم فى الممانعة ـ ضربوا عليهم بالقنابر والمدافع الهائلة من

البحر ؛ فهدموا جانباً من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور .
وفيه (سابع عشره) وردت الأخبار الصحيحة بأخذ الإسكندرية واستيلاء الإنجليز عليها ، يوم الخميس تاسع الشهر ، ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد .

ثم قال :

« وفى يوم الجمعة رابع عشرينه وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء عشرينه ، ودخلوا إلى البلد . وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين، بالأزقة والعطف وطيقان البيوت . فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية . فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم . وذبحوا منهم جملة كبيرة وأسروا الباقين ! وفر طائفة إلى ناحية دمنهور .

وكان « كاشفها » عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره ، ورجع وطلع بمن معه إلى البر ، فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم وأخذ ما بقى منهم أسرى . وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة فضربوا المدافع وعملوا شنكا ، وخلع كتخدا بك على السعاة الواصلين .

« فلما كان يوم الأحد سادس عشرينه أشيع وصول رءوس القتلى ، ومن معهم من الأسرى ، إلى بولاق . فهرع الناس بالذهاب للفرجة . ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق . وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر . فأتوا بهم من خارج مصر ، ودخلوا بهم من باب النصر؛ وشقوا بهم من وسط المدينة . وفيهم « فسيال » كبير ، وآخر كبير فى السن ،

وهما راكبان على حمارين ؛ والبقية مشاة فى وسط العسكر . ورءوس القتلى معهم على نبابيت . . . ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية . وضربوا عندوصولهم شنكاومدافع . وقال أيضاً : « وفيه نبه السيدعمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للجهاد فى الإنـكليز . حتى مجاورى الأزهر ، وأمرهم بترك حضور الدروس ؛ وكذلك أمر المشايخ المـدرسين بترك إلقاء الدروس .

و « فيه وصل عابدين بك . . . من ناحية قبلى . وأشيع وصول الباشا (يقصد محمـد على) بعد يومين ! » .

« وفى يوم الاثنين وصل أيضاً جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق . فطلعوا بهم على الرسم المذكور . وعدتهم مائة رأس وإحدى وعشرون رأساً، وثلاثة عشر أسيراً . وفيهم جرحى . . . وشقوا بهم من وسط المدينة آخر النهار » .

«وفى يوم الثلاثاء حصلت جمعية ببيت القاضى ، وحضر حسن باشا وعمر بك . . . والسيد عمر النقيب ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ الأمير وباقى المشايخ ، فتكلموا فى شأن حادثة الإنـكليز والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم ؛ فإنهم أعداء الدين والملة .. وفى ذلك اليوم حضر شخصان من السعاة ، وأخبرا بالنصر على الإنـكليز وهزيمتهم . . وذلك أنه اجتمع الجم الـكثير من أهالى بلاد البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور : وكان بين الفريقين مقتلة كبيرة . وأسروا من الإنـكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رءوس . فخلع الباشا على الساعين . وفى إثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر . . . وأن الإنجليز انجلوا

عن متاريس رشيد وأبى منضور والحماد . ولم تزل المقاتلون من أهل القرى من خلفهم إلى أن توسطوا البرية . وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين . وذكروا أنه واصل خلفهم أسرى ورءوس قتلى كثيرة فى عدة مراكب !

وهكذا ظل الجبرتى يسجل وصول الأسرى :

«وفى يوم الجمعة . . حضروا بأسرى وعدتهم تسعة عشر شخصاً وعدة رءوس ؛ فمروا بهم من وسط الشارع الأعظم ، وأما الرءوس فمروا بها من طريق باب الشعرية ؛ وعدتها نيف وثلاثون رأساً موضوعة على نبابيت . رشقوها بوسط بركة الأزبكية مع الرءوس الأولى ، صفين على يمين السالك . .

وفى يوم السبت وصل أيضاً تسعة أشخاص أسرى من الإنكليز ؛ وفيهم فسيال .

وفى يوم الأحد وصل أيضاً نيف وستون ؛ فمروا بهم على طريق باب النصر وسط المدينة ، وهرع الناس للتفرج عليهم . وبعد الظهر أيضاً مروا بثلاثة وعشرين أسيراً وثمانية رءوس . وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأساً ، وأربعة وأربعين أسيراً ، من ناحية باب الشعرية . وطلعوا بالجميع إلى القلعة .

« وفى يوم الأربعاء وصل إلى ساحل بولاق مراكب ، وفيها أسرى وقتلى وجرحى ؛ فطلعوا بهم إلى البر وساروا بهم على طريق باب النصر . . إلخ .

وهكذا ظل الجبرتى يسجل ورود مواكب النصر .

* * *

هكذا تم انتصار شعب مصر على المغيرين المعتدين ؛ وكانت الروح المعنوية عالية جداً . وهذه صفحات مجد وفخار . وإن هذه الموقعة الخالدة كانت إحدى نقط التحول فى تاريخنا ؛ لأنها جعلت الإنكليز لا يفكرون بعدها فى تكرار المحاولة ، إلا بعد أن تغير العصر ، وبعد أن جاء التقدم الصناعى ليسلحهم بأسلحة جديدة .

وهذه الموقعة على كل حال قد أخرت الكارثة ثلاثة أرباع القرن : وسجلت ما لا يمكن أن تمحوه الأحداث ، من انتصار مصر الوطنية المجاهدة . وقد انهارت قوة الإنجليز المعنوية بعد ذلك ؛ فما زالوا تنزل بهم الهزائم فى مصر ، حتى جلوا تماماً عن البلاد بعد بضعة أشهر .

وإنا ينبغى أن نحتفل كل عام بذكرى تلك الملحمة الفريدة ، لنحيي ذكرى الأبطال الذين دافعوا عن البلاد فى ذلك الوقت ؛ ونستلهم تلك الروح القوية الفذة .

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محمد على

او

الجندى المغامر

من لم يؤمن بالحظ فليؤمن به فى قصة هذا الفتى المغامر ، الذى نروى سيرة حياته الآن . .

وكانت ظروف الدولة العثمانية — تلك الامبراطورية المتداعية الواهنة التى لم يشهد الشرق الإسلامى حكما أسوأ من حكمها — كانت تسمح بنجاح مثل هذه المغامرة .

كان أبوه « إبراهيم أغا » — وهو من أصل ألبانى « أرنؤودى » — خفير طرق فى « قوله » — (وهى ثغر صغير على شاطىء إقليم الروملى : شمالى بلاد اليونان الآن) . ونشأ هو شاباً فقيراً ، يتراوح أمره بين التبطل والعمل . فاشتغل وقتاً بتجارة التبغ (الدخان) ووضع نفسه فى خدمة جباة الضرائب ، حيناً آخر . ولما ضاقت فى وجهه سبل الرزق — وكان قد قضى ثلاثين عاما من حياته فى هذا الوطن الصغير — عول على أن يبدأ بمغامرة جربها من قبله كثير من بنى جنسه وغيرهم ؛ فبدلوا من العسر يسراً ، ومن الذل عزاً ، ومن

البؤس نعمة ؛ بل واتت الفرص بعضهم فأمكن أن يصل إلى مرتبة الإمارة أو الملك !

* * *

وليست سيرة « المماليك » فى التاريخ عنا ببعيدة . فقد كان أحدهم يجلب من أى قطر ناء ؛ ويباع بثمن بخس دراهم معدودة ؛ فإذا به بعد حين — وبعد أن يتقلب فى عدة أطوار — يصبح قائد كتيبة أو والياً أو سلطاناً ! وكانت مصر دائماً فى نظر الطامحين من طلاب المجد أرض الآمال والأحلام .

وكانت حال هذا المغامر الجديد — «محمد على» — أحسن من أولئك ؛ فهو لم يجلب إليها كرقيق ؛ ولكنه — فى ظروفه ومقدمه والطريق التى سلكها — تشبه حاله حال كثير من المغامرين الذى سبقوه ولعب كل منهم دوراً ، ذا أهمية كبيرة أو صغيرة ، فى تاريخ مصر . فقد سبقه فى خلال نصف قرن (إبراهيم جاويش) و (رضوان كتخدا) و (على بك الكبير) و (محمد بك أبو الذهب) و (إبراهيم) و (مراد) ؛ وغيرهم . كانوا جميعاً موالى ؛ فصاروا أمراء وسادة ! وبقى الأخير حاكما نحو ربع قرن. ولكن «محمدعلى» جاء بعدهم فى ظروف أسعد ، وأكثر ملاءمة لنجاح هذا الدور الذى بعثت الأقدار به — لخير أو لشر — ليؤديه ؛ وأتيحت له فرص لم تتح لأى منهم من قبل .

* * *

كانت «الحملة الفرنسية» بدء هذا التاريخ كله . فهى التى أوجدت الأسباب ، وهيأت الظروف ، وأعدت المسرح . وإذا كان قد قيل فى تاريخ أوربا إن نابليون كان وليد الثورة الفرنسية ، فإن يمكن أن يقال ـ بالنسبة إلى تاريخ مصر ـ إن محمد على كان النتيجة الأخيرة للحملة الفرنسية ، أو وارثها الأوحد.

بعد عام من مقدم « الحملة » - ١٧٩٩ - سيرت الدولة العلية - وكانت قد أعلنت الحرب على « بونابرت » - جيشاً، جمعته من كل فج ! تحت قيادة « أغا » الإنكشارية، لإخراج الفرنسيين من مصر. ووصل « محمد على » - جندياً عادياً فى فرقة الأرنؤود - مع هذا الجيش، لأول مرة، إلى مصر، ونزلوا بشواطىء « أبى قير ». وما كاد هذا الجيش - أو الخليط غير المدرب - يواجه نابليون، حتى ولى مدبراً ولم يعقب ! وأسرع من بقى على قيد الحياة لائذاً بالسفن الراسية فى مياه الخليج !. وكان من بين الفارين محمد على، الذى أشرف على الغرق لولا أن انتشله أحد رجال البحرية الإنجليزية.

ولكنه عاد، مرة أخرى، وكان ذلك بعد عامين (١٨٠١)، مع فرقة جديدة أرسلتها الدولة — عاد فى هذه المرة ليبقى، وليحالفه الحظ دهراً طويلا، وليجنى ثمرات الأحداث والتطورات السياسية التى وقعت فى مصر منذ مقدم « الحملة » وإلى ما بعد إجلائها. وقد تم إجلاؤها بالفعل فى خريف ذلك العام. ولم تكن « الحملة الفرنسية » إلا بمثابة إعصار أو عاصفة هوجاء اجتاحت البلاد لفترة من الزمن ولكنها لم تنجل حتى كانت قد زلزلت أوتاد العهد القديم؛ وقوضت أركان النظم القائمة؛ فتركت الجو مهيأ، والأرض ممهدة، لإقامة بناء جديد، وتشييد أنظمة أخرى.

* * *

ومهما قيل فى آثار الحملة، فإن من كبرى النتائج التى أسفرت عنها أنها حطمت القوة السياسية والاقتصادية « للماليك » بعد أن قضت على قوتهم الحربية. وقد كانت لهم السيادة مدى عهود طويلة. فنتج عن ذلك أن أن مرت البلاد عقب الجلاء بفترة انتقال دامت نحو أربع سنوات (١٨٠١ —

١٨٠٥) عاشت خلالها فى حال أشبه بالفوضى، إذ أخذت القوى المختلفة تتصارع فيما بينها ، من أجل احتلال مكان السيادة الذى أخلاه المماليك . فوجد الطامحون والمغامرون — ومن بينهم محمد على — فى ذلك المضطرب المجال الفسيح لتحقيق ما يطمحون إليه . وكان محمد على قد تدرج فى المناصب الحربية ، وشاء له الحظ أن يخلف « طاهر باشا » قائد الأرنؤود ، الذى اغتاله جنديان من الإنكشارية ، بعد أن وصل (أى طاهر باشا) إلى مرتبة الزعامة فى البلاد .

وكان من الممكن أن يستمر هذا الصراع بين القوى المتنازعة إلى ما لا نهاية ؛ وأن تظل مصر مسرحاً للمساجلات والمناورات . ولكن الشعب ضاق ذرعاً بهذه الحالة ؛ وصمم على أن يضع حداً للفوضى ، فقام حينئذ بثورته الدستورية التى حمل لواءها العلماء والعمال فى سنة ١٨٠٥ ، وقرر الزعماء خلع (الباشا) التركى — ممثل الباب العالى — ثم طاردوه حتى أجبروه على مغادرة البلاد . ولاحت حينئذ الفرصة السانحة لمحمد على «قائد الأرنؤود» — وهو يخب فى السياسة ويضع — فأسرع إلى انتهازها . وكانت الدولة العثمانية تريد به وبقوته شراً ، فتقدم إلى زعماء الثورة فى مسوح الراهب ! وعقد معهم حلفاً مقدساً على أن يكون هو المنفذ لسياستهم والمطيع لأوامرهم ؛ وأن يحكم بالعدل . وكان الزعماء فى هذا الظرف بحاجة أيضاً إلى قوة حربية ، يستندون إليها فى تحديهم لإرادة « الدولة » . وكان أن تمت المبايعة لمحمد على : هذا الجندى المغامر، الذى هاجر من « قوله » منذ ست سنوات ، ثم وصل على غارب الموجة الشعبية إلى أكبر منصب فى البلاد !

وظن الجميع أن عهداً جديداً قد أشرق فى حياة مصر ، تكون دعامتاه الحرية والعدالة ، وتراعى فيه مصالح الأمة ، وتخرج البلاد فيه من ظلمات

العصور الوسطى والإقطاع إلى أضواء العصر الحديث . فماذا كانت نتيجة تلك الأحداث ، وماذا حقق محمد على من هذه الآمال ؟ ؟

* * *

هذه هى سيرة الرجل الذى كون أسرة وأنشأ دولة ، وبدأ حقبة فى تاريخ مصر. أما بالنسبة لأعماله فلنذكر حكم التاريخ العام عليها — وذلك من وجهة نظر الوطنية المصرية .

إن خلاصة الحقائق التى يمكن أن تسجل عن حكم هذا الرجل هى أنه جاء إلى مصر ، كما جاء إليها كل من سبقه من المغامرين الذين وفدوا عليها ، من طلاب المجد والمال والشهرة ، وبقيت نظرته إليها هى نفس نظرة المهاجر الأجنبى أو الغريب ، الذى لا يربطه بالبلد الذى نزح إليه رابط غير اعتبار المصلحة الشخصية . وكذلك بقيت نظرة خلفائه من بعده .

جاء إلى مصر « عثمانياً » وقد قضى من حياته ثلاثين عاماً فى بيئة عثمانية تم فيها تكوينه ؛ فظل طول حياته عثمانياً — وإن كان قد وجد فى عصر جديد . والخصائص التى كانت تميز الطبيعة العثمانية هى الشره ، والأثرة المفرطة ، والحرص ، والقسوة ، والغدر .

ولقد رحل إلى مصر « أجنبياً » ، وظل كذلك « أجنبياً » . ولم تتغير هذه الطبيعة العثمانية فى ذريته ، حتى بعد قرن ونصف .

والحقيقة أن الدولة العثمانية إذا كانت قد انقرضت وزال عهدها حتى فى بلادها ، فإنها لم يبق لها أثر إلا فى مصر .

حقاً قد قام محمد على بكثير من الإصلاحات المادية ، كحفر القنوات وأقام

بعض القناطر وأخصب الأرض ، كما أنه بدأ بإيجاد صلة بين مصر والمدنية الحديثة . فهذه أمور لا ينكرها التاريخ ، وإن كان أثرها قد بولغ فيه كثيراً، لأن آثارها لم تظهر إلا بعد مدة طويلة ، وكان الفضل فيها لحيوية الشعب المصرى نفسه ، الذى له ميزة حسن الاستعداد لقبول أسباب التقدم ، وسرعة إدراك طبيعتها والأخذ بها . على أن اتصال مصر بأوربا — بحكم موقعها الجغرافى — كان لا بد على كل حال أن يتم ، عاجلا أو آجلا ، كما حدث مثل هذا الاتصال مع سائر أقطار الشرق الأوسط . وربما إذا كان حدث الاتصال فى وقت متأخر أنه كان يتم فى ظروف أحسن ، وتحت توجيه أرشد ، بحيث تحفظ الطبيعة المصرية ، ولا يهدد الأثر الأوروبى بأن ينال من الروح العربية والإسلامية .

على أنه إذا ذكرت الإصلاحات المادية ، فيما يتعلق بالأرض والإنتاج ؛ فإنه يمكن أن تذكر أيضاً مثل هذه الأعمال بالنسبة إلى الإنجليز وكرومر ، المستعمرين ، الذين جاءوا بعد محمد على بمرور الوقت . ولكن الحقيقة التى ينبغى أن تقرر ، من وجهة نظر الوطنية والقومية ، هى أن حرية الشعب وكرامته لا تقوم بمال . كما أن السؤال الذى ينبغى أن يوجه هو : ولمن كان سيعود خير هذه الأرض بعد ما تخصب ؟ . لقد كان محمد على يتصرف فى مصر كأنها مزرعته الخاصة ؛ وكان هو المالك الوحيد والمزارع الوحيد والتاجر الوحيد .

ولقد قرر الأستاذ « كروتشلى » — مؤرخ مصر الاقتصادى للعصر الحديث — أن القرى فى مصر هجرها الرجال فى عهد محمد على ، فلم يبق بها

غير النساء والأطفال والشيوخ ، فراراً من السخرة والتجنيد وفداحة الضرائب . كما تبين مما ذكر من إحصائيات أن عدد السكان فى معظم عهده لم يزد إلا زيادة ضئيلة . ومن الحقائق المعروفة فى التاريخ أن ستة آلاف من أهل الشرقية قد هاجروا إلى سوريا — على شدة حب المصرى لوطنه — هرباً من نفس المظالم ! ولا يختلف المؤرخون فى أن شقاء الفلاح المصرى فى عهد محمد على — وكذلك يسرى نفس الحكم على عهد أبنائه — كان كبيراً ، بل فوق ما يطاق .

أما من جهة العلاقات بالخارج ، فإن مجمل ما يلاحظ أن والى مصر قد زج بمصر فى حروب متوالية ، لم تكن لها فيها مصلحة مباشرة — فضلا عن أنها كلفتها جهوداً طائلة ؛ فكانت هناك أولا حرب « الوهابيين » (١٨١١— ١٨١٨) وكانت ضد حركة دينية إصلاحية فى بلادالعرب ، ثم الحرب فى اليونان (١٨٢٣ — ١٨٢٨) وكانت لمقاومة شعب ينشد استقلاله . وفيها فقد أسطول مصر . وبعد أن ساعد محمدعلى الدولة العلية بهذه الحروب ، فقواها ودفع عنها بعض الأخطار ، أعلن الحرب ضد الدولة العلية نفسها ؛ فكانت حرب الشام (١٨٣١ — ١٨٤١) . فكان هذا تضارباً وتناقضا فى السياسة الخارجية وسنتكلم عن نتائج هذه الحرب فى مقال تال .

ثم ماذا أفادت مصر من كل هذه الحروب ؟ لم تفد إلا أنها ضحت بالأموال والرجال ؛ وأثقل كاهلها بالضرائب ؛ وفقدت حريتها ، وكانت الثمرة الوحيدة من كل هذه الجهود هى تثبيت مركز أسرة « محمد على » . ثم خرجت من كل تلك التجارب القاسية ضعيفة منهوكة القوى . فكان عليها

أن تنتظر حتى يأذن الله فيقيض لها من ينهض من أبنائها ، فيعيد إليها الحياة من جديد .

* * *

كان هذا هو عصر الدولة العثمانية أو « الرجل المريض » ، والجنود المجلوبين ، والمغامرين الأفاقين ، والإقطاع والاستغلال ، وإن العصر الحديث أصبح لا يحتمل بقاء شيء من هذا ولا آثاره .

النزاع بين « الوالى » و « السلطان »

أو

حرب الشام

كانت نتائج الحرب التى دارت رحاها بين « الوالى » محمد على و «السلطان» محمود الثانى ، والتى شغلت كلا الجانبين عشر سنوات (١٨٣١ — ٤١) — كانت شراً بالنسبة إلى الفريقين ، وأيضاً بالنسبة إلى مستقبل « الشرق الأوسط » .

فإن تلك الحرب لم تكن فى الحقيقة غير « حرب أهلية » بين فرعين من أسرة ، أو دولة واحدة : حرب داخل « بيت الشرق الأوسط » .

فكان لابد أن يصحبها وأن يعقبها من النتائج الضارة ما يصحب أو ما يترتب على كل حرب أهلية . وفى مقدمة الشرور التى تنتج عن مثل تلك الحرب أنها تؤدى إلى ضعف كلا الطرفين ، وتنتهى بأن توهن قوى المجموع أو العائلة التى ينتميان إليها ؛ فتزعزع مركز هذه الوحدة بالنسبة إلى مايحيط بها من أعداء ، يقفون متربصين بها . وكان هذا هو الذى حدث بالنسبة إلى كل من تركيا ومصر ، والكتلة الإسلامية فى الشرق الأوسط . فكانت خسائر الطرفين والوحدة بأسرها ، فى الرجال والعتاد والأموال ، شيئاً كبيراً .

* * *

كان فى مقدمة هـذه الخسائر أن الحرب أضاعت على الفريقين الفرصة الثمينة التى كانا قد شرعا فى اغتنامها ؛ وهى فرصة تجديد قوى دولتيهما ، والقيام بتنفيذ كثير من المشاريع الإصلاحية التى كانت لازمة لحفظ كيانهما وتقدمهما .

فإن السلطان « محمود » — وذلك من جهة — كان معروفاً عنه أنه كان متشبعاً بالرغبة فى الإصلاح . ولـكنه ما كاد ينجح فى إزالة العقبة الـكبرى التى كانت تعترض طريق كل عمل إصلاحى ، وذلك بالقضاء على « الإنـكشارية » سنة ١٨٢٦ ، حتى فاجأته روسيا بإعلان الحرب عليه (عام ١٨٢٨) ؛ وكان فى نفس الوقت مشتبكا فى حرب طويلة منذ سنة ١٨٢١ مع اليونان ؛ ووقفت أكثر الدول الغربية فى صف اليونان ؛ فلم تنته هـذه المشكلة إلا فى عام ١٨٣٠ بتقرير انفصال هذه الولاية عنها نهائياً . وفى هذا الوقت ١٨٣٠ بالذات ، بدأ النزاع بينه وبين محمد على وعزم محمد على على شن الحرب العنيفة ضده ، التى كان ميدانها الشام وجنوب آسيا الصغرى ، فاستمرت هذه الحرب كما ذكرنا نحو عشر سنوات . فلم يعط السلطان إذن أى وقت لإنشاء جيش جديد قوى ، معد بالأسلحة الحديثة — كما كان يأمل — أو لتنظيم موارده المالية التى كانت ستعينه على إتمام هذا العمل ، أو السير فى تنفيذ الإصلاحات التى كان يهدف إليها .

وفى هذه الأثناء جاءت فرنسا فانتهزت فرصة انشغال الدولة ، فأرسلت جيشاً قوياً ليحتل « الجزائر » ؛ وذلك فى عام ١٨٣٠ . وكان لهذا الاعتداء مغزى كبير ؛ لأنه كان الخطوة الأولى — بعد التجربة الفرنسية على مصر التى لم تنجح — كان الخطوة الأولى فى الاستعمار ، أو هو كان أول احتلال لدولة

عربية إسلامية ، تابعة للدولة العثمانية . فكان هذا هو الفصل الأول من سجل الكوارث ، التى كان سينزلها العدوان الأوربى على أقطار الشرق الأوسط . ولم تستطع الدولة العثمانية أن تفعل شيئاً ، بسبب الحرب التى أعلنها عليها محمد على فى العام التالى (١٨٣١) . وكانت هذه الحرب بإيماز أو تشجيع من فرنسا ليخلو لها الجو ، حتى تتمكن من تأسيس الامبراطورية التى اعتزمت تأسيسها فى شمال إفريقية . بل إن فرنسا رغبت أولا إلى محمد على أن يشترك معها فى غزو « الجزائر » ؛ ومن الثابت أنه رحب بهذه الفكرة وكاد أن يشترك معها،لولا أن حذرته إنجلترا من هذه المغامرة .

كذلك — من الجهة الأخرى — من الواضح أنه لو كان « محمد على » قد وجه جهوده التى وقفها على مواصلة الحرب، وأيضاً الأموال التى أنفقها فى هذا السبيل — لو كان وجه تلك الجهود والأموال ليزيد من رخاء الشعب، وينفذ الإصلاحات الداخلية التى كان الوطن فى أشد الحاجة إليها، لكانت آثار جهوده أبقى، ولعادت على البلاد بأعظم الفوائد . ولكن الجهود كلها فى الناحيتين قد بددت فى نزاع دموى ، اقترن باضطراب وقلق ! ولم يؤد فى النهاية إلى ما كان ينتظر منه من نتائج . بل فقد محمد على معظم جيشه عند انسحابه من الشام وخسر أكثر معداته. وضاعت جهوده عبثاً ، إذ أجبر على التخلى عن كل البلاد التى فتحها : عن سوريا وفلسطين وبلاد العرب وكريد . وخرجت مصر — كما خرجت تركيا — مضعضعة حربيا وماليا . فأنقص عدد جيش مصر — كما نصت معاهدة لندن — وأغلقت مصانعها ، وعادت — ثانية — ولاية تابعة للدول العثمانية، تدفع الخراج للباب العالى — وإن كان الحكم بقى وراثيا فى أسرة محمد على. وهذه النتيجة الأخيرة — وهى الثمرة الوحيدة التى جناها — كان من الممكن أن يصل إليها بدون

حرب ، بل إنها كانت الأمر الواقع ؛ والدولة العثمانية كانت تحترم الواقع . وما كان يستطاع تغيير ذلك الواقع مادامت حكومة مصر قوية .

* * *

ثم إن تلك الحرب — إذا نظر إليها من الوجهة القانونية والدولية — يمكن أن تصور بأنها لم تكن أكثر من حركة عصيان : عصيان «وال» على «السلطان» الذي منه يستمد سلطته الشرعية . فإن محمد على كان قد اكتسب مركزه نتيجة مبايعة زعماء الشعب له ، الذين طلبوا من السلطان أن يوافق على قرارهم هذا الذى اتخذوه ، فأجاب السلطان مطلبهم . ولكن محمد على أقصى بعد ذلك أولئك الزعماء ، وقضى على الإرادة الشعبية ؛ فكأنه بذلك فسخ عقد المبايعة . ولم يعد هناك سند شرعى لبقائه إلا موافقة السلطان . فكان إشهار السيف إذن فى وجهه حركة عصيان من تابع على مولاه .

ولم تكن للحرب أغراض غير ذاتية ، أو عامة : كمبادىء دستورية أو اجتماعية — مثلا — نهض محمد على ليثبتها أو يحققها ؛ بل كان الغرض الأول هو تحقيق الملك أو طمع الاستيلاء .

فقد طلب محمد على أولا من السلطان أن يعطيه ولاية « عكا » ، وذلك فى نظير المساعدات التى قدمها له فى أثناء حرب اليونان . ولكن السلطان اكتفى بأن منحه ولاية « كريد » . فإذ فشلت المساومة أعلن إذن على السلطان الحرب !

وتثبت الشواهد التاريخية أنه كان يتطلع إلى الاستيلاء على الشام أو لبنان ، ويعمل لذلك منذ وقت طويل ؛ ولم يكن اتفاقه السرى مع الأمير بشير الشهابى — أمير لبنان — إلا خطوة فى هذا السبيل .

فهذه الحرب فى الشام كانت إذن عدوانا على أملاك الدولة ، ولم يكن قد بدا من « السلطان » ما يستدل منه على أن مركز محمد على صار مهددا أو ما يجعل الحرب أمرا محتوما ، أو يبرر نشوبها . ولكن المأزق الذى كان فيه السلطان فى ذلك الوقت — وهو خارج من حرب ضروس بينه وبين روسيا واليونان والدول ، وقد انتزع منه إقليم كبير « اليونان » ، واضطربت أحوال الدولة المالية والعسكرية — هذه المحنة وجد فيها « محمد على » الفرصة التى قد لا تعود ؛ والتى أغرته بأن يهاجم السلطان ، قبل أن ينظم أموره ويستعيد قوته .

على أن المهاجمة كانت — فوق ذلك — تناقضا مع المسلك الذى اتبعه هو نفسه منذ تولى ولاية مصر . فإنه قد قضى نحو عشرين عاما قبل هذه الحرب (١٨١١ — ١٨٣١) وهو يدافع عن السلطان ، ويذود عن الدولة الأخطار . ومن أجل هذا سخر موارد مصر فى الحرب ضد الوهابيين ، ثم الحرب فى بلاد اليونان . فإذا كان أمضى أكثر سنى ولايته يعمل لتقوية الدولة وتثبيت دعائمها ، فكيف يعود بعد ذلك لمهاجمتها ويسعى لإضعافها أو تحطيمها ؟ !

ومما يعلل لذلك أن محمد على لم يكن خياليا أو مثاليا ، لم يكن هناك مبدأ نظرى يوحى إليه بأعماله ، ويسعى هو إلى تحقيقه : كأن يفكر فى وحدة إسلامية ، أو مصلحة الأمة الإسلامية — مثلا — ! بل كان رجلا عمليا واقعيا ، وأغراضه مادية ذاتية . وكانت الغاية العامة التى تحكم سياسته وتدعوه إلى العمل هى تحقيق ما كان يطمح إليه ، وهو يتلخص فى إنشاء إمبراطورية أو تكوين دولة كبرى ، يحكمها مستقلا عن الدولة العثمانية ، أو دولة تحل محل هذه الدولة : ثم يورثها لأبنائه من بعده .

* * *

على أنه إذا كان أخفق فى تحقيق هذه الأغراض التى كان يرمى إليها ، فإنما يدل ذلك على أنه لم يحسن بدقة تقدير الأمور ، وأنه لم يكن متفهما للسياسة الدولية حوله على حقيقتها . فإن من الحقائق التى كان ينبغى له أن يدركها أن الدول — ولا سيما إنجلترا — لم تكن لتسمح أبدا بأن يقضى على الدولة العثمانية ، دون أن يكون هناك اتفاق بين الدول ، أو أن تشترك هى فى ذلك.

وظهرت هذه الحقيقة جلية أمام عينيه فى أثناء قيام مشكلة اليونان . فقد أدت الحرب التى نشبت بين تركيا وروسيا إلى فتح باب « المسألة الشرقية » ، وإلى تدخل الدول الكبرى جميعها، وكان من آثار هذا التدخل تحطيم أسطول مصر فى « نافارينو » بتآمر الدول . ثم أجبر هو ـ أى محمد على ـ على الانسحاب . فكان من العجيب إذن ـ أو لعل هذا لا يكون جد مستغرب على رجل كل ميزته الإرادة والذكاء الفطرى ـ أن لا يدرك محمد على ذلك ؛ وأن لا يدرك أن تحطيم الدولة العثمانية كان ينتج ـ حتما ـ أضخم مشكلة دولية فى ذلك الوقت؛ إذ كيف كان يقرر مصير الأملاك الواسعة التى كانت فى حوزتها ؟ وهل كان يمكن أن يتم ذلك بدون تدخل الدول ومساهمتها الفعلية ؟ . لقد أخطأ فى كل ذلك .

والذى يبدو أنه كان معتمداً على فرنسا . وهى التى شجعته على الاندفاع فى تلك المغامرة . ولكن فرنسا — حين جد الجد أو حزب الأمر — لم تقدر على أن تتحدى الدول كلها ، أو لم تقبل أن تضحى بنفسها أو مصالحها الأخرى، من أجل صديقها الذى علق عليها كل آماله ! فلم يتبين هو تلك الحقائق إلا حين واجهته فى نهاية الأمر فى صورة « تدخل مسلح » ، ممثل فى الأساطيل والمدافع ! فأجبرته الدول ـ التى تزعمتها إنجلترا ـ على التخلى عن الأراضى التى كان

فتحها ؛ وأملت عليه شروط « معاهدة لندن » إملاء (١٨٤٠ — ١٨٤١) . فضاعت بذلك أكثر جهوده ، وتبددت آماله فى تكوين امبراطورية أو القضاء على الدولة. وكان أولى له لو كان عكف على العمل لتقوية مصر ، وتدعيم أركان نهضتها من كل الوجوه ، حتى تصير من أقوى دول البحر الأبيض المتوسط .

* * *

أما نتائج الحرب بالنسبة للدولة العثمانية ، والأقطار المرتبطة بها فكانت أكثر خطورة ، أو ذات أثر أبعد .

فإن السلطان « محمود » ـ الذى يعده المؤرخون أعظم سلطان لتركيا فى العصر الحديث ـ شغل بتلك الحرب وما سبقها من حروب ـ كما قدمنا ـ فضاعت فرصة الإصلاح فى تركيا الى الأبد . ثم توفى قبيل نهاية الحرب (فى يونية ١٨٣٩) . فخلفه ابنه السلطان «عبد المجيد» — وكان لا يزال فى السادسة عشرة — وذلك فى ظروف متغيرة .

وكان من أكبر الشرور التى نتجت عن الحرب أن اختلت اقتصاديات « الدولة » . فإن الحروب المتوالية أرهقت ماليتها ، وقد اضطرت عقب تحطيم أسطولها فى « نافارينو » ـ اضطرت إلى إصدار سندات مالية ذات فوائد ؛ أى بمثابة قرض وطنى ، لتتمكن من إعادة بناء البحرية . فلما فوجئت بحرب «محمد على » التى استمرت عدة سنوات ، عجزت عن دفع الفوائد . وظلت تتراكم عليها الديون منذ ذلك الوقت ، مما كان من شأنه أن يؤدى ـ وقد أدى بالفعل بعد طروء أسباب أخرى ـ إلى إعلان إفلاسها فى أواسط القرن «التاسع عشر» . وكان هذا من أكبر العوامل التى عاقت الدولة العثمانية عن النهوض ؛ وأدت

إلى بقاء ضعفها . إذ أن الممالك إنما تبنى — كما يقول شوقى — « بالعلم والمال » وأن المال — كما يقول هو ، أيضاً :

إذا جفا الدور ، فانع النازلين بها أو الممالك ، فاندبها كأطلال !

وكانت تلك « الحرب الأهلية » سببا — أيضا — فى أن فتحت الباب على مصراعيه ، للتدخل الأجنبى فى الشئون الداخلية للشرق الأوسط .

فإن محمد على ، بمصادقته لفرنسا وإصغائه لمشورتها - وكان الكولونيل سيف : « سليمان باشا والفرنساوى » هو القائد الأعلى لجيشه ومستشاره الأول - فإنه بذلك قد أثار غيرة الدول - ولاسيما إنجلترا ؛ وكان هذا من أهم الأسباب التى جعلت « بالمرستون » وزير خارجية إنجلترا يقف فى وجهه بصلابة . وحين وجد السلطان نفسه مهدداً بأعظم الأخطار ، بعد هزيمة جيشه فى « قونية » (ديسمبر ١٨٣٢) لجأ إلى أمر عجيب ما كان ليدور بخلد أحد ، وهو أنه رمى بنفسه بين أذرع ألد أعدائه - أى روسيا — وذلك حين عرضت عليه حمايتها فقبل ، وعقد معها اتفاقية (هنكر اسكله سى) السرية فى (يولية ١٨٣٣) . فكان هذا أكبر إذلال للدولة . ولكنه فى نفس الوقت - من الوجهة الواقعية - كان حركة دبلوماسية بارعة . إذ أن الاتفاقية ، حين علمت بها إنجلترا استثارت هذه الدولة على الفور ، وجعلتها تتدخل فى أمر العلاقات بين تركيا ومصر ، مشاركة لروسيا فى حمايتها للدولة العثمانية ، حتى ذهبت إلى حد إعلان الحرب على محمد على فى النهاية وحاربته بالفعل . ثم كان وضع شروط « معاهدة لندن » ١٨٤١ التى بها تقرر مصير مصر والدولة العثمانية إلى زمن طويل بعد هذا - كان وضع هذه الشروط فى قاعات « وزارة الخارجية البريطانية » !

* * *

ولم ينقطع التدخل بعد ذلك، بل ازداد وتفاقم حتى تحول إلى شبه وصاية على الدولة. ثم انتهى – فى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وما بعد ذلك – إلى احتلال مسلح لأقطار الشرق الأوسط ؛ ومن بينها «مصر» نفسها.

وحتى قبل ذلك، كانت فرنسا – على كل حال – قد سبقت إلى احتلال «الجزائر» – ذلك القطر الإسلامى العربى – كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك، ثم أخذت توطد أقدامها فى تلك المنطقة ؛ إذ أن الحرب التى شنها حليفها «محمد على» على الدولة قد أسدت إلى فرنسا أجل خدمة. فحين نهض البطل الكبير «الأمير عبد القادر الجزائرى» يقاومها ويدفع عن وطنه وقومه وصمة الاستعمار لم يجد أى عون يقدم إليه من الدولة، أو من أى قطر إسلامى ؛ بل إن محمد على كان قابلا لأن يشترك مع فرنسا فى هذا العدوان! فظل «الأمير» الجزائرى يجاهد – منفردا – الجحافل الجرارة التى ساقتها إليه فرنسا، مسلحة بأحدث المعدات – يجاهدها أربعة عشر عاماً (١٨٣٣ – ١٨٤٧)، حتى ضرب أروع الأمثلة فى البطولة والاستعداد للفداء والتضحية. ولم ينته جهاده إلا فى عام ١٨٤٧.

ولقد حق القول أنه حين أكلت «الجزائر» قد أكل شمال إفريقية كله! بل يصح القول بأنه حين أكل «المغرب العربى» أكل الشرق الأوسط أو البلاد العربية معه، أيضاً. فإن الاستعمار «رواية» واحدة بدىء تمثيل أو أداء الفصل الأول منها فى ذلك الوقت، ثم صار يرفع الستار، من حين لآخر، عن بقية الفصول، حتى القرن الحالى.

فالحق أن تلك الحرب، أى (الحرب الأهلية)، قد ألحقت بالدولة (العثمانية)

أعظم الأضرار . وكان فى مقدمة ذلك أنها أضعفت مركزها الدولى، وأساءت إلى سمعتها وأضاعت هيبتها ، لما حاق بها من هزائم ؛ أو نقول إنها أذاعت السر ، وكشفت ضعف جبهة الشرق الأوسط . فبذلك تبدد الوهم الذى كان مسيطراً على عقول الدول الأوربية ، الذى كان يحملها على الاعتقاد بأن الدولة العلية لها قوى مذخورة ، ويجعل هذه الدول تخشى من أن تعلن الدولة العثمانية الجهاد الدينى ضدها . فبعد الهزائم التى حلت بها فى « قونية » ، ثم فى « نصيبين » على يد تابعها « محمد على » ، لم يعد لذلك الاعتقاد من أثر .

وإذا كان يحق لنا أن نشعر بشىء من الفخر ، لتلك الانتصارات الرائعة التى أحرزها الجيش المصرى ، لما تدل عليه من الصفات الممتازة التى يتصف بها الجندى المصرى : من الشجاعة والإقدام والثبات واحترام النظام — فإن تلك الهزائم فى الحقيقة إنما وقعت بالدولة العثمانية ، التى كانت تقف فى ذلك الوقت فى خط الدفاع الأول أو الجبهة التى كانت تحمى ما وراءها من أقطار الشرق الأوسط ، فتمنع الدب الروسى أو غيره من المعتدين أن يصل إلى تلك الأقطار ليبسط سيطرته عليها . فالدولة العثمانية إذن — على الرغم مما كان بها من معائب ، أو بالرغم من تخلفها عن العصر — كانت لا تزال تؤدى أجل خدمة للشرق ؛ ولم يكن من مصلحة العالم الإسلامى أو الشرق العربى القضاء عليها فى ذلك الوقت . بل إنها ، مع هذا الضعف ، يمكن الحكم بأنها قد أخرت استعمار الأوربيين للشرق الأوسط نحواً من قرن .

وأخيراً ، لو فرض أن محمد على نجح فى القضاء على الدولة العثمانية لما أمكنه أن يقف حينئذٍ فى وجه روسيا والنمسا وانجلترا . ولانقضت روسيا على الفور فاحتلت بلاد البلقان ، وسبقته إلى الاستيلاء على « القسطنطينية » ؛ ولأخذت

إنجلترا ما أرادت من أراضى الدولة؛ أو لأعلنت عليه الحرب ؛ وما كان ليستطيع أن ينازلها — كما وقع بالفعل حين هددته بالأسطول وسعت إلى إخراجه من الشام ، فلم يقدر إلا على أن ينسحب و يتخلى عن كل فتوحاته ، على الرغم منه .

فتحطيم الدولة العثمانيــة لم يكن يعني إذن فى ذلك الوقت إلا أن تحيق الـكوارث — قبل الأوان — بالشرق الأوسط ؛ وأن تقع الشـعوب ، التى كانت تتكون منها الدولة ، فريسة للاستعمار إذ ذاك ؛ لأنها لم تــكن قد قوت نفسها ، أو بلغت من الرقى درجة تعينهـا على المقاومة . فالوقت الذى تأخر فيـه الاستعمار كسبته تلك الشعوب — العربية — لأنه لما جاءها بعد ذلك كان التعليم قد انتشر فيها ، ونظمت مواردها ، ووصلت روحها المعنوية إلى مســتوى سام فكانت قادرة إذن على أن تقاوم الاســتعمار ، وأن تخوض — فى أمل — معركة الحرية

فى أواسط القرن التاسع عشر :

النفوذ الأجنبى ، والمسألة الشرقية

فتحت « الحرب الأهلية » — كما ذكرنا فى المقال السابق — للدول الأجنبية باب التدخل فى شئون الشرق الأوسط ، والدولة العلية ، التى كانت أشبه بحصن مغلق .

وقد أخذ هذا التدخل أشكالا عديدة : سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية . وكان هذا التدخل هو التمهيد لتثبيت النفوذ الاستعمارى ، ثم للسيطرة بالاحتلال المسلح .

ويمكن تعقب مظاهر هذا التدخل أو النفوذ :

(أولا) فيما يتعلق بالدولة العلية وعلاقاتها بدول الغرب .

(ثانياً) فى الفتن الطائفية والسياسية ، التى نشبت فى لبنان .

(ثالثاً) التنافس فى الحصول على امتيازات أو مكانة خاصة ، فى مصر .

١ — الدولة العلية والغرب

فأما فيما يتعلق بالدولة العلية ؛ فإنه لما كانت « إنجلترا » صار لها فضل أنها هي التي بادرت بالوقوف إلى جانب « السلطان » ، لتحميه من عدويه : محمد على وروسيا — وإن كان دافعها الأول في الحقيقة هو الدفاع عن مصالحها الذاتية — وظلت ثابتة في موقفها حتى عقدت « معاهدة لندن » ، التي كانت نصراً للدولة العلية وهزيمة كبيرة لمحمد على وفرنسا — لما كان شأن إنجلترا كذلك ، فإنها كانت أول دولة جنت الفوائد السياسية والاقتصادية لاتصال الغرب بالدولة العثمانية . فقد اكتسبت إنجلترا نفوذاً كبيراً فيها ، وارتفع مقام سفيرها بالأستانة ، وصارت الدولة تصغى لمشورتها وتجتهد في أن تنفذ رغباتها .

المعاهدة التجارية ١٨٣٨

فكان في مقدمة ما حصلت عليه أنها عقدت « معاهدة تجارية » مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ ، كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة . فقد منح بها التجار الإنجليز الحق في دخول أى جزء من أملاك الدولة العثمانية ، وحق الاتصال المباشر بالمنتجين الوطنيين ، لشراء المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ؛ أو البيع لهم . وقد حرصت إنجلترا على أن تجعل ذلك الاتفاق أحد ملاحق معاهدة لندن التي عقدت سنة ١٨٤٠ . ومن ثم وجب تطبيق هـذا الاتفاق على مصر ، حيث أن مصر التزمت بتنفيذ معاهدة لندن .

وكان من نتائج هذا الوضع الجديد أن ازداد التعامل التجارى بين مصر وإنجلترا . وقضى على احتكار حكومة مصر — أى محمد على — للقطن .

ولم يكن هذا الاحتكار فى صالح المزارعين . فأصبحت تجارة القطن منذ ذلك الوقت حرة ؛ فشجع هذا إنتاجه وتصديره وأدى هذا إلى ارتفاع سعره .

* * *

خط أو « فرمان الكلخانة » : ١٨٣٩

ولما كانت الدول الأوربية تريد أن تستغل العواطف الدينية والعنصرية ، وترمى إلى أن تتخذ من الأقليات فى الدولة وكلاء لها لتقوى بهم نفوذها ، وتجعلهم واسطة تنفيذ سياساتها ، فقد كانت دائماً تضغط على الدولة لاستصدار قوانين جديدة ، بحجة حماية الأقليات ، وتنادى بضرورة إصلاح نظم الدولة .

ولا ريب أن الدولة العثمانية كانت بحاجة إلى كثير من الإصلاح فى نظمها ، ولكن الدول الغربية التى كانت تنادى بذلك كانت تفهم الإصلاح بمعنى واحد ، أو تريده لغاية واحدة فقط ، وهى منح الأقليات (أو الأوربيين ، أو غير المسلمين — بصفة عامة) حريات سياسية وحقوقا تتحول إلى امتيازات ؛ وذلك لتجعلهم طوائف منفصلة عن الدولة ، متمتعين بمزايا لا تتمتع بها الأكثرية من المواطنين . فاستجابة لهذا الضغط — ورغبة أيضاً من بعض رجال الدولة الذين كانوا يريدون إصلاحاً حقيقياً ؛ وهم فى ذات الوقت حريصون على التعاون مع الدول ، ليمكن أن ينقذوا وطنهم من مثل الخطر الذى تعرض له فى أثناء الحرب السابقة — لهذه الأسباب ، أصدرت الدولة العلية قانوناً كان بمثابة دستور عام ، أعلنته لتضمن به الحقوق الأساسية للمواطنين على اختلاف أجناسهم .

وقد صدر هذا القانون ـ الذى سمى خط أو « فرمان » الكلخانة ـ فى ٢

نوفمبر سنة ١٨٣٩ : أى حين كانت الحرب دائرة ، وكان ذلك فى مطالع عهد السلطان « عبد المجيد » الذى اعتلى العرش فى يولية من العام ١٨٣٩ . وكان الفضل فى وضعه وإصداره لوزير خارجية تركيا إذ ذاك : «مصطفى رشيد باشا» — الذى كان أول وزير لتركيا من النوع الحديث .

فاحتفل بتلاوة هذا المرسوم احتفالا كبيرا ، فى جمع ضم الوزراء والأعيان وممثلى الدول الأجنبية . وقد افتتح المرسوم ببيان أن سبب رقى الدولة فى الماضى كان هو العمل بمبادىء الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك سبب عزتها وقوتها ، وأن سبب تأخرها مذ مائة وخمسين من الأعوام بل ذلك الوقت ، كان هو إهمال تلك المبادىء . ثم أعلن المرسوم أن الدولة تكفل حماية الأرواح والعرض والناموس والمال ، وسن نظاماً عادلا لجباية الخراج ، وللتجنيد ، ليبطل المساوىء التى كان معمولا بها . ونص فى النهاية على أن جميع رعايا الدولة — من المسلمين وسائر الملل الأخرى — تتمتع بهذه الحقوق ، بدون استثناء .

التنظيمات الخيرية :

ثم عادت الدول الأوربية — ولاسيما إنجلترا — بواسطة سفيرها بالأستانة : « سير سترانفورد كاننج » أو « كليف » الذى كان له أكبر نفوذ فى العاصمة — عادت إلى الضغط على الدولة لتصدر مرسوماً آخر ، يكون أكثر وضوحا وصراحة فى إعطاء المسيحيين وأهل الملل الأخرى الحقوق والضمانات التى كانوا يتطلعون إليها . فصدر هذا القانون عقب « حرب القرم » فى عام ١٨٥٦ ؛ وجعل جزءاً أساسيا من « معاهدة الصلح » التى عقدت فى باريس والتى بها انتهت تلك الحرب .

وقبل أن نبين طبيعة هذه « التنظيمات » ، نرى أنه ينبغى أولا إيضاح

الأسباب والظروف ، التى أدت إلى نشوب هـذه الحرب « حرب القرم » . لأن إصدار التنظيمات كان متصلا بهـذه الظروف . وحرب القرم — بصفة عامة — لم تكن إلا مظهراً عملياً للصراع أو التنافس الاستعمارى الذى كان دائراً بين الدول الـكبرى ، والذى كانت أسبابه سياسية وإقتصادية ؛ ولـكن اختلطت به أو استغلت فيه العواطف الدينية .

* * *

حرب « القرم » ، او المسألة الشرقية

فى هذا العصر الذى شابه التعصب ، وتكدر بالفتن الطائفية فى لبنـان وغيرها ، كان السبب الظاهرى أو المباشر الذى أثار « حرب القدم » ، ما بين عامى : (١٨٥٣ — ١٨٥٦) — كان سبباً دينياً ؛ لـكن كان المقصود به فى الحقيقة التوصل إلى أهداف سياسية .

كان هذا السبب هو النزاع بين المسيحيين : «الـكاثوليك » الذين كانت تؤيد قضيتهم « فرنسا » — من جهـة — وبين المسيحيين : « الأرثوذكس » ، الذين كانت تدافع عن دعاواهم « روسيا » ـ من الجهـة الأخرى . كان النزاع يدور حول امتلاك « مفاتيح البقاع المقدسة » وحق حماية هذه الأماكن فى فلسطين وبخاصة القدس . وامتد النزاع حتى شمل حق حماية المسيحيين ، بصفة عامة ، فى الدولة العثمانية .

فقد اعتمدت « روسيا » على مانالت من اعتراف من الدولة العلية ، فى نصوص « معاهدة قينارجة » التى عقدت سنة ١٧٧٤ ـ اعتراف بأن لها حق حماية المسيحيين فى البلقان ؛ وكـذلك ماحصلت عليه ـ أى روسيا ـ بمقتضى معاهدة « هنكر سكله سى » ، التى أبرمت فى عام ١٨٣٣ حيث سلم فيها بحق حماية المسيحيين عامة .

هذا ، بينما استندت « فرنسا » إلى الامتيازات التى كان منحها السلطان سليمان القانونى لملكها « فرانسوا الأول » عام ١٥٣٦ ، والتى كانت جددت بامتيازات أخرى منحت فى عام ١٧٤٠ ـ استندت إلى ذلك لتؤيد دعواها بأن لها وحدها الحق فى حماية المسيحيين من رعايا الدولة العلية .

وكان كل من قيصر روسيا ـ وهو « نقولا الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) وامبراطور فرنسا ـ وهو « نابليون الثالث » (١٨٥١ ـ ١٨٧٠) ـ كان كل منهما متعصبا ؛ ويرمى إلى أغراض امبراطورية . والأخير كان يريد بصفة خاصة إرضاء الرأى العام الكاثوليكى فى فرنسا .

* * *

كان هذا هو السبب فى الظاهر . ولكن الواقع أن روسيا كانت تريد أن أى ذريعة لفتح باب « المسألة الشرقية » من جديد ، على مصراعيه ، لتتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، وتوجد مجالا للمساومات ، أو تعلن الحرب على الدولة لتكون لها الكلمة الفاصلة عند عقد الصلح ، فتنال ماتقصد إليه من مطامع .

كانت أغراض روسيا « القيصرية » هى أن تسلخ ولايات البلقان عن الدولة ثم تضمها إليها لتكون تحت حمايتها ، وأن تكون لها السيطرة على البحر الأسود وموانيه ؛ وأن تكون لأساطيلها حرية المرور بالمضايق : البوسفور والدردنيل ، بل كان أهم أغراضها أن تستولى على الأستانة : « القسطنطينية » ـ إذا أمكن ذلك .

وهذه الأغراض هى التى دفعت « إنجلترا » للدخول فى المعترك والوقوف إلى جانب فرنسا ضد روسيا . فإن القواعد الأولى لسياسة إنجلترا أن تمنع روسيا من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط ، أو من أن تنازعها السيادة على البحار ،

أو تهدد طرق المواصلات إلى إمبراطوريتها فى الهند . وقد كانت روسيا فى ذلك الوقت قد حولت « سباستبول » إلى قاعدة بحرية كبيرة ، وبنت أسطولا ضخما ؛ وغدت خطرا يهدد الدولة العثمانية والمصالح بريطانية فى الشرق. كذلك كانت مصالح فرنسا الاستعمارية متفقة مع مصالح بريطانيا .

* * *

كانت هذه إذن هى الأسباب ، التى أدت إلى الحرب التى عرفت بحرب القرم — نسبة إلى شبه الجزيرة فى البحر الأسود .

هذا ؛ وقد كان « القيصر نقولا » (١٨٢٥ — ٥٥) مصرا على العدوان على الدولة ، مذ بان له ضعفها إذ لجأت إليه تطلب حمايته من أحد الولاة التابعين لها - وهو « محمد على » - حين هاجمها وكادت جيوشه أن تصل إلى « البوسفور » . ولما كان تدخل إنجلترا وعقد معاهدة لندن قد فوتا عليه تلك الفرصة ، فلم يتمكن من أن يستغلها حينئذ كما كان يشتهى ، فقد كان يريد منذ هذا الوقت أن يجد سبيلا لنقض المعاهدة ؛ وذلك بإشراك إنجلترا معه فى مؤامرة ضد الدولة العلية .

ففى عام ١٨٤٤ ، ثم أيضاً فى عام ١٨٥٣ ، اتصل قيصر روسيا بانجلترا وعرض عليها أن تشترك روسيا وإنجلترا فى اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، التى أسماها حينئذ : « الرجل المريض » - وهكذا كان يتحدث عنها دائما . وفى هذا العرض أو هذه المؤامرة ، جعل « القيصر » مصر وجزيرة كريد من نصيب إنجلترا . ولـكن الإنجليز لم يكونوا يثقون فى روسيا ، إذ كانوا يدركون أغراضها النهائية . ولم يريدوا أن يتحولوا عن سياستهم التقليدية ، وهى المحافظة على الدولة العلية والدفاع عنها ، لـكى تظل حاجزا منيعاً يقف دائماً فى وجه روسيا وزحفها إلى الشرق . وقد كان « بالمرستون » — وزير خارجية إنجلترا ثم

رئيس وزرائها — من المتمسكين بهذه السياسة ، بل مستعدا للقتال فى سبيلها .

* * *

كانت « حرب القرم » إذن دورا آخر من أدوار « المسألة الشرقية » ، وهى المسألة التى خلقتها روسيا ودأبت على إثارتها منذ عهد « كاترين الثانية » — وكان ذلك فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر . فلم يكن « نقولا الأول » إلا راميا إلى نفس الأهداف التى كانت تقصد إليها قبله « كاترين » ، فإذ أخفقت مساعيه فى استمالة إنجلترا أو فرنسا إلى مشاريعه ، صمم على البدء فى العدوان بنفسه .

سير الحرب :

أرسل القيصر — بواسطة سفيره فى الأستانة « منشكوف » — إنذارا إلى « الباب العالى » ، يطلب فيه الاعتراف بحقوق روسيا فى حماية رعايا الدولة المسيحيين ، ومطالب أخرى . فلما رفضت الدولة مطالبه ، سارع بإرسال جيوشه فاحتلت ولايتى (الأفلاق والبغدان) : (أى رومانيا) — فى يوليه سنة ١٨٥٣ . فكان هذا بمثابة إعلان حرب على الدولة .

فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا (فى أكتوبر سنة ١٨٥٣) . ووقف إلى جانبها سفير إنجلترا بالأستانة « لورد ستراتفورد دى ردكليف » ووعدها بالمساعدة . وأمرت إنجلترا وفرنسا أساطيلهما بالتوجه إلى « الدردنيل » حيث لبثا ينتظران تطور الأمور .

ففى (نوفمبر) من نفس العام ، فاجأ الأسطول الروسى أسطولا عثمانيا ، فاغرقه فى ميناء (سينوب) فى البحر الأسود . فاضطرت أساطيل الحليفتين إلى الظهور فى هذا البحر ، مما عدته روسيا إهانة لها ؛ فأصبح الاشتباك فى الحرب

وشيك الوقوع . وبعد أن أخفقت المفاوضات السلمية ، التي بدأت بعقد مؤتمر فى (فينا) ؛ وبعد أن رفض القيصر مذكرة للدولتين ، تطلبان فيها إليه أن يتعهد باحترام سلامة الإمبراطورية العثمانية ، لم يكن هناك بد من الحرب . فأعلنت كل من إنجلترا وفرنسا الحرب على روسيا ، فى مارس سنة ١٨٥٤.

وقد بدأت الحرب فى بلاد البلقان ، لإجبار روسيا على اخلاء الولايتين اللتين احتلتهما . ثم نقل الميدان الرئيسى الى شبه « جزيرة القرم » — التى منها أخذت الحرب اسمها — لأن مقصد انجلترا الأول كان هو تحطيم القاعدة البحرية التى أقامتها روسيا فى « سباستبول » والقضاء على الأسطول الرومي.

وقد حدثت مواقع عنيفة بقصد الاستيلاء على هذا الثغر — فى « ألما » و « بلاكلافا » — وذلك فى غضون عام ١٨٥٤ ، ولكن الروس ، بقيادة بطلهم (تودلبن) ، دافعوا عنه دفاعا مجيدا . مما اضطر الحلفاء الى قضاء الشتاء فى مواقعهم المكشوفة ، فقاسوا من برد الشتاء القارس، ومن انتشار الأمراض بينهم ، وسوء التغذية ، آلاما بالغة ، وكثرت بينهم الضحايا — إلى جانب ما فقدوا فى المواقع من رجال !

ومما يجدر ذكره أن مصر اشتركت أيضا فى تلك الحرب — تلبية لدعوة السلطان (عبد المجيد) — فأرسل عباس باشا الأول (١٨٤٨ - ٥٤) جيشا وأسطولا فى أواخر عام ١٨٥٣، وقد ودع الحملة بنفسه بخطاب حماسى ، واستمرت الحرب إلى عهد خلفه (سعيد باشا) وقد غرق الأسطول فى البحر الأسود ؛ ولكن الجيش الذى اشترك فى الحرب أبلى بلاء حسنا . وممن أرسل فى هذه البعثة (على مبارك) ، الذى ذهب كأحد مهندسى الحملة .

كذلك فى يناير سنة ١٨٥٥ أرسلت إيطاليا — التى كانت تسعى إلى

إتمام وحدتها تحت زعامة « كافور » — أرسلت جيشاً لمساعدة الحلفاء ، حتى تكون لها مكانة دولية ، وتغنم من شروط الصلح .

ثم فى خلال عام ١٨٥٥ نظم الحلفاء أمورهم وعززوا قواتهم ، فأخذت الأحوال فى التحسن بالنسبة لهم . وبعد عدة مواقع سقطت « سباستبول » (فى ١٠ سبتمبر ١٨٥٥) . وكان القيصر — وهو « نقولا الأول » — قد مات قبل ذلك فى ٢ مارس من نفس العام ، وخلفه ابنه الإسكندر الثانى ، فحينئذ أصبح الطريق ممهداً للصلح . وانتهت الحرب هكذا بهزيمة روسيا ؛ وإن كان الحلفاء تكبدوا أيضاً خسائر جسيمة .

معاهدة « باريس » ١٨٥٦ :

وفى باريس ، وتحت رعاية الإمبراطور « نابليون الثالث » ، انعقد مؤتمر الصلح وذلك فى ٢٥ فبراير ١٨٥٦ . وتم الاتفاق على شروط « معاهدة باريس » .

فكان أهم شروط هذه المعاهدة التى وافق عليها المؤتمر ما يلى :

(أولا) : إعلان حياد البحر الأسود : أى تكون الملاحة فيه مباحة لتجارة جميع الدول ، وتمنع منه السفن الحربية ، سواء أكانت تابعة للدول الواقعة على شواطئه أو لغيرها .

(ثانياً) : لا تنشأ قواعد بحرية على البحر ، وتتعهد روسيا بهدم ما بنت من قواعد .

(ثالثاً) : تغلق المضايق : (البوسفور والدردنيل) فى وجه المراكب الحربية غير العثمانية .

(رابعاً) : حرية الملاحة فى نهر الطونة (الدانوب) .

(خامساً) احترام استقلال الدولة العثمانية ، وسلامة أملاكها .

(سادساً) : اللجوء إلى التحكيم الدولى ، عند حدوث نزاع بين الدولة العثمانية وإحدى الدول .

(سابعاً) : يتعهد السلطان بتحسين أحوال رعاياه من المسيحيين وبإصدار منشور بذلك . على أن تكون له السيادة التامة على كل رعاياه فليس لأية دولة الحق فى التدخل بينه وبينهم .

هذا ، وقد أصدرت الدولة العثمانية — فعلا — المنشور المذكور فى المعاهدة ، وهو الذى عرف باسم « التنظيمات الخيرية » ، وهو الذى سنتحدث عنه الآن .

وكانت معاهدة باريس ختاماً لدور من أدوار المسألة الشرقية .

« التنظيمات الخيرية » : ١٨٥٦

ذكرنا من قبل أن الدول — ولا سيما إنجلترا — عادت إلى الضغط على الدولة العلية ، لتصدر « مرسوماً » آخر ، يكون أكثر وضوحاً أو صراحة ، فى إعطاء المسيحيين وأهل الملل الأخرى ، من رعايا الدولة ، حقوقاً أو ضمانات خاصة . وقد ظهر لنا أن هذا المرسوم أصدرته الدولة بمجرد انتهاء حرب القرم ، وقبيل انعقاد مؤتمر الصلح ، حتى يكون حجة فى يد إنجلترا ضد روسيا . ثم نص عليه كأحد مواد « معاهدة باريس » .

كان صدور هذا المرسوم — الذى كان أكثر أهمية من القانون السابق الذى أصدرته الدولة فى عام ١٨٣٩ ، وكان له دوى أكبر وترتبت عليه نتائج خطيرة — كان صدوره فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ . وقد كان بمثابة إعلان

دستور خاص، الرعايا غير المسلمين من الأوربيين وغيرهم، جعلهم فى مركز كأنهم يكونون دولة داخل الدولة . وقد عرف باسم « التنظيمات » أو « الإصلاحات » الخيرية أو الجديدة .

بدأت هذه « التنظيمات » بديباجة قرر فيها « السلطان » أن من أهم مقاصده السامية « سعادة أحوال كافة صنوف التبعية (الرعايا) التى أودعها الله إلى يده » . وذكر أن هذا العصر يعد بالنسبة للدولة العلية بدء زمن الخير .

ثم أعلن « المرسوم » أن الإدارة السلطانية صدرت « باتخاذ التدابير الفعالة نحو تأمين كافة التبعية (الرعية) ، من أى دين أو مذهب كانوا — بدون استثناء — على الروح والمال وحفظ الناموس » . وأكد جميع الضمانات التى منحت فى المرسوم السابق : « خط كلخانة » ، وأمر بإخراجها من حيز القوة إلى حيز الفعل .

ثم نص المرسوم (التنظيمات) على وجوب إبقاء كافة الامتيازات والإعفاءات ، التى منحت فى السنين الأخيرة ، وكذلك التى منحها أجداد السلطان فى العصور السالفة ، للطوائف المسيحية وكافة الملل غير المسلمة ، « الموجودين تحت ظل جناح عاطفتنا السامى ، بممالكنا المحروسة » .

ثم احتوى « المرسوم » بعد ذلك على ذكر التفاصيل والشروط ، التى بمقتضاها تطبق تلك « الامتيازات » الممنوحة للطوائف ، فيما يتصل بأنظمتهم الداخلية ، وفى التعليم والقضاء ، وممارسة العبادة . وقرر ، بما أن عوائد كل دين ومذهب موجودة بممالكنا المحروسة ، جارية بالحرية فلا يمنع أى شخص من تبعيتنا الملوكية من إجراء رسوم الدين المتمسكه ؛ ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ، ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه » .

وأقر أيضاً مشروعية إنشاء « المحاكم المختلطة » ، التى كانت أنشئت قبل ذلك بعدة سنوات .

وعلى العموم ، فإن « التنظيمات » — إلى جانب هذه الامتيازات التى نصت عليها — ظلت تؤكد فى كل موضع مبدأ المساواة التامة بين الطوائف غير المسلمة وبين المسلمين ، فى مختلف الحقوق المدنية والسياسية ، ومن بينها حق تولى الوظائف ، وحق امتلاك العقارات .

وكان من بين نتائج إصدار هذه « التنظيمات » الفتن التى حدثت بعد قليل فى لبنان . وسنتكلم عنها الآن .

٢ — فى لبنان

الفتن الطائفية والسياسية

كانت تلك « التنظيمات » التى أعلنتها الدولة العلية — بضغط من الدول الأوروبية — كانت أحد العوامل التى أدت إلى إثارة الفتن الطائفية فى لبنان، وكذلك فى جهات أخرى من الدولة .

فإنها ، بدلا من أن تعمل على إدماج العناصر المختلفة بعضها فى بعض ، قد أبرزت الفوارق وأقامت الحواجز بين الطوائف ، وكأنما أوجدت الأساس لوجود حكومات داخل الحكومة العامة ، كما أنها كانت سببا فى تضخم المطامع، وأثارت آمالا لم تكن لتتلاءم مع الواقع . ثم من الناحية الأخرى قد أوجدت المبرر لشعور الأغلبية التى تتكون منها الدولة — وهم المسلمون — بالخوف من النتائج التى كانت ستسفر عنها تلك المطامع والآمال، فدفعهم هذا إلى أن يكونوا يقظين للدفاع عن حقوقهم . إذ أن هذه « الامتيازات » التى تسلحت بها

الأقليات أو الطوائف ، التى أعطيت لهم نتيجة ضغط الدول المباشر ، كان من شأنها أنها ستجعل مركز الأقليات أحسن وأقوى من مركز الأغلبية نفسها . وأن مساوىء هذه الامتيازات كانت ستظهر فيما بعد: فى مجالات القضاء والاقتصاد والتعليم وغيرها ، وتكون وبالا على الدولة نفسها وعلى الشعوب التابعة لها .

كان هذا أحد العوامل ـ وهو عامل عام ـ فى إثارة الفتن فى لبنان وغيرها. أما الأسباب الأولى ، أو الأساسية ، للفتن الطائفية التى وقعت فى لبنان وسوريا ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، فترجع إلى شعور الكراهية القديمة وعدم التفاهم — وهما اللذان ينشآن عن انتشار الجهل وضيق الأفق . كما أن بعض الولاة والمتغلبين كان لا يتورع عن إذكاء الكراهية ، وإيجاد أسباب الحقد بين الطوائف ، ليسهل عليه تنفيذ مآربه .

وقد ظهر التنافر بصورة شديدة ، وأثيرت عواطف التعصب الضارة ، بين الفريقين الذين كان يتألف منهما الوطن الواحد ، وهما : « الموارنة » ـ وهم الكاثوليك ، والدروز — وهم من المسلمين . وكذلك ـ بصورة أقل ـ بين مختلف طوائف المسيحيين : من كاثوليك مخلصين لفرنسا ، وبروتستنت أنجلكانيين تابعين لإنجلترا ، أو برسبتاريين تابعين لأمريكا ، ثم أرثوذكس موالين لروسيا .

ظهر التنافر فى أثناء حرب محمد على بالشام ثم فى أعقابها ،واستمر بعد ذلك نحو ربع قرن .

ذلك أن محمد على دخل أولا الشام متآمراً مع الأمير « بشير الشهابى » والمارونيين ، ضد الدولة والسلطان ، وشبه حليف لفرنسا. وكان الأمير « بشير » لا يضمر أى ولاء للدولة ، حتى إنه فى الماضى ساعد « نابليون » حين غزا بلاد

الشام . وكان هذا الأمير قد تنصر سراً وأصبح ولاؤه للمارونيين وحدهم. وقد اضطهد الدروز ، وقتل أكبر زعمائهم وهو الشيخ « بشير جنبلاط » .

فحين احتل محمد على بلاد الشام ، عمل ابنه إبراهيم على اتباع سياسة ترمي إلى ترجيح كفة «المارونيين» وجعلهم أصحاب السيادة . واضطهد « الدروز » — وذلك على الرغم من أنهم وجميع أهل لبنان وسوريا رحبوا بحكمه في بادىء الأمر ، أملا منهم في أن يجدوا عهداً يقضى على مساوىء الحكم السابق — وكانت هذه السياسة محققة لمقاصد الفرنسيين ؛ لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم حماة « الكاثوليك » في كل مكان من بلاد الدولة العثمانية . كما أن محمد على — اتباعاً للسياسة نفسها — أذن للبعثات التبشيرية بالقدوم إلى لبنان وسوريا ؛ وسمح لها بمباشرة نشاطها ، في أثناء حكمه الذى استمر نحو تسع سنوات (١٨٣١ - ٤٠) . فكان في مقدمة الوافدين بعثات «الجيزويت» : أى اليسوعيين ، التى بدأت عملها عام ١٨٣٣ - بعد أن كان نشاطها متوقفاً منذ صادر « البابا » جماعتهم قبل ستين سنة . ثم لحقت بها — فيما بعد — البعثات الأمريكية والإنجليزية . ولم يكن نشاط تلك الإرساليات قاصراً على الدين ، بل كل منها كانت تمهد لنفوذ سياسى ، وتعمل على خلق الجو الثقافى المناسب لاستعمار الدولة التى هى تتبعها ، أو للاستعمار الأوروبى — بوجه عام .

ولما كانت هذه السياسة التى اتبعها محمد على مؤدية إلى تقوية نفوذ فرنسا ، وممهدة لاستعمارها ، حيث إن فرنسا كانت تتطلع دائماً إلى احتلال بلاد الشام - فقد عمدت إنجلترا وروسيا إلى معارضته والوقوف فى وجهه . ورأت إنجلترا أن الواجب عليها أن تتصل بالدروز ؛ فصادقتهم واتخذت منهم حلفاء لها ، لتقاوم بهم النفوذ الفرنسى وحرضتهم على الموارنة الكاثوليك الذين كانوا ممثلين لذلك

النفوذ . وكان لها فى نفس الوقت غرض دينى ؛ وهو أن تقنع المارونيين بأن لا حماية لهم فى ظل فرنسا ، ولا أمان على حياتهم وأموالهم إلا إذا تحولوا من « الكاثوليكية » إلى « البروتستنتية » ، وأصبحوا حلفاء لإنجلترا . وكان الأمريكيون أيضاً يشجعون الإنجليز فى هذا السبيل .

* * *

هكذا كان الجو مهيأ للفتن ، وقد أثيرت الأحقاد الطائفية وبلغت ذروتها ، وذلك فى الوقت الذى احتدمت فيه المعارك السياسية والحربية لإخراج « محمد على » وابنه من الشام . فإذ انسحبت جيوشه فى أواخر عام ١٨٤٠ ، وأصبحت لبنان فى حالة قريبة من الفوضى ، لم يعد هناك مناص من أن تصطدم القوى المتعارضة ، وترتطم الأهواء المتضاربة ، ولاسيما والدسائس الأجنبية تعمل عملها . ولم تكن المشكلة دينية وسياسية فحسب ، بل كان لها جانب اقتصادى أيضاً فإن إبراهيم باشا كان قد انتزع أراضى كثيرة من الدروز ، الذين ثاروا عليه ، وسلمها إلى الموارنة الموالين له ؛ فعقب خروجه هب الأولون يريدون استرداد حقوقهم ، وحاول الأخيرون الاحتفاظ بما صار إلى أيديهم . كما أن الآباء « المارونيين » حرضوا أهل القرى من أبناء ديانتهم على الثورة على الملاك الدروز — وكانوا أغلبية فى الجنوب — وقد أظهر أولئك الآباء تعصبا ، دل على أن حظهم من الثقافة كان ضئيلا ! .

وبالجملة ، فإنه وجدت أسباب كافية لاستثارة الدروز . فقاموا بمهاجمة المارونيين . واتخذت المهاجمة صوراً عنيفة دامية ، مثلت على فترات .

فكانت الفتنة الأولى فى عام ١٨٤١ . وفيها دخل الدروز « دير القمر » ؛ وارتكبوا فظائع عديدة ، من نهب وسلب وتخريب ، وقتل عدد كبير من

من السكان . ولم تهدأ الحال إلا بعد أن تدخلت جنود الدولة لقمع الفتنة . وقد قرر « الباب العالى » على إثر ذلك عزل آخر أمير من « آل شهاب » ، حيث عين بدلا منه « واليا » عثمانيا . وكان « الباب » يقصد إلى إنهاء الحكم الإقطاعى الذى كان يتمثل فى « آل شهاب » ، فقد لبثوا محتكرين الولاية منذ أواخر القرن السابع عشر . وكان «الباب» العالى يريد أن تتبع «ولاية لبنان» الدولة مباشرة ، تحقيقا لمبدأ المركزية . ولذا فإنه اتبع هذه الخطوة بإجراء آخر ، وهو ضم مقاطعة لبنان إلى « ولاية طرابلس » ، دون أن تكون لها امتيازات .

ولكن « بطريق » الموارنة عارض فى ذلك ، ولجأ إلى الدول طالباً نقض القرار . وقد رحبت الدول بهذه الفرصة للتدخل ، وأخيراً بضغط الدول ، استقر الرأى على إعادة الامتيازات ، وعين لوالى الجبل : « أى لبنان » نائبان — كل منهما يسمى « قائمقام » — أحدهما مارونى والآخر من الدروز ، وكذلك عين فى القرى المختلطة السكان وكيلان ، كل منهما يتبع « القائمقام » الذى هو على مذهبه .

على أن المشكلة لم تحل بهذه الإجراءات . وكان الإنجليز يشجعون الدروز على أن يطلبوا السيادة . والدولة العلية تكره أيضاً أن يكون للمارونيين استقلال ، فتكون لهم دولة داخل الدولة ، على حين أن ولاءهم إنما هو للدول الغربية وفى كل فرصة يطلبون تدخلها . فحدثت إذن الفتنة ، أو قل المذبحة الثانية فى عام ١٨٤٥ . وقد ذهب ضحيتها عدد كبير من الموارنة ، ووقعت اعتداءات على بعض القسس الكاثوليك الفرنسيين ؛ وقتل رئيس أحد الأديرة وبعض الرهبان ، ولكن مما يلاحظ أنه لم يحدث

للمبعوثين الإنجليز والأمريكيين أى أذى . وعلى الفور أرسلت الدولة جيوشها فاحتلت البلاد ، وأعلنت الأحكام العرفية فى كل مناطقها . ثم جرت المخابرات بين الدول ، فانتهى الرأى إلى أن يكون إلى جانب « القائمقام » مجلس مختلط ، تمثل فيه عناصر السكان ، وهو الذى يشرف على الإدارة ، فتكون بذلك مجلسان . كما أنه استمر فى كل قرية مختلطة وكيلان : أحدهما لطائفة الموارنة ، والآخر لطائفة الدروز .

غير أن المسألة كانت أكثر تعقداً وخطورة ، من أن تحل بمثل الاجراءات والتشكيلات الإدارية . فما دام هناك تعصب ناشىء عن الجهل ، وهناك ضغائن موروثة؛ وهناك عقائد خاطئة فى كلا الجانبين؛ وهناك أيضاً الأغراض الاستعمارية المتعارضة ، واستغلال الدين من أجل مقاصد السياسة والاقتصاد — فإن المسألة ما كان يمكن أن تعتبر أنها انتهت ؛ ولذا كان لابد أن يعود البركان إلى الانفجار — بعد هدوئه الظاهرى — إذ كان الجو مشبعاً بروح التعصب الدينى .

فبعد هذا الوقت بعدة سنوات ، حدث الخلاف بين الدول ، الذى أدى إلى حرب «القرم» ، وكان خلافاً دينيا فى أصله ، بين طائفتى الكاثوليك التابعين لفرنسا والأرثوذكس الموالين لروسيا ، كما أوضحنا ذلك من قبل . ثم صدرت « التنظيمات » التى تكلمنا عنها — وذلك فى سنة ١٨٥٦ — فقوت شعور الفرقة ، وأقامت الحواجز بين الطوائف التى تتكون منها الدولة ؛ وأذكت روح التعصب ؛ وكانت عاملا كبيرا فى تهيئة الجو للفتن . ثم أثيرت فتن فى جزيرة « كريد » ، بين المسلمين والمسيحيين. ثم وقع اعتداء فى « جدة » بالحجاز على بعض المسيحيين — وذلك فى عام ١٨٥٨ — فما كان من إنجلترا إلا أن أرسلت أسطولها فظل يطلق مدافعه على « جـدة » ، نحوا من عشرين ساعة . فكل

هذه الأحداث كانت تدل على أن تلك الحقبة من تاريخ الشرق الأوسط كانت مضطربة ؛ وأن العواطف الدينيـة كانت مختلطة بأغراض ودوافع سياسية واستعمارية .

ففى هذا الجو المشحون بالتعصب ، حدث فى أواخر سنة ١٨٥٩ أن هاجم بعض الموارنة الدروز ؛ وقتلوا عددا منهم . فهب هؤلاء للأخذ بثأرهم ، فنتج عن ذلك مجزرة بشرية هائلة ، لم يسبق لها مثيل ، وذلك فى خلال سنة ١٨٦٠. وكانت كبرى المذابح . فقد قتل فيهـا آلاف من الموارنة ، وصحبها التخريب والنهب وارتـكبت الفظائع . وامتدت المعركة أيضا إلى « دمشق » فجرت فيها مذبحة خطيرة أخرى . لـكن فى هذه الأزمة سجل التاريخ للأمير عبد القادر الجزائرى – الذى كان بدمشق إذ ذاك – سجل له أنبل موقف يقفه إنسان تحدوه أسمى العواطف ـ وهو موقف جدير بالمسلم الحق ، الذى يفهم روح دينه ـ فقد بذل كل الجهد لحماية المسيحيين ، وعمل على إخماد الفتنة وتهدئة الحالة ، ممـا دعا حكومة فرنسـا – وهى التى حاربته من قبـل ، سبعة عشر عاماً ، حين كان يدافع عن حرية بلاده « الجزائر » ـ دعاها إلى منحه أرفع وسام للشرف .

هزت هذه المذبحة جميع الدول ، وكادت تؤدى إلى حرب دولية ، لولا أن « الباب العالى » بادر بإرسال أحد دهاة ساسته ، وهو الوزير « فؤاد باشا » ، ومعه جيش كبـير للقضاء على الفتنة . فحين أرادت فرنسـا أن تنتهز الفرصة ، لتحقق مشروعها الذى طالما حلمت به – وهو احتلال لبنان وسوريا – وأرسلت جيشها بالفعل إلى « بيروت » لهذا الغرض، متظاهرة أنها ذاهبة لحماية المسيحيين ـ حين فعلت ذلك وجدت أن تركيا قد سبقتها ، باتخاذ الإجراءات السريعة الصارمة، فقضت على الفتنة ؛ وأعدمت مثيريها وأعادت السكينة إلى ربوع البلاد ؛ فلم يعد

هناك إذن مبرر لبقاء جنود فرنسا بأرض الشام . ولكنها مع ذلك لم تجل إلا بعد نحو عام — أى فى سنة ١٨٦١ .

* * *

ثم كانت نهاية هذه المشكلة أن اتفقت الدول ـ بعد مداولات طويلة جرت فى بيروت والأستانة ـ على أن تتخلى الدولة العلية عن إدارة جبل لبنان مباشرة ؛ وأن تكون للجبل : (أى لبنان) حكومة مستقلة استقلالا ذاتيا ، تحت ضمان الدول ، يكون حاكمها من غير لبنان ، ومسيحيا فى الوقت نفسه . ويكون تعيينه باتفاق الدول؛ ولا يمكن عزله إلا برضاها . على أن تكون هذه الحكومة معترفة بسيادة الدولة العثمانية ـ أى من الوجهة القانونية .

وصدر بهذا النظام قانون عضوى فى عام ١٨٦٤ ، وهو الذى ظلت لبنان الداخلية تحكم بمقتضاه ، حتى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤.وكان أول حاكم عينته الدول للبنان هو « داود أفندى ـ ثم باشا » ـ الذى كان أرمنى الجنس . ثم أقيم إلى جانبه مجلس يشاركه الحكم .

وإذا كانت نهاية هذه المشكلة هى انفصال لبنان ، هكذا — أى من الوجهة العملية - عن الدولة ؛ فقد بات المجال خاليا لفرنسا لنشر نفوذها ، والتدخل فى شئون لبنان ومحاولة استغلال موارده . وتجلى تدخلها بصفة خاصة فى ميدانى الاقتصاد والتعليم ، بما أسست من شركات ، وما فتحت من مدارس. وهكذا أخذت فرنسا منذ ذلك الوقت تبذل الجهد لتصبغ لبنان بصبغة فرنسية ، تمهيداً لاحتلاله حين تحين لها الفرصة .

* * *

على أنه — من ناحية أخرى — كان لهذه الفتنة الكبرى وما سبقها

من اضطرابات ، بعض الآثار أو النتائج الأدبية الجيدة . فإنها حملت كثيراً من أهل لبنان على الهجرة من الجبل إلى « بيروت » — وكانت إذ ذاك مدينة صغيرة — فأخذت أهمية « بيروت » تزداد منذ ذلك الوقت ، وتتحول إلى عاصمة للولاية ؛ وصارت مركزاً هاماً للثقافة . كما هاجر كثير منهم أيضاً إلى أقطار الشرق الأوسط ، وكانوا فى الغالب أدباء على اتصال بالثقافات الغربية ، ودارسين لآداب العرب ، فاشتغلوا فى مهاجرهم الجديدة بالعلم والتأليف والصحافة ، فكان هذا سبباً كبيراً من أسباب النهضة الأدبية والفكرية ، التى حدثت فى الشرق الأوسط — ولا سيما فى مصر — فى خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .

٣ — مصر بعد معاهدة لندن

١٨٤١ — ١٨٨٢

قناة السويس — الديون

١ — قناة السويس :

كانت إنجلترا وفرنسا تتنافسان على النفوذ، فى الدولة العلية والشرق الأوسط.

وقد صار نفوذ « إنجلترا » غالبا فى « الدولة العلية » — كما قررنا ذلك من قبل — منذ تدخلت (أى إنجلترا) فى الحرب بين محمد على والسلطان — مناصرة للأخير على الأول — وتمكنت من عقد « معاهدة لندن » عام ١٨٤١. ولما كانت مصر قد غدت ، بحكم هذه المعاهدة ، ولاية يعترف حكامها بتبعيتهم للدولة العثمانية ، فإن نفوذ إنجلترا صار ظاهرا فيها : (أى فى مصر) ـ أيضا .

وقد اتبع «عباس باشا الأول (١٨٤٨ — ٥٤) سياسة كانت على النقيض من سياسة جده « محمد على » . فقد وثق علاقاته مع الدولة العلية ؛ ولم يحاول أن ينظر إلى نفسه أكثر من أنه « وال » يطيع أوامر « السلطان » . كما وثق علائقه أيضا مع ممثلى « بريطانيا ». وكان لمستر « مرى » — القنصل الإنجليزى تأثير كبير عليه . فتضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده .

لذا كان من أوائل الأعمال ، التى نفذها فى ولايته ، فتح الطريق وتعبيده بين « القاهرة » و « السويس » ، لتسهيل المواصلات : من وإلى « الهند » ، فيمكن نقل البريد والموظفين والتجار ، بسرعة ، بين الهند وإنجلترا . ثم أتم

الخط ، بأن نفذ مشروع مد « السكة الحديدية » مابين « الإسكندرية » ، و « القاهرة » فشرع فى هذا العمل فى عام ١٨٥٢ . وعهد بتنفيذه إلى المهندس « روبرت ستيفنسون » — بمعاونة مهندسين مصريين . فوصل الخط فى عهده إلى كفر الزيات» ؛ ثم أتم فى عهد « سعيدباشا » إلى«القاهرة» ، فى عام ١٨٥٦

وكان هذا أول خط حديدى أنشىء فى الشرق — بل من أوائل الخطوط التى مدت فى العالم .وهذا يدل على اهتمام « الإنجليز » بتسهيل المواصلات إلى امبراطوريتهم فى الهند. وبذلك صار الطريق مفتوحا من الإسكندرية إلى القاهرة إلى السويس ، ثم إلى الهند فالشرق الأقصى . وأغنى هذا الطريق عن فتح القناة ، مدة من الزمن .

* * *

على أن نفوذ فرنسا ، فى ناحية الثقافة ، ظل مستمرا . فأكثر البعثات كانت ترسل إليها . والكتب المدرسية وغيرها تنقل عن لغتها والمدارس التى فتحتها فى الشرق بقيت تؤدى مهمتها . ثم أخذ نفوذها فى الازدياد فى عهد « الامبراطور نابليون الثالث » : (١٨٥٢ — ٧٠) الذى كان يسعى لإعادة مجد دولته «فرنسا» .

وأتيحت لها فرصة عظيمة،حين تولى «سعيد باشا» الحكم(١٨٥٤ — ٦٣) خلفا « لعباس الأول ».فقد كان سعيد صديقا شخصيا لفرديناند « دليسبس» : ابن المسيو « ماتيو ـ دليسبس » الذى كان ـ أى الأخير ـ قنصلا لفرنسا فى القاهرة فى عهد محمد على . وما كاد «سعيد » يبدأ عهده ، حتى حضر إليه صديقه « فرديناند » وعرض عليه ـ وهو مرافق له فى رحلة قام بها سعيد ، فى الطريق الصحراوى بين الإسكندرية والقاهرة ـ عرض عليه مشروعه ، الذى كان فرديناند يفكر فيه منذ بضع سنوات ، ألا وهو حفر قناة توصل بين البحرين :

الأبيض والأحمر . وكان « عباس باشا » ، من قبل ، قد رفض هذا المشروع. فلم يتردد « سعيد » فى الموافقة . وعهد إلى صديقه « فرديناند » بوضع الشروط ، كما يختارها . بل قيل إن « سعيد » وقع وثيقة التنازل دون أن يقرأها !

على هذه الصورة العاجلة تم منح فرنسا « امتياز القناة » ، فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، الذى تأكد بمقدفى آخر عام ١٨٥٦ .

وبالرغم من أن إنجلترا عارضت المشروع بكل قوة ؛ إذ أنها كانت تخشى على طريق مواصلاتها إلى الهند . وقد قال عنه « بالمرستون » رئيس وزرائها : « مهما تكن الفوائد التى تجنى من هذا المشروع، فان هذا البسفور الثانى قد يكون مصدر متاعب سياسية خطيرة » ! – على الرغم من هذه المعارضة، ومن ضغطها على الباب العالى لكى لا يوافق عليه ؛ فإن العمل بدىء فى هذا المشروع فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ . وقد حشد له حينئذ آلاف العمال من المصريين، بطريق السخرة، فحفر عمال مصر القناة بسواعدهم ؛ وأنفقت مصر معظم النفقات التى تطلبها المشروع ، وتنازلت عن أرضها – كأنما كان كل ذلك لكى تجنى فرنسا ثمراته ، وكذلك الدول الأوربية الأخرى ؛ ثم تكون هذه الخدمة الكبرى التى قدمتها مصر إلى العالم سببا فى أن تفقد حريتها نفسها ، بل كاد أن يقضى عليها !

واحتفل بافتتاح القناة احتفالا فخما ، حضره ملوك أوروبا ، وذلك فى عام ١٨٦٩ . وجعل امتياز « شركة القناة » ٩٩ عاما ، منذ تاريخ الافتتاح .

وكان المتوقع أن يصل نفوذ فرنسا فى الشرق ، بعد نجاح هذا المشروع ، إلى أوجه . ولكن حدث تطور خطير فى الموقف الدولى فى العام التالى : وهو ١٨٧٠ : إذ هزمت فرنسا أمام ألمانيا هزيمة منكرة فى حرب السبعين المشهورة. فبذلك فقدت مكانتها ، كدولة فى الصف الأول . وقضت سنوات وهى مشغولة

بشئونها الداخلية ، وفى خوف من ألمانيا الجديدة و « بسمارك » . وحينئذ صار المجال خالياً أمام إنجلترا للاستعمار ، ولتسير قدماً لتحقيق أهدافها بدون منافس. وكانت قبل ذلك الوقت بمدة سنوات : أى بعد وفاة « بالمرستون » فى سنة ١٨٦٥ ، قد غيرت نظرتها إلى مشروع القناة واقتنعت بفوائده . وفكرت أن الأولى لها أن تعمل على أن تسيطر عليه ، بدلا من أن تعارضه .

وقد أتاح لها الخديوى « إسماعيل » — بارتباكاته المالية وسوء تدبيره — أتاح لها أعظم الفرص ؛ فعرض فى الأسواق نصيب مصر من أسهم القناة — وكانت حصة مصر تبلغ ٤٤ ٪ من مجموع الأسهم — فبادر رئيس وزراء إنجلترا « درزائيلى » فى ذلك الوقت — وهو يهودى الأصل — إلى اقتناص هذا الطائر السانح ! واشترى أسهم مصر كلها بأبخس الأثمان . ثم أخذت إنجلترا تعد العدة وتهيىء الظروف لغزو مصر .

وكان هذا هو الطريق إلى احتلال مصر بعد بضعة أعوام ، وبداية مأساتها المليئة بالآلام والضحايا ، التى استمرت بعد ذلك سبعين عاما . ولا نزال نعانى آثارها إلى اليوم .

* * *

٢ — الديون :

كان تعهد « سعيد باشا » بتنفيذ مشروع القناة ـ وفقاً للاشتراطات المجحفة ، التى وضعها ممثل فرنسا « دليسبس » — كان هو بدء الارتباكات المالية التى وقعت فيها مصر . فبسبب هذا — إلى جانب إسراف القصر — لم يمت « سعيد » حتى ترك دينا قدره ٠٠٠و١٦٠و١١ من الجنيهات . وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة النقد فى ذلك الوقت ، وبالنسبة إلى موارد مصر .

فكان هذا أساس الديون الفادحة ، التى اقترضها خلفه وابن أخيه « إسماعيل باشا » (١٨٦٣ — ٧٩) ، الذى فاق عمه فى النزعة إلى الإسراف، بل التبديد إلى حد البله ، وفى حبه للتظاهر — زيادة على عدم فهمه للمعاملات المالية الحديثة . فكان فريسة سهلة للمرابين والنصابين ، من الأوربيين واليهود.

فمن أجل الإنفاق على قناة السويس ، وعلى الاحتفال الرسمى بفتحها ، بكل مظاهر البذخ — إلى جانب نفقاته الشخصية ؛ وأيضاً لما تطلبه تنفيذ بعض المشروعات العمرانية النافعة — وإن كانت هذه نسبتها فى الواقع غير كبيرة — من أجل هذا كله ، حمل نفسه ثم بلده بأعباء باهظة من الديون ، كانت سبب انهيار حكومتها واضطراب أمرها ؛ وسبب اضطهاد الفلاح ، والطريق إلى الشقاء بل الاستعباد ، لأنها كانت باب التدخل الأوربى ، الذى كانت نهايته الاحتلال، وفقد شخصية مصر .

ففى عام ١٨٦٤ استدان « إسماعيل » من بنك « فرهلنج - جوشن » - وهو بيت يهودى بريطانى — أول قرض له ؛ وكان مقداره ٠٠٠و٧٠٠و٥ جنيه ، وذلك ليدفع التعويضات التى حكم عليه بها « نابليون الثالث » لشركة القنال .

واستسهل - أى إسماعيل - الطريق بعد ذلك .

ففى عام ١٨٦٦ توجه إلى نفس البنك أيضاً فاقترض ٠٠٠و٠٠٠و٣ من الجنيهات .

وفى سنة ١٨٦٧ ذهب إلى « بنك أوبنهايم » — وهو مثل البيت الأول — فاستدان ٠٠٠و٩٠٠و١١ ، ولكنه لم يتسلمها بعد خصم الفوائد إلا ٠٠٠و٢٠٠و٧ — فقط .

وفى عام ١٨٧٠ استلف من بنك « بشوفشين » سبعة ملايين لم يتسلمها أيضاً إلا خمسة - نقداً .

ثم فى عام ١٨٧٣ عقد صفقة - مرة أخرى - مع « بنك أوبنهايم » فكان الدين المحسوب عليه يبلغ ٣٢ مليون من الجنيهات ؛ ولكن الذى وصل إلى جيبه - بالفعل - ٢٠ مليوناً ، لا غير . وضاعت الملايين الباقية فى الفوائد !

وهكذا استمر « إسماعيل » فى الاستدانة ، حتى وصلت ديونه فى عام ١٨٧٥ إلى ٠٠٠و٠٠٠و٩١ جنيهاً . ولم يستطع دفع الفوائد التى وجبت عليه ؛ إذ كان ينقصه لذلك أربعة ملايين ، فعرض حينئذ أسهم مصر فى القناة - كما ذكرنا من قبل - لبيعها فى أسواق أوروبا . فتلقفها المالى البارع « دزرائيلى » رئيس وزارة انجلترا وزعيم المحافظين ، وأسرع الى شرائها ، عن طريق (بيت روتشلد) - حتى قبل أن ينال موافقة مجلس العموم - وذلك بأربعة ملايين فقط ؛ على حين أن قيمتها بلغت بعد ذلك نحو أربعين مليوناً ، وأما قيمتها السياسية فكانت لا تقدر . فقدم هذه الصفقة النادرة ، التى ظل الإنجليز - بعد ذلك - يتحدثون بها فى (أفلامهم) هدية الى ملكته (فكتوريا) . فما كان أجلها من هدية ! ولقد علق المستشار الألمانى (بسمارك) على هذه الصفقة بقوله : (إن اليهودى قد اشترى قناة السويس) ! وكان حقاً ما قال . فإن انجلترا اشترت بعدها مصر كلها والسودان ، لمدة طالت سبعين عاماً .

وفى عام ١٨٧٦ أعلن الخديوى إسماعيل إفلاس حكومته . وكانت الديون قد بلغت مائة مليون من الجنيهات - عدا « فوائدها » . فما كان من الدول إلا أن تدخلت للإشراف على مالية البلاد . فأنشأت « صندوق الدين » . ثم

كانت المراقبة الثنائية من إنجلترا وفرنسا ؛ وذلك في عام ١٨٧٦ ثم ألفت وزارة كان رئيسها نوبار باشا — الأرمني الجنسية في الأصل — وكان وزير المالية فيها إنجليزيا ، ووزير الأشغال فرنسيا . وقررت الوزارة إنقاص عدد الجيش من ٨٠ ألفا إلى ١١ ألفاً . وأحيل ألفان من الضباط إلى الاستيداع . فكان هذا بدء التذمر ؛ وثار بعض الضباط بالاتفاق مع إسماعيل فأسقطوا الوزارة .

وأخيراً ، طلبت الدول من الباب العالي عزل إسماعيل ؛ فعزل بتلغراف أرسل إليه من الأستانة ؛ ولم يملك إلا أن يغادر البلاد فرحل إلى إيطاليا، وذلك في يونيه عام ١٨٧٩

وهكذا سارت الأمور إلى التدهور ؛ وصار توفيق ووزراؤه خاضعين للأجانب ، ووصلت البلاد إلى شفا الهوة . فكان هذا كله هو الممهد «للثورة العرابية» التي ثار فيها الجيش المصري باسم الشعب ومحتجا على المفاسد وعلى مساوىء الحكم الأخرى . ولكن الكلمة — نهائيا — كانت لمؤامرة بيوت المال الأوروبية اليهودية ، تؤيدها الأساطيل والمدافع !

فكان ختام المأساة كلها الاحتلال (١٨٨٢) : احتلال البريطانيين لمصر ! .

جمال الدين الأفغانى

عصره ودعوته

سواء أصح الحديث ، أم لم يصح ، الذى ورد فيه الإخبار بأن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ؛ فليس من شأننا أن نبحث هذا الموضوع ، ونحن نتركه لرجال الحديث — سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن من الثابت عندنا ـ أى من وجهة النظر التاريخية ـ وهى حقيقة قد أصبح التسليم بها عاماً أو شبه عام — أنه فى السنوات التى أحاطت بملتقى المائتين : الثالثة عشرة والرابعة عشرة من التاريخ الهجرى ، ظهرت فى أفق العالم الإسلامى شخصية فذة قديرة ، كان لها — بما بذلت من جهد ، وألقت من تعاليم ، وبثت من روح — مثل هذا الأثر : فى أنها جددت للأمة أمر دينها ، وأحيت ماخمد من عزائمها ، وأعادت إليها ثقتها بنفسها : تلك هى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى : العالم الفيلسوف الصوفى السياسى ، المجاهد ، المربى والزعيم .

لسنا نريد هنا أن نسرد التفاصيل التى احتوت عليها حياته ، ولا أن نكتب تاريخاً جامعاً له . فهذا ليس من أهداف هذا الفصل .

ولكننا نريد فقط أن نشير إلى الحقائق البارزة فى حياته تلك ؛ ونعنى بصفة خاصة بأمرين : الطبيعة السياسية العامة للعصر الذى عاش فيه ، والمبادىء التى

تكونت منها دعوته . وفى ضوء هذا كله يتسنى لنا أن نحدد مكانته فى التاريخ الإسلامى الحديث .

* * *

ولد السيد جمال الدين — كما اتفقت على ذلك روايات من ترجموا له — فى عام ١٢٥٤ هـ (الموافق : ١٨٣٩ م) بقرية أسعد أباد ، على مقربة من « كابل » عاصمة أفغانستان ، من بيت علم وفضل ينتهى نسبه إلى الإمام الترمذى المحدث المشهور ، وفى عشيرة قوية تعتز بمكانتها وجاهها ؛ ولذا كان الساسة والأمراء يخطبون ودها أو يضطهدونها . وعنى والده بتربيته وتثقيفه ، فتلقى فى « كابل » — وذلك بعد أن انتقلت إليها أسرته — كل علوم الثقافة الإسلامية من فقه ، وتصوف ، وحكمة ، وكلام ، وآداب ، ودرس اللغة العربية أيضاً ، ثم درس بالهند أيضاً الرياضيات ، وجانباً من العلوم الحديثة . ولم يكن المهم أنه درس تلك العلوم ، فكم من الناس درسها غيره . ولكن الله سبحانه وهبه مواهب خاصة ، فكان جمال الدين فى الحقيقة « عبقرية » من العبقريات النادرة ، التى لا تظهر إلا قليلا فى التاريخ . ومن أهم ما ساعد على إنضاج هذه العبقرية ، وإبلاغها حد الإثمار ، تربيته الصوفية . وإلى هذه التربية يرجع كثير من الأسرار التى تميزت بها حياة جمال الدين ، وقوة تأثيره ونجاح مجهوداته ، وعظم نفع الأعمال التى قام بها . بل إن هذه الصوفية الصادقة المخلصة السامية هى المفتاح الأول لشخصيته — بالرغم من غلبة الناحية السياسية أو العلمية عليه . وقد غفل أكثر المؤرخين عن الاهتداء إلى هذا السر أو التنويه به .

اشتغل جمال الدين بالسياسة منذ كان شاباً فى العقد الثالث من العمر ، واضطلع بمهام كبيرة فى الدولة . فبعد تقلده بعض الوظائف فى الحكومة ،

اتصل بالأمير « محمد أعظم » ابن أمير الأفغان الكبير « دوست محمد خان » . وكانت سياسة الأفغان فى أواسط القرن الماضى سياسة نشيطة ، كثيرة التقلبات حافلة بالأحداث ، نتيجة نشاط السياسات الاستعمارية وما يصحبها من الدسائس التى كانت تديرها الدولتان المتنافستان : إنجلترا التى كانت تملك إمبراطورية الهند شرقى أفغانستان ، وروسيا القيصرية ، التى كانت تواصل الزحف والاستيلاء على الأقطار الإسلامية فى أواسط آسيا .

وقد نجحت الدسائس فى أن فرقت بين أولاد الأمير محمد خان . فعقب وفاته انقسموا وانقسمت البلاد معهم شيعاً وأحزاباً ، ووقعت بينهم الحروب . ورأى جمال الدين أن يؤيد « محمد أعظم » ، ووثق هذا به ، فجعله وزيراً له أو وزيره الأول ، واعتمد على نصائحه واشتركا معاً فى تدبير الأمور . فاكتسب بذلك جمال الدين — وهو لايزال شاباً يافعاً — خبرة عملية ؛ وأتيحت له الفرصة ليطلع على حقيقة نوايا الاستعمار الأوروبى وخباياه ، وتآمره على إضعاف قوى البلاد الإسلامية تمهيداً لتدميرها ، مما كان له أبلغ الأثر فى تكوين آرائه وتحديد اتجاهاته ؛ وإثارة وجدانه . ثم انتهت الحوادث بأن تغلب أحد أبناء الأمير — وهو « شير على» — الذى كان مؤيداً من الإنجليز وممداً بأموالهم — على أخيه الأمير « محمد أعظم » ، فزالت دولته . وحينئذ اضطر جمال الدين إلى مغادرة بلاده — ربما على كره منه ؛ ولم يكن مقدراً له أن يعود إليها مرة أخرى — ولكن هذه الهجرة كانت خيراً وبركة على العالم الإسلامى كله ، كما سيأتى لنا بيانه .

* * *

كان هذا العصر الذى عاش فيه جمال الدين عصر «ازدهار الاستعمار»

— أودعنا نسمه ، كما سماه أحد علماء الإسلام المعاصرين : إغارة أوربا على العالم الإسلامى .

فكانت إنجترا قد أتمت استعمارها للهند ، وبعد الثورة الكبرى عام ١٨٥٨ ، أعلنت إنجلترا ضمها إلى أملاكها ، وأخذت تديرها إدارة مباشرة : وبذلك أصبح تحت حكمها ولايات تسكنها أغلبية من المسلمين . وكانت الأفغان مسرحاً للدسائس التى ألحنا إليها . وكذلك إيران التى كانت روسيا وإنجلترا تتصارعان — طوال القرن الماضى — على التدخل فى شئونها ، ووضع اليد على مواردها . وأما مصر فقد كان التنافس الاستعمارى فيها قائما بين إنجلترا وفرنسا — كما بيناه من قبل — وكان والى مصر « إسماعيل » يسوق البلاد سوقا إلى الخراب . فقد باع مواردها ثمنا للربا وأغرقها بالديون ، وأسلم رقبتها إلى المرابين ليذبحوها ويسلخوها ، كما يشاءون . هذا بينما كانت الدولة العثمانية قد خضعت خضوعاً تاماً للدول المستعمرة ، وبعد عقد معاهدة باريس ١٨٥٦ ، التى انتهت بها حرب القرم ، أصبحت تلك الدولة كأنها تحت حماية إنجلترا ، وصار سفير إنجلترا فى الأستانة كأنه الحاكم الفعلى للدولة العلية ، وما يتبعها من ولايات .

* * *

ولم تكن الكارثة الكبرى هى مجرد استغلال هذه الدول الأوربية لموارد البلاد الإسلامية ، أو تمكنهم من بسط نفوذهم السياسى أو الثقافى ؛ بل كانت الكارثة العظمى هى أن روحاً من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسرى بين الشعوب الإسلامية . وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق ، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين ، وتقليدهم فى أساليب حياتهم — دون

نظر إلى ما كان منها صالحا ، أو فاسدا — وكان هذا كله مؤديا ، أو سيؤدى لامحالة ، إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه ، أو زعزعة ثقته بمبادئه وثقافته. وإذ كان الناس على دين ملوكهم ، فقد كان هناك أيضاً عاملان فى الشرق على رأس هذه الدعوة ، بل كانا يبذلان كل جهد فى سبيل إقناع الناس بها ، ويضحيان بالأموال ليروجا لها ، هما : السلطان عبد العزيز ، خليفة آل عثمان ، فى تركيا (١٨٦١ — ١٨٧٤) والخديوى إسماعيل حفيد محمد على ، فى مصر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ، فقد كان كل منهما مفتوناً بأوروبا ، مغرماً بما شاهده من المظاهر المادية ، مدفوعاً إلى تقاليد الغربيين فى فنون عبثهم ولهوهم ، حتى جهر الأخير — وهو يشعر بالزهو والافتخار — أن « مصر قطعة من أوروبا » ، وكان هذا هو المبدأ الذى عمـــل له ، كما عمل شبيهه العثمانى ؛ وإن كانت أوروبا لاترضى — نظراً لما كانت عليه حاله وحال حكومته من تأخر — إلا بأن يكون ذيلا لها — إن قبلت — لاقطعة منها .

فى هذا الجو ، وفى هذا العصر ، نشأ جمال الدين وقد طوف بأرجاء البلاد فى الشرق والغرب ، وشاهد ودرس ، واطلع بنفسه على حقائق الأمور ، وأحس بهذه الاتجاهات وعرف هذه الدعوات . فأدرك إذن مدى الخطر الذى كان يتهدد العالم الإسلامى ، وسبر عمق الهوى التى كان يدفعه إليها قادته المفتونون وزعماؤه الجهلة ، ليتردى فيها ، فتتحطم قواه المعنوية تحطما لا يرجى لها إصلاح بعده . كان هذا هو مفترق الطريق فى حياة العالم الإسلامى ، والأزمة الدقيقة الخطيرة الأثر فى تاريخه . وقد شاءت العناية الإلهية أن يوجد جمال الدين فى ذلك الوقت ، ليؤدى رسالة اختارها له القدر ، من أنبل الرسالات التى قام بها المصلحون وقادة الشعوب، فى المراحل الحرجة من تاريخ حياة أممهم. وهذه الرسالة تتلخص فى إيقاف الشعوب من الوقوع فى الهوى التى يراد لها أن تتردى فيها ،

ومقاومة التيارات والتأثيرات الضارة التى من شأنها أن تؤدى إلى التهلكة ، ورفع الغشاوة عن أبصارها وهدايتها إلى سبل الرشاد . فهذا كله يؤدى إلى عرفانها نفسها ، ورد الثقة إليها فى قدرتها وإمكانياتها ، وإحياء آمالها وتجديد إيمانها بمستقبلها ومثلها. وهذه هى الأهداف التى عمل لها جمال الدين ، ووقف عليها وقته وجهوده ، وضحى ، بكل شىء حتى حياته ، فى سبيل تحقيقها .

* * *

نظر جمال الدين ، فوجد أن سبب البلاء وأصل العلة أمران : الاستعمار الأوروبى ، والاستبداد السياسى .

وكان يرى فى وقته أن وسائل إنجلترا فى محاربة الشعوب الإسلامية هى أخطر الوسائل؛ ولذا عدها العدو الأول .

ومن أكبر مايمهد للاستعمار ويزيد من قوته ، ويوجد عوامل بقائه ، شعور الإعجاب به ، والوصول إلى الاعتقاد الخاطىء بأن تفوق أهله يرجع إلى مزية طبيعية فيهم ، مع اقتصار النظر على المحاسن الظاهرة ، دون معرفة ما تنطوى عليه من مساوىء وشرور باطنة ، والغفلة فى نفس الوقت عما كانت عليه الحال فى العصور السالفة .

أما استبداد الملوك والولاة بشعوبهم فهو آفة الآفات ، التى نتج عنها الخطر الأول . فلولا حرمان الشعوب من استعمال حقوقها ، وإبعادها عن الاشتراك فى السياسة . ولولا استمرار استغلالها وتسخيرها ، والرضا ببقائها فى الجهل ، وسوقها سوق العبيد ، وقسرها على أن تحيا حياة تفضى إلى سقم الجسم والروح ــ لولا ذلك كله ــ وهو نتيجة سياسة الحكام والأمراء المستأثرين بالسلطة ــ لما أمكن للشعوب فى بلاد الإسلام أن تصبح فريسة للطامعين والمعتدين من أهل أوربا .

وكان « السيد » ينظر إلى ما آل إليه حال العالم الإسلامى ، وما كان عليه

حاله من قبل من عزة ومنعة ، وما ساهم به فى بناء الحضارة وتقدم الإنسانية ، بمجهوداته فى ميادين العلم والعمران ، فتثور نفسه ويهيج خاطره ، ويدعو العقول إلى أن تنيقظ والمشاعر أن تتحرك ، ويهيب بالأيدى أن تعمل ، والجماعات أن تتحرر .

وقد وجد جمال الدين أن طرق الإصلاح هى : رفع المستوى الفكرى والروحى لهذه الشعوب ، بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة ، واغترافها من منابعها الأولى . فكان يدعو إلى إحياء العلوم الإسلامية والتجديد فيها . وكان درسه بمصر وفى غيرها من البلاد نموذجاً عملياً لما يمكن أن يسار عليه فى فهمها ، وعرضها فى ثوب قشيب يتفق مع روح العصر . وقد حمل عنه هذه الطريقة الشيخ محمد عبده وغيره ، فكان لأعمالهم وتوجيهاتهم العلمية أنفع الأثر .

وكانت القاعدة التى تقوم عليها الطريقة الاجتهاد وتحكيم العقل ، لا التقليد . أما الطريق الآخر للإصلاح فهو تحرير الشعوب من الاستبداد ، ورفع نير الظلم عنها ، إلى أن تصل إلى التمتع بحقوقها السياسية ، وتصير لها الإرادة العليا فى تصريف شئونها وتقرير مصائرها . وفى سبيل ذلك ، كان يعمد السيد دائماً إلى إثارة الشعوب وتنبيه الأقوام إلى حقوقهم ، بالأحاديث والخطب ، كما نصح رجال الصحف بأن يكتبوا المقالات ، ويحاولوا الإجادة فيها على أحسن ما تقتضيه الأساليب والقواعد العربية ، فأدى هذا أيضاً إلى البدء فى إيجاد نهضة لغوية .

وكان فى مقدمة الأهداف التى بذل جمال الدين كل جهده لتحقيقها العمل على توحيد الشعوب الإسلامية ، أو إيجاد جامعة تلم شملها ، حتى يمكن أن تصبح جبهة قوية أمام أعدائها .

وكان يرى أن مما يقرب إلى هذه الغاية أن تنهض دولة إسلامية واحدة ، وتنمو قوتها ، ثم تمد يدها إلى سائر الدول الإسلامية ، فتحقق نهضة الدول الباقية أيضاً . وقد عمل من أجل ذلك فى مصر ، ثم فى إيران ، ثم فى تركيا .

ولم يحتج جمال الدين،فى اهتدائه إلى طرق الإصلاح هذه - أى فيما يتعلق بالنواحى السياسية — لم يحتج إلى أن ينقلها عن زعماء أوروبا ، ولا عن رجال « الثورة الفرنسية » ولا غيرهم ؛ ولكنه اقتبسها من الإسلام نفسه ومن ثقافته وروحه . فالإسلام يشتمل — فيما يشتمل — على أسمى المبادىء التى تتكون منها الديمقراطية ، وضمن فى شرائعه — فيما ضمن — الحقوق السياسية للإنسان، ودعا إلى الحياة الإجتماعية الرفيعة الفاضلة . وذلك كله قبل أن تصل أوروبا إلى معرفة هذه المبادىء بمئات السنين . ولم يكن مصدر إلهامه غير القرآن والسنة وأعمال سلف الأمة . ولكن جهل الشعوب الإسلامية بمبادىء دينها وحقائقه — أو على الأقل عجزها عن تنفيذ هذه المبادىء — هو الذى أدى بها إلى أن تصبح ذليلة ، وتترك مصالحها ومصائرها فى أيدى حكام غشمة متجبرين لا ضمير لهم ، يعبثون بها كما يشاء أهواؤهم ، ويضيعونها .

* * *

لبث السيد جمال الدين يدعو طوال حياته إلى تلك المبادىء . وقد طوف بأقطار كثيرة فى الشرق والغرب ؛ فصار شخصية عالمية . فكان قد ذهب إلى الحجاز فى مطلع حياته لأداء فريضة الحج . وحين غادر بلاده توجه أولا إلى الهند ، ثم إلى مصر فترة قصيرة . ثم ذهب إلى الأستانة فأوقع به هناك الجامدون . فعاد إلى مصر ولبث بها هذه المرة سنوات (١٨٧١ ـ ٧٩) . وبعد أن أخرج منها رجع إلى الهند . ثم زار بعد ذلك أوروبا : فزار انجلترا وفرنسا وروسيا

وفى أثناء ذلك توجه إلى فارس مرتين ، بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وأخيراً أغراه السلطان عبد الحميد بالذهاب الى الأستانة ؛ فبقى بها شبه أسير حتى اختاره الله الى جواره ، فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ .

لكن لعل أهم فترة فى حياته كانت تلك التى قضاها فى مصر . فهناك وجد تربة خصبة ولقى نفوساً مهيأة لدعوته؛ وكانت الأحوال السيئة والظروف البائسة التى أوجدها حكم « إسماعيل » ، ومن سبقه من أفراد أسرته ، قد كونت فى نفوس أهالى البلاد عوامل ثورة . ولكنها كانت فى كونها تحتاج إلى الموقظ والقائد والموجه . فوجدت ذلك فى شخص السيد جمال الدين حينما نزل بمصر ؛ وكفى أنه كان من بين تلاميذه الشيخ محمد عبده وعبدالله النديم وسامى البارودى وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان ، وغيرهم. ولذا فإنه كون مدرسة أو جيلا ، كانوا هم الطليعة من بناة مصر الحديثة المجاهدة ، من أجل الحرية والنهضة على أسس إسلامية . وما زال أثرهم متصلا إلى اليوم .

كما أثمرت تعاليمه أيضاً فى إيران ، فبث فيها من الروح مثل ما بث من قبل فى مصر . وكانت ثورته وحملته العنيفة على الشاه هى المقدمة التى مهدت إلى الثورة الدستورية التى قام بها أهل تلك البلاد فى عام ١٩٠٦ ، ثم أدت فيما بعد إلى خلع أسرة « قاجار » ، التى كانت تحكم الإيرانيين منذ أواخر القرن الثامن عشر .

كانت قوة جمال الدين فى شخصيته ، التى كانت أظهر الصفات التى تتميز بها : حدة الذكاء إلى مرتبة العبقرية ، وسعة الأفق، ونقاء الوجدان وحساسية الشعور ؛ وفى طاقته الروحية الكبيرة المستمدة من صوفيته ، التى كانت سريعة التأثير فى كل من يتصل به ، وتمكنه من التغلب على مخالطيه ، وتجذب إليه القلوب

وكان جمال الدين متأثراً بالإمام الغزالى ، يعتبر نفسه أحد تلاميذه فى نزعته الصوفية العملية — كما كانت قوته تصدر أيضاً عن إيمانه بمبادئه . وثقته بنفسه واعتداده بها ، إلى حد أنه كان يعتبر نفسه كفاء الشاه ناصر الدين أو السلطان عبد الحميد ، حينما يحدثهما ؛ بل أكبر منهما أيضاً . وأيد هذا كله جنان جرىء ، وفهم عميق للثقافة الإسلامية ، ويقين ثابت فى مستقبل الإسلام .

* * *

ولا نرى فى ختام هذا الحديث عنه أوفق من أن نقتبس بعض ما قال عنه بعض المؤرخين الغربيين الذين درسوه بروح خالية من التحيز ، وبعض الأقوال التى أثرت عنه ، والتى تعبر بلسانه عن بعض مبادئه .

فقد قال الأستاذ « براون » : « إن جمال الدين كان فيلسوفا كاتباً خطيباً صحفياً ؛ وفوق ذلك كان سياسياً . . . وكان له أثر بالغ فى النزعات الثورية ، التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحكومات الإسلامية . وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبى ، وإلى ترقية شئونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة . كما كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية ـ ومنها إيران الشيعية ـ لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربى بشأنها » .

ويقول « لوثرب ستودارد » — وهو كاتب أمريكى — : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور ، كما كانت فى قلب « بطرس الناسك » ؛ ولم يزل التعصب كامناً فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة » .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه ؛ ليستطيع الذود عن كيانه » .

ومما قال السيد جمال الدين نفسه : إذا لم يبن تقدمنا وتمدينيا على قواعد ديننا وقرآننا فلاخير فيه ؛ ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر » .

وقال أيضاً — فيما روى عنه : « ما نراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التقهقر ؛ لأننا فى تمدننا مقلدون للأمم الأوربية . وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن طويل أن نخنع للذل والسلطة الأجنبية ، أو تتبدل صبغة الدين الإسلامى ، الذى من شأنه رفع راية السلطة والتغلب ، إلى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة » .

ولقد عبر الشيخ محمد عبده عن مدى تأثير أستاذه الروحى ، فقال : « لقد أعطانى والدى حياة يشاركنى فيها على ومحروس . أما السيد جمال الدين فقد أعطانى حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، صلوات الله عليهم ، والأولياء والقديسين » .

وبعد ؛ فإن جمال الدين كان لا يرى أن الإسلام عبادة فقط ؛ ولكنه عبادة وقيادة ، وعلم وسياسة ، وعمل وإصلاح ، وقانون وأخلاق . ولا تزال لتعاليمه هذه جدة ؛ ولا يزال كثير من نظراته صادقة . وما أحوجنا إلى اتباعه والاقتداء بتلك الروح .

ثورة الجيش الأولى :

أو

الثورة القومية الدستورية

بزعامة القائد : أحمد عرابى

كانت الأحوال كلها تدعو إلى الثورة فى أواخر حكم« إسماعيل »وأوائل عهد « توفيق » .

وهذه الثورة — التى عرفت فى التاريخ باسم . « الثورة العرابية» (١٨٨٠ ١٨٨٢) — كانت هى الثورة الثانية التى حدثت فى مصر منذ ثورة عام ١٨٠٥، أى أنه مضى ما بين الثورتين ٧٥ عاما . كانت كبرى نتائج الثورة الأولى أنها أدت إلى إقامة أسرة « محمـد على » ؛ وكانت الثورة الثانية ضد بعض أبناء « محمد على » : كانت ثورة ضد استبداد هذه الأسرة وسوء حكمها ، وكذلك ضد استبداد العناصر الدخيلة التى احتضنتها هذه الأسرة ، ولم ترد أن تندمج فى القومية المصرية ، وثورة كذلك ضد التدخل الأجنبى ، الذى كان المقدمة للاستعمار ، فهى كانت إذن ثورة وطنية قومية . ولما كان ممثلوها من طبقة « الفلاح » ، كانت أيضاً ثورة شعبية ضـد « أرستقراطية » العناصر غير الأصيلة . وإذ كان فى مقدمة مطالبها إيجاد الحياة النيابية وحكم البلاد بواسطة مجلس يمثل الأمة ، فقد كانت كذلك ثورة دستورية .

ولقد قام بها الجيش ، فكانت ثورة الجيش الأولى فى تاريخ مصر ،وأول

ثورة من نوعها فى تاريخ الشرق العربى فى العصر الحديث ، ولكنها ظفرت بالتأييد الشعبى من أغلبية الرأى العام ؛ ولذا فإنها كانت تعبيراً صادقاً عن شعور الأمة وإرادتها فى وقتها ؛ وذلك من حيث الأهداف العامة، وإن وجد هناك خلاف حول بعض الوسائل ، والمدى الذى يمكن أن تصل إليه الثورة .

* * *

ولكى نفهم فهما حقيقيا يجب أن نعود إلى ثورة ١٨٠٥ ، التى لم تحقق الغرض البعيد الذى قامت من أجله ، حتى نعرف حقيقة التحول التاريخى ، أو الانحراف الذى حدث حينئذ ، وطبيعة حكم الأسرة التى قامت نتيجة لتطور الأحداث إذ ذاك .

فإن زعماء مصر فى ذلك الوقت إنما كانوا يهدفون من وراء مبايعتهم ، لـ « محمد على » أن يبدأوا حقبة جديدة فى حياة البلاد ، إذ كانوا يريدون أن يحققوا لمصر استقلالها الذاتى ،وأن يقيموا نوعا من الحكم أشبه بالحكم النيابى حيث يشعر الولاة أنهم وكلاء الشعب ويعملون من أجل مصالحه . وقد طلبوا من الحكومة الجديدة أن تضع حدا للمظالم التى عرفت بها عهود العثمانيين والمماليك ،وأن تتعهد بأن تلتزم أحكام الشريعة الإسلامية فى سياستها . ولكن الوالى الجديد — أى محمد على — الذى مكنوه من أن يجنى ثمرات الثورات المتعاقبة التى قامت بها الأمة ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، لم يف بالمواثيق التى أخذت عليه ؛ ولم يحقق هذه الأغراض . لأنه — كما بينا من قبل — لم يكن إلا واليا « عثمانيا » ، ولم يكن رجلا مثاليا ، وإنما الذى كان يرمى له منذ البداية أن يتخذ من إرادة الأمة أداة تمكنه من الوصول إلى الحكم ؛ وأن يؤسس « دولة » يحكمها هو فى حياته ، ثم يورثها لذريته من بعده .

لذا عمد « محمد على » — بعد قليل — إلى إقصاء الزعامة الشعبية ، ثم القضاء عليها . وحكم البلاد حكما مطلقا . ثم جعل همه أن يحول مصر إلى « إقطاعية » كبرى ، تعود خيراتها إليه وإلى أسرته ؛ ولم يكن ينظر إلا مصر إلا على أنها هذه « المزرعة » ، التى ساقها القدر بين يديه ، وإلى المصريين إلا على أنهم « الفلاحون » : أى طبقة الأجراء والعمال التى كتب عليها أن تظل مسخرة لحساب السادة العثمانيين وأمثالهم . فكانت نتيجة ذلك أنه بدلا من أن يضع ثقته فى أبناء البلاد ، وضع ثقته فى بنى جنسه من الألبان — أو « الأرنؤود » ، كما كانوا يسمون فى ذلك الوقت . ثم لما فكروا فى التمرد عليه كون جيشه من السودانيين والمصريين ، ولكنه حرص كل الحرص على أن يجعل الرؤساء والضباط من الأرنؤود ، ومن أبناء المماليك والأتراك من جنسيات مختلفة ، كما وضع ثقته أيضاً فى الأجانب ، وبخاصة الفرنسيين ، حتى تحول إلى أن أصبح أداة فى يد السياسة الفرنسية .

فهذه — إذن — هى العقلية التى أورثها محمد على لأحفاده من بعده . وقد نجح هو إلى حد كبير فى إضعاف الروح المعنوية ، إن لم يكن القضاء عليها ، وعود الشعب على الذل ، وكاد أن يجرده من كل نزعة إلى المقاومة . وسار خلفاؤه على نفس السياسة ؛ فكان على مصر أن تنتظر نحو ثلاثة أرباع قرن ، حتى تستطيع أن ترفع صوتها ثانية ، ويتكون بها «وعى» جديد ، وتهب لتعلن إرادتها ، وتشهر سيفها فى وجه الطغاة والظالمين .

* * *

فكانت الثورة الثانية إذن التى تلت الثورة الأولى — فى خلال القرن التاسع عشر — هى تلك التى نشبت فى أواخر عهد « إسماعيل » .

ولم يكن « إسماعيل » إلا بمثابة الوارث المستهتر المسرف المتلاف ، الذى ورث — من غير جهد — ضيعة عن جده ؛ وورث عنـــه فى نفس الوقت طبيعته وعقليته . فلم يكن له من هم إلا أن يتمتع بثمار تلك الضيعة ، ما شاءت له غرائزه وأهواؤه أن يتمتع ، ويبدد منها من غير حساب للعواقب ما تملى عليه شهواته أو مطامعه أن يبدد ، وهو لا ينظر أيضاً ، فى نفس الوقت ، لأبناء مصر إلا على أنهم أجراؤه أوعبيده . ويضع ثقته — مثل جده — فى الأجانب والفرنسيين ، وفى أبناء الأرنؤود والمماليك والعثمانيين — الذين أصبح يطلق عليهم كلهم فى ذلك الوقت — بلا تمييز — : أسماء « الأتراك والشراكسة » ! !

كان إسماعيل حاكما مطلقاً ، لا تحد إرادته بأى قيد ، كما كان هو الرأس الأكبر لدولة « الإقطاع » . وكانت عقليته فى حكم مصر هى عقلية القرون الوسطى — بالرغم من المظاهر الكاذبة والأشكال الزائفة التى اجتلبها من أوربا اجتلابا ، مقلداً فيها للأوربيين ، غير مدرك لروحها ، وغير شاعر أن ليس فيها غناء كبير لأمة مضطهدة مستغلة ، تحكم بالسوط «الكرباج» والسخرة — ولم يكن يدرى أن ملوك أوربا وكبارهم كانوا يسخرون منه ، حينما دعاهم ليملن لهم عظمته الجوفاء ، عند الاحتفال بافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) الذى أنفق عليه الأموال الطائلة من دماء الشعب ومن دموعه ! فكانت السنوات العشر الأخيرة من حكمه من أسوأ العهود التى مرت بها مصر فى حياتها الطويلة ، وقاسى أبناؤها فيها من العذاب والتنكيل والحرمان ما لا يمكن أن يقارن به إلا الصفحات السوداء من عهود الهمجية الأولى .

فتح إسماعيل مصر على مصراعيها للأجانب ، وأحاط نفسه بالمرابين . وجعل قاعدة تعامله « الربا » ، حتى أغرق مصر بالديون التى لم تستطع أن تتخلص منها إلا بعد أعوام عديدة ، وبعد أن دفعت ثمنا لها استقلالها وحريتها . وكان رئيس وزرائه فى أكثر سنى حكمه هو « نوبار باشا » .
ومن هو « نوبار » هذا ؟ إن هو إلا رجل أرمنى مسيحى لا يعرف التكلم باللغة العربية . فاعجب لرئيس وزراء مصر البلد العربية المسلمة ، وهو غير مصرى ، وغير عربى ، وغير مسلم ؟ ! ولذا فإنه لم يكن إلا وكيلا للأجانب ، وممهداً للاستعمار ، وهو الذى أوجد « المحاكم المختلطة » ، وهو الذى أسس « المحاكم الأهلية » بعد ذلك ، مدخلا نظم الفرنسيين ، ومحلا قانون نابليون محل شريعة الإسلام العادلة .

أعلنت حكومة إسماعيل إفلاسها فى عام ١٨٧٦ ، وكانت قبل ذلك بعام قد باعت أسهم مصر فى قناة السويس إلى رئيس وزراء إنجلترا « اليهودى » دزرائيلى ، بثمن بخس — كما أوضحنا ظروفه فى مناسبات سابقة — وخضع إسماعيل لنفوذ الأوربيين ، ووضع رقبته تحت سكينهم ، ولكنه وضع رقبة البلاد معه أيضاً ! فأنشىء « صندوق الدين » ، ثم فرضت «الرقابة الثنائية» على موارد البلاد ، ثم بلغت الكارثة ذروتها بتعيين وزيرين أوروبيين : أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى فى وزارة مصر ، التى كان يرأسها « نوبار باشا » الأرمنى أيضاً ، وذلك فى سنة ١٨٧٨ .

وفى نفس الوقت ، وبالرغم من حالة الذل والإفلاس هذه التى كان يعانيها ، فإنه زج بمصر فى حرب عادت عليها بأبلغ الضرر ، وهى « حرب الحبشة » ؛ فأظهرت ضعف الحكام ، وفساد الإدارة ، وخيانة الرؤساء ..

فما كان منها إلا أن ولدت السخط ، ونشرت روح التذمر وخلقت الثورة .
وكان كبار ضباط الجيش وقادته من متعصبي الأتراك والشراكسة الذين يجمعون بين الغطرسة والجهل ، وكانوا أصفياء إسماعيل والمقربين إليه ، لأنه يعتبرهم من جنسه ، ولا يزال أبناء البلاد منبوذين عن حظوته وعن نيل الرتب العليا .

* * *

كانت هذه الأسباب كلها هى العوامل العامة ، التى أدت إلى قيام تلك الثورة التى قادها وحمل لواءها « أحمد عرابى » ، والتى عرفت بعد ذلك باسمه . ولم يكن « عرابى » إلا فلاحاً مصرياً مسلماً ، ولد فى قرية « هرية رزنة » ، إحدى ضواحى مدينة « الزقازيق » بمديرية الشرقية ، وقد تلقى العلم أولا على يد والده الذى كان أحد رجال الدين ، ثم حضر هو فى الأزهر بضع سنوات ، فدرس بعض العلوم الشرعية العربية . وكان من عائلة صالحة اشتهرت بتقواها ، وتابع هو دراساته لكتاب الله وأحاديث رسوله ، فاغترف من تلك المناهل ما قوى روحه المعنوية ، وما أمده بالشجاعة العظيمة التى لا تتولد إلا من الإيمان وبذلك أصبح مؤهلا لأن يحتل مكان الزعامة .

وقد ساءه ما وجده من تلك الأحوال التى تثير الأسى ، وتلك المظالم التى كانت ترتكب فى عهد « إسماعيل » ، ثم فى عهد ابنه « محمد توفيق »

— الذى اعتلى العرش بعد أن تمكن الأوربيون من عزل أبيه فى عام ١٨٧٩ — ولم يكن الابن خيراً من الأب — وأحزنه بصفة خاصة ما شاهده من تعصب الأتراك والشركس ، واحتكارهم لمراكز السيادة ، وللمراتب العالية فى الجيش

والوظائف الكبيرة ، على حين ينظر إلى المصرى نظرة الاحتقار ويهان فى بلده — وكان عرابى نفسه قد صار مثلا من أمثلة هذا الذل والاضطهاد ؛ فقد بقى تسعة عشر عاماً لم يرق فيها إلى رتبة أرقى من رتبته ، التى كان عليها حين تولى إسماعيل حكم البلاد — لحز كل ذلك الظلم فى نفسه . ثم وجد الأجانب قد أصبحوا الآمرين الناهين فى البلاد بالفعل ؛ وقد وضعوا أيديهم على مواردها وأشرفوا على إدارتها .

وكانت البلاد قد سرت فيها روح وطنية قوية ، مستمدة من الروح الإسلامية الحية الخالصة ، التى عمل على نشرها المصلح الإسلامى الكبير : السيد « جمال الدين الأفغانى » ، الذى هاجر إلى مصر فى عام ١٨٧١ وبقى فيها إلى سنة ١٨٧٩ ، حين نفاه « توفيق » فى ظروف أثارت الشعور العام ، ولكن بعد أن ترك بها تلاميذه ومريديه ، الذين أشربوا روحه وفهموا دعوته . فكان منهم « عبد الله النديم » و « سامى البارودى » و « عبد السلام المويلحى » وغيرهم ممن أيدوا ثورة الأمة من أجل الحرية والدستور .

* * *

لقد عهد « توفيق » بالحكم ، بعد ولايته بقليل ، إلى « مصطفى رياض باشا » ، فمكث رئيساً للوزارة عامين : من سبتمبر ١٨٧٩ إلى سبتمبر ١٨٨١ . وكان رياض على شاكلة توفيق : رجعياً وذا نزعة أتوقراطية ، فحكم البلاد حكما استبدادياً ، وكان لا يراها أهلا للتمتع بحكم نيابى . وجعل وزير حربيته شركسياً ، من أشد أبناء الشركس تعصبا لبنى جنسه ، جامداً ضيق الأفق ، هو « عثمان رفقى باشا » فجعل هذا قيادة الجيش فى أيدى الشراكسة ، واضطهد الوطنيين ، ومهد لفصل بعض المصريين القلائل الذين كانوا قد وصلوا إلى بعض الرتب

المالية ، ومنهم عبد العال حلمى وعلى فهمى ، اللذين كانا زميلى أحمد عرابى ، واللذين عاوناه بعد فى حمل لواء الثورة . وكان كل من رياض وتوفيق مستسلما لحكم الأجانب ، يعمل لإرضائهم ، بل يسعى إلى التقرب منهم ، بل لم يكن يفكر فى أن يخالف لهم أمراً . فكأن البـــلاد كانت إذن محتلة بالفعل احتلالا حقيقياً ، وإن لم تكن الجيوش قد قدمت بعد إلى البلاد ، ولم تضرب الإسكندرية بالقنابل ! .

* * *

كانت «الثورة العرابية» إذن ثورة على الاستبداد ، والطغيان والاحتلال . ولقد أجمع رجال الجيش ، بعد ما شعروا بهذا الظلم على أنفسهم وعلى أمتهم — أجمعوا على أن يتحدوا إرادات الجبابرة ، ويتقدموا بصراحة بمطالبهم إلى ولاة الأمر . فكان أن قدموا عريضتهم إلى « رياض » فى شهر يناير ١٨٨١ ، مطالبين بالإصلاح . ولكن الحاكمين أخذتهم العزة بالإثم . فقرروا قمع الحركة فى بدئها بالشدة . واعتقل عرابى وزملاؤه بسجن قصر النيل ، تمهيداً لمحاكمتهم والتخلص منهم . لكن فرقا من الجيش الباسل حضرت ، فاقتحمت السجن وحررت الأبطال ، فقذف الرعب فى قلوب الطغاة ، وسقط فى أيديهم وأذعنوا صاغرين . فعزلوا « رفقى » نفسه ، وعين بدلا منه « محمود سامى البارودى » ؛ ولكنهم عادوا بعد قليل إلى مكرهم ، وعينوا بدلا منه « داود يكن باشا » ، الذى كان مثال الجهل والحماقة .

شعر قادة الجيش بأن حياتهم فى خطر ، فحينئذ قرروا هذا الحشد التاريخى فى ساحة عابدين ، فى يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ؛ حيث طالب أحمد عرابى الخديوى توفيق رأساً بطلبات الجيش والأمة ؛ وفى مقدمتها إسقاط وزارة رياض ،

وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المعين فى القوانين . ثم صاح فى وجهه تلك الصيحة التى دوت وجلجلت فى أجواء الزمان ، وسمعتها الأجيال ، ألا وهى : « نحن لسنا عبيداً ولا نورث بعد اليوم » !!

إلى هـذا الحد نجحت الثورة ، فقد أسقطت الوزارة ، وألف « شريف باشا » — الذى طالب به الرأى العام — الوزارة التالية ، فأجاب مطالب الجيش ، وشرع فى وضع دستور للبلاد . وتم وضع هـذا الدستور ؛ وافتتح مجلس النواب بالفعل فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .

ولـكن الدول الأوربية الطامعة — يحالفها ويؤيدها « توفيق » حفيد محمد على — وحواشيه — ما كانت لترضى أن يقـام فى البلاد حـكم صالح ، أو أن تظهر إرادة الشعب ، أو يسمح لمصر بالحياة والتقدم ؛ فأسرعوا إلى تدبير المؤامرات ؛ وتدخلت الدولتان : إنجلترا وفرنسا ، فأرسلتا مذكرة فى ٧ يناير ١٨٨٢ تعلنان فيها تأييدهما للخديوى وحماية عرشه ، وتعلنان غضبهما على قيـام الحـكم النيابى ، واعتراضهما على حق مجلس النواب فى النظر فى الميزانية .

اضطر شريف إلى الاستقالة ، فألف البارودى وزارته التى لبثت من فبراير إلى مايو ١٨٨٢ ؛ والتى عين فيها أحمد عرابى ناظراً للحربية . وقد أثبت مجلس النواب كفاءته ، ونجح فى إصدار عدة تشريعات هامة لصالح البلاد . وكان يمـكن أن تصبح مصر عندئذ دولة ديموقراطية راقية ، وأن تسعى إلى غايات التقدم بخطى واسعة ، وتصير من أقوى الدول فى الشرق الأوسط ، وتحتل مكانها بين دول العالم .

ولـكن هل كان يرضى الاستعمار بذلك ؛ وهو مؤيد من الخونة داخل

البلاد ، ومن الخارج بالأساطيل التى حشدها فى مياه العاصمة الثانية ؟ . وهل كان « عرابى » يستطيع أن يقاوم كل هذه القوى الاستعمارية والرجعية التى كانت متألبة على وطنه ، أو يوقف هذا السيل الجارف الذى مهد له الطريق من قبل ؟ .

إن هـذه الجناية التى ارتـكبتها « انجلترا » بضربها « الإسكندرية » بقنابل أسطولها فى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ ، على إثر عراك دبره وكلاؤها ، بسبب خلاف بين « مالطى » من رعاياها وسائق عربة وتدميرها للمدينة وإحراقها ، سعياً الى العدوان على استقلال البلاد واحتلالها — لجريمة يندر أن يـكون لها نظير فى التاريخ ، فى وحشيتها وفظاعتها . وإنها لتدل على أن انجلترا عدوة « الديموقراطية » خارج بلادها ، وهى جريمة لن تنساها أجيال المصريين ، وإن الأبدان لتقشعر من هول ذكراها ، ويندى لهـا جبين ما يسمونه الحضارة الغربية الحديثة و « القانون الدولى » خجلا ! ! .

الإمام محمد عبده ومنهجه

تحدثنا فى فصل سابق عن « السيد جمال الدين الأفغانى » . وإذا أردنا أن نجمل أهدافه قلنا إنه كان يدعو ويعمل لإيجاد نهضة إسلامية شاملة ، تنقذ الشرق الإسلامى مما انتابه من حالة الركود والضعف ، وتحرره من نير الأجانب ، وتمكنه من أن يستعيد قوته .

ولقد كان فى مقدمة من تلقوا الرسالة عن « جمال الدين » الشيخ « محمد عبده » ، الذى قال عنه السيد « جمال الدين » نفسه ، عند رحيله من مصر : « تركت لكم الشيخ محمد عبده ؛ وكفى به فى مصر عالما » . فالحديث عن جمال الدين يستتبع حتما الحديث عن محمد عبده ؛ فهو الذى حمل اللواء بعده وواصل دعوته ، وأكمل منهاجه .

غير أن الحقيقة العامة التى يجب أن تقرر ، أولا ، هى أنه إذا كانت أهداف الرجلين الكبيرين واحدة ، فإن الشيخ محمد عبده — بعد أن استقل بوضع الخطة لنفسه ، وذلك بعد أن عركته الأحداث — اتخذ لبلوغ الإصلاح طريقاً يختلف فى الأسلوب عن طريق السيد جمال الدين ؛ وهذا النهج هو الذى جعل لمحمد عبده طابعه الخاص الذى عرف به فيما بعد ، وهو الذى به يتحدد مكانه فى تاريخ نهضة الشرق الحديث .

ذلك أن السيد جمال الدين اختار للوصول إلى أهدافه طريق « الثورة

السياسية » . وكان جهاده أكثره عملياً ، فلم يتفرغ لأبحاث نظرية ، وإنما أوجد مدرسة من الرجال وبث روحا، على حين أن الشيخ محمد عبده رأى أن يسلك طريقاً آخر : فبدلا من الثورة السياسية ، التي يبدو أنه آمن هو بها أيضاً في عهد شبابه ، واشترك فيها إلى حد ما ، رأى بعد ذلك – ولا سيما بعد الأحداث التي أدت إلى الاحتلال – أن يوجه جهوده إلى الإصلاح الديني والنهضة الثقافية والاجتماعية .

وكان « محمد عبده » يرى أن الثورة السياسية لا تنجح حقاً إلا إذا كانت الأمة قد بلغت درجة عالية من الوعي الثقافي ، وإلا إذا كان فكرها ووجدانها قد بلغا من النضج قدراً يجعلها تدرك المبادىء بوضوح ، وتؤمن بها ، وتثبت عليها وتتحمل الأهوال في سبيلها . فمن هنا اختلفت طريقتا أو وسيلتا المصلحين ، مع أن الغايات واحدة ؛ وكان هذا تابعاً لاختلاف مزاجي الرجلين الكبيرين . لكن كان كل من المنهجين خيراً للعالم الإسلامي ، ومحققاً لأهدافه في التقدم . فإذا قيل إن السيد « جمال الدين » قد أحيا الروح ، فإنه يمكن القول بأن الإمام « محمد عبده » أحيا أو أيقظ العقل . وكان لا بد للنهضة الإسلامية الحديثة من وجود العقل والروح معاً ، ليتآزرا ويتعاونا ؛ ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

* * *

هذه هي الفكرة العامة عن منهج الشيخ « محمد عبده » ، الذي عرف به في التاريخ . أما فيما يتعلق بحياته فلا نقصد أن نورد وقائعها بالتفصيل ؛ وإنما يكفي أن نذكر أهم الحقائق عنها ، لكي تكون الصورة واضحة عن شخصية الرجل ، والظروف التي عاش فيها ، والتي كون فيها أفكاره .

فأول هذه الحقائق أن حياته وقعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ حيث إنه ولد قبيل منتصف ذلك القرن . ثم عاش حتى شهد مطلع القرن العشرين ؛

إذ توفى عام ١٩٠٥ . وأهم الحقائق فى دور نشأته أنه كان هناك رجلان ، أو شخصيتان ، كان لهما أكبر الأثر فى توجيه حياته وتكوين نفسيته : هذان هما : السيد « درويش خضر » أحد أخواله : ذلك الرجل الصوفى الملهم ، الذى كان على جانب من الثقافة ؛ فإنه هو الذى حبب إليه العلم وشجعه على المضى فى التعليم فى الأزهر ، وهداه إلى سلوك الطريق الصوفى . وأما الثانى فهو السيد « جمال الدين الأفغانى » ، الذى أوقد الجذوة المقدسة فى صدر محمد عبده ، وعرفه بنفسه ، وبين له طريق البحث والنظر ، وأورثه رسالة الإصلاح . وقد سبق أن اقتبسنا ما قاله الشيخ محمد عبده عن أثر جمال الدين فى تكوينه ، حيث قال إن الحياة التى أعطاها إياها والده هى حياة شاركه فيها أخواه ، اللذان يعملان فى الريف ؛ أما الحياة التى أعطاها له السيد جمال الدين فهى حياة جملته يشارك فيها الأنبياء — صلوات الله عليهم . وهو يقصد بذلك الحياة الروحية ، والمستوى الإنسانى السامى ، الذى يبلغه الإنسان إذا أخلص فى دينه واهتدى بهدى الأنبياء — عليهم صلوات الله .

وقد تلقى الشيخ محمد عبده تعليمه العام فى الأزهر ، حيث تخرج فى عام ١٨٧٧ . ثم اشتغل بتدريس التاريخ الإسلامى وفلسفة الاجتماع فى دار العلوم . كما عمل بالصحافة . واشترك ، إلى حد ما ، فى الثورة الوطنية ، وهى التى عرفت باسم « العرابية » . وبعد انتهائها حكم عليه بالنفى ، فتوجه إلى « بيروت » . ثم استدعاه السيد جمال الدين إلى باريس ، حيث تعاونا فى تحرير جريدة « العروة الوثقى » ، التى كانت حرباً على المستعمرين وكان لها أثر عميق فى العالم العربى والإسلامى .

ثم عاد إلى « بيروت » فاشتغل ثانية بالعلم ؛ وهناك أملى رسالته فى

(علم التوحيد) ، التى جمعها ودونها بعد ذلك فى مصر .

وكانت عودته إلى وطنه مصر فى سنة ١٨٨٨ ، حيث بقى إلى حيث أدركه الأجل ، بعد سبعة عشر عاما « أى إلى سنة ١٩٠٥ . وهذه المرحلة الأخيرة من حياته هى التى كانت أكثر خصبا ؛ وهى التى شعر فيها بالاستقرار ؛ وظهر فيها طابعه ، وغزر إنتاجه ، ووضحت رسالته ومنهجه فى الإصلاح .

فى هذا الدور تولى عدة مناصب : فتولى مناصب القضاء ، ثم الإفتاء ، وعضوية مجلس إدارة الأزهر ، ومجلس الأوقاف ، ومجلس شورى القوانين ، وفى كل هذه المناصب كان يرسم خطة الإصلاح ويعمل لتنفيذها ، فترك فى كل من هذه الوظائف التى تقلدها أثرا نافعاً . كما أنه كان فى مقدمة المصلحين الاجتماعيين ، فدعا إلى تأليف منظمات البر ، وتأسيس الجمعيات الخيرية ، وبعض الجمعيات التى تعمل لنشر الثقافة العربية وإحيائها ، ونقل الثقافة الحديثة .

فهذا هو مجمل الحقائق الهامة فى حياة الشيخ محمد عبده .

* * *

فاذا أردنا بعد ذلك أن نحدد مكانته فى تاريخ النهضة الدينية والفكرية فى العالم الاسلامى الحديث ، قلنا إن مكانة « محمد عبده » أو فضله هى أنه حطم أو بدأ تحطيم قيود التقاليد ، وحرر العقل من إسارة . وعمل على التوفيق بين الدين والعقل . وبذلك أوجد حركة فلسفية جديدة . وفى وقت واحد أعاد للعقل مكانته كما جعل أساس الدين ، قويا هذا على أنه لم يغفل شأن الوجدان أو العاطفة الدينية ولم يقلل من أثرها ، فنادى بأن يكون هناك توازن بين الفكر والوجدان .

وفى كل ذلك كان « محمد عبده » مجدداً وإماما ، ومن هنا استحق وصفه . ذلك لأن المستوى العلمى فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى كان قد انخفض

فى خلال القرن الماضى إلى درجة مخيفة ؛ فأصبحت كل غاية التعليم دراسة ألفاظ وعبارات اصطلاحية ، والعكوف على كتب معينة هى موجزات فى العلوم من تأليف المتأخرين ، فنسيت كتب المتقدمين وأصبح النقل والحفظ هو عمدة التعليم . وكاد أن يصير النظر الفردى بالفكر المستقل محرما ؛ وكل فكرة جديدة ينظر إليها على أنها بدعة ، وكل اختراع يحسب أنه مخالف للإسلام . وهكذا لو استمر الحال كذلك ، لوصل الإسلام إلى وضع يكون فيه متخالفا مع المدنية الحديثة ومع نتائج التقدم العلمى والفلسفة العصرية ، ولا تسمت على مر الزمن مسافة الخلف بين الجانبين .

ولكن الإمام « محمد عبده » — ثم من تبعه من تلاميذه العديدين فى مصر وسوريا — كانوا فى مقدمة من أنقذوا الإسلام من مثل هذا الموقف ، حيث أدركوا روح الإسلام الحقة ، وفهموا فلسفته وحكمته العالية ، وعرفوا مزاياه الذاتية وفضائله التى تتجاوز حدود الزمان والمكان ، ثم عرضوا كل ذلك فى الأسلوب الحديث الذى يفهمه العقل ويؤيده ، والذى يلائم روح العصر . ومن أجل هذا وصف محمد عبده بأنه رائد الفكر الدينى الحديث ، وبأنه مؤسس المدرسة الحديثة ، وبأنه مجدد وفيلسوف ومصلح . وكل هذه أوصاف حق . وقد كون محمد عبده مدرسة من المفكرين ساروا على نهجه ؛ وكان لهم أثر كبير فى تطور الفكر فى مصر وسورية بخاصة ، وفى العالم الإسلامى كله ، بعامة .

تجلى منهج « محمد عبده » هذا فى « تفسيره » ، أولا ، هذا التفسير العلمى المحكم للقرآن الكريم ، الذى كتب هو بعضه مباشرة بقلمه ، وروى عنه أكثره تلميذه ، وحامل لوائه بعده ، السيد « محمد رشيد رضا » . ففى هذا

التفسير تتبين عبقرية الإمام محمد عبده ، وذ كاؤه النفاذ ، وعلمه الغزير بالعلوم القديمة والحديثة ، وبلاغته ومنطقه . كما يتجلى منهجه أيضا فى رسالته القيمة « رسالة التوحيد » ، وهى التى تدرس إلى اليوم فى كليات ومعاهد مصر والهند وغيرهما ، والتى تجدر أن تجعلها المعاهد الإسلامية عمدة دراساتها لأصول الدين ويتجلى المنهج كذلك فى المقالات الكثيرة التى نشرها « الإمام » فى الصحف والمجلات، والتى أثبتها ونشرها تلميذه « السيد رشيد رضا » فى « الجزء الثانى » من التاريخ الكبير الذى ألفه وأسماه : « تاريخ الإمام محمد عبده » .

ولكى تتضح الطبيعة العامة لهذا النهج الجديد ، نرى أن نقتبس بعض أقوال « الإمام » محمد عبده نفسه ، التى اشتملت عليها رسالته فى التوحيد ، لأنها تبين الدعوة التى عمل جهده لنشرها .

فمن ذلك قوله :

« جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة. وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم . لكن لم يطلب التسليم لمجرد أنه جاء بحكايته ؛ ولكنه أقام الدعوى وبرهن . وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة . وخاطب العقل واستنهض الفكر. وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين . »

ثم قال : « وتآخى العقل ، والدين لأول مرة ، فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل . »

ومما قاله أيضا : « أنحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر؛ فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ».

ثم قال — متحدثا عن الإسلام — : « صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ... علا صوت الإسلام على وساوس الطغاة ؛ وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام . ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام : أعلام الكون ودلائل الحوادث . وإنما المعلمون منبهون ومرشدون ، وإلى طريق البحث هادون . »

« فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع فى ذلك لله وحده ، والوقوف عند شريعته . »

وختم قائلا : « بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ؛ وهما : استقلال الإرادة ، واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت إنسانيته ؛ واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها . »

وليس أبلغ من هذا فى التعبير عن فلسفة « محمد عبده » ، وتوضيح طبيعة الإسلام .

في أوائل القرن العشرين :

الشرق الأوسط فى دور انتقال

الدولة العثمانية :

كانت « الدولة العثمانية » فى أول القرن الحالى « العشرين » لاتزال حقيقة واقعة . بل إنها كانت كبرى الحقائق فى حياة الشرق الأوسط الإسلامى. وكانت حقيقة رائعة أيضاً — فى للظهر على الأقل — بالنسبة إلى سائر شعوب العالم .

كان حكمها لايزال يشمل أرجاء واسعة : فكان يتبعها إقليم « الشام » ـ هكذا كان فى الغالب يدعى باسمه التاريخى ، الدال على الوحدة ـ وذلك منذ أن تغلب على دولة المماليك السلطان « سليم الأول » فى عام ٩٢٢ هـ (الموافق ١٥١٦ م) . فظل الشام نحو أربعة قرون يتلقى ولاته أوامره من « الأستانة » وكان ينقسم إداريا إلى ثلاث ولايات : (١) حلب ، (٢) فدمشق — وهى الولاية الكبرى ، ويتبعها ما يسمى الآن « شرق الأردن » — (٣) فبيروت ، (وإلى جوارها منطقة لبنان ، مستقلة استقلالا ذاتيا منذ أواخر القرن التاسع عشر) . يضاف إلى ذلك لواء « القدس » ، وهو الذى يشرف على الجزء الأكبر من فلسطين .

وكان يتبع الدولة العثمانية أيضا إقليم « العراق » . وذلك منذ أن فتح بغداد ، وتغلب على الأسرة الصفوية الفارسية ، السلطان « سليمان القانونى »

عام ١٥٣٤ م . وكان العراق فى بعض العصور ينقسم إلى ولايات : (١) الموصل، (٢) فبغداد ، (٣) فالبصرة ، و (٤) شهر زور . وتمكن المماليك المجلوبون من مقاطعة « جورجيا » من الاستئثار بالحكم فى العراق نحو قرن ، ولكن السلطان محمود الثانى ، فى عام ١٨٣٠ ، أرسل جيشا منظما فقضى على دولتهم ، واسترد العراق . فمنذ ذلك الوقت صار العراق يحكم حكما مباشراً ، وأخذ يفد عليه الولاة أو الباشوات من الأستانة ، واحداً إثر الآخر ؛ لايذكر العراق منهم اليوم غير « أحمد مدحت باشا » الذى استطاع فى فترة ثلاث سنوات أن يدخل إصلاحات هامة عديدة ، وأخذ بيد العراق فنقله من الظلام إلى العصر الحديث. ومع ذلك فقد بقى العراق متأخراً متخلفا عن ركب المدنية حتى مطالع القرن الحالى ، لأن حياته الاقتصادية بقيت خاضعة لإقطاع زراعى متحكم ، يتمثل فى سلطة رؤساء « العشائر » ، ولا تزال هذه من المشكلات السياسية والاجتماعية الكبرى فى العراق .

وكان يتبع الدولة العلية أيضا ، حتى بدء الحرب العالمية الأولى ، إقليم « الحجاز » ؛ وإن كان « أشراف مكة » — وهم أسرة علوية ترتفع بنسبها إلى الحسن بن على — قد استأثروا منذ قرون بالحكم فيه ، فصار وراثيا بينهم . ولعهد قليل انتزعه « آل سعود » منهم ، حين كونوا دولتهم بنجد وجزيرة العرب ، فى مطالع القرن التاسع عشر . ثم استرده « الأشراف » ثانية ، وبقوا حاكمين الحجاز إلى عهد «الشريف حسين» ، وابنه «على» فى القرن العشرين — وهما آخر من حكم الحجاز من هذه الأسرة .

وفى أوائل القرن الحالى ، كان « آل الرشيد » فى نجد — حيث كانت

دولة آل سعود قد تقوضت لعهد قصير — يدينون بالولاء للخليفة العثمانى .
كما كان يتبع الدولة أيضا إقليم « الأحساء » ، الذى ضمه مدحت باشا إلى العراق في أثناء ولايته ، وإمارات أخرى صغيرة فى شبه الجزيرة .

وكانت طرابلس — وهى ليبيا — لاتزال تابعة أيضا للدولة العلية ، وخالية من النفوذ الأجنبى ، إذ لم تكن ايطاليا قد أغارت عليها بعد .

أما مصر — هذه الوحدة الكبرى فى الشرق الأوسط — فبالرغم من أن الاحتلال الإنجليزى كان قد دهمها ، نتيجة لعجز وضعف وخيانة الأسرة التى كانت تحكمها ؛ وكانت كل جهودها موجهة لمكافحة هذا الاحتلال ، فإنها كانت تشعر أيضاً أنها مرتبطة برباط عاطفى وثيق بالخلافة ، وكانت لا تزال مؤمنة بالوحدة التاريخية الروحية ؛ كما كانت لا تزال — من الناحية القانونية الشرعية — متصلة بالدولة العثمانية ، وفقا لشروط معاهدة « لندن » المعقودة عام ١٨٤١ ، إذ أن الاحتلال الذى جاء بعد ذلك لم يكن شرعيا ، ولم يكن له أى سند ، بل كان مجرد اغتصاب ، وعدوان غاشم سافر .

جمعية الاتحاد واعلان الدستور :

هكذا كان السلطان « عبد الحميد » (١٨٧٦ — ١٩٠٩) — الذى خلف ثلاثين من آبائه تعاقبوا على العرش — لا يزال فى مطالع القرن العشرين يحكم دولة ، بل امبراطورية مترامية الأطراف . كان بلاطه فى « يلدز » لايزال يمثل الأبهة والفخامة التى كان يمثلها بلاط الخلفاء العباسيين أو السلاطين السلجوقيين . وينظم الشعراء المعلقات الفريدة ، وتدرج الصحف المقالات الطويلة فى مدحه . ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ عن ثقة — اللهم إلا إذا كان السياسى المحنك أو مؤرخ المطلع يستطيع أن يفعل ذلك — بأن نهاية هذا

السلطان ، ثم خاتمة تلك الدولة ، ستكون قريبة . ولكن العوامل فى الحقيقة كانت تتجمع ، وكانت الأسباب تتكاثر ، التى كان من شأنها أنها — بعد بضع سنوات فقط من بدء القرن الحالى — أدت إلى إسقاط السلطان ؛ وظلت الأمور تتغير وتتطور ، حتى استقرت إلى غايتها بإلغاء الدولة كلها ، وظهر فى تركيا نظام جديد . كما تكونت نظم ووجدت ظروف جديدة فى حياة أقطار هذا الشرق الأوسط ، التى ذكرنا طرفا من تاريخها آنفا .

كانت الأداة القوية التى أدت إلى هذا الانتقال والتغيير ، جمعية نشأت صغيرة أولا ، ثم أخذت تنمو ويتكاثر عدد أفرادها . تكونت فى المنفى بعيدة عن أرض السلطان ، فى باريس أو غيرها من عواصم أوروبا ؛ ثم أخذت مبادؤها تتسرب ويشعر بنفوذها داخل المملكة وينضم إليها كثير من أفراد الشعب . ولكن تأثيرها الأكبر ومركز قوتها كان بين أوساط الجيش ؛ فاعتنق مبادئها عدد كبير من الضباط الأحرار . وإذ شعرت بقوتها أخذت تضع الخطط وتعد عدتها لإحداث انقلاب تاريخى ، تتخلص الدولة على أثره من السلطان الاستبدادى لآل عثمان ، ويهيأ الجو لإيجاد حياة دستورية سليمة تستطيع الأمة عن طريقها أن تعبر عن رغباتها وتنفذ إرادتها . كانت هذه الجمعية فرعا أو وليدا لجماعة « تركيا الفتاة » التى أسسها الرجل الحر الثائر « مدحت باشا » . وقد مات هذا الرجل ، أو اغتيل بالسم ، منفيا بالطائف عام ١٨٨٣ . ولكن مبادئه ظلت حية فى صدور أتباعه ومريديه . فلم تمض إلا سنوات قليلة ، ظهرت فيها الآثار السيئة لحكم عبد الحميد جلية أمام أعين الأمة ، حتى هب الأحرار من أبناء تركيا يسعون لتدارك الحال ؛ فكان من أثر تلك الجهود تكوين « جمعية الاتحاد والترقى » ؛ وهى هذه الجمعية

التى كتب لها فى التاريخ أن تحدث هذا الأثر الهائل فى تاريخ تركيا والخلافة ، ثم فى تاريخ الشرق الأوسط بأكمله ، بل فى تاريخ العالم .

أحكمت « جمعية الاتحاد والترقى » خططها ، وحزمت أمرها ؛ وقامت بثورتها فى خلال شهر يوليو من عام ١٩٠٨ . بدأت فى مدينة « سلونيك » بمقدونيا ، وأخذ جيشها يزحف نحو العاصمة ؛ فانضمت إليه فرق الجيش ، وسلمت إليه الحملات التى أرسلها عبد الحميد لقمعها . وهكذا نجحت الثورة وأسقط فى يد عبد الحميد ، فلم يستطع إلا الإذعان وأعلن أنه مستعد لإجابة طلبات الأمة . وقرر فتح البرلمان الذى أغلقه ، وإعادة الدستور الذى ألغاه ، يوم أن نفى زعيم الأحرار فى تركيا « مدحت باشا » — وكان ذلك قبل ثلاثين عاما . واستولى زعماء الحركة ، وفى طليعتهم أنوربك ونيازى بك وشوكت بك ، وغيرهم ، على الحكم ، ولم يعد للسلطان أمر ولا نهى ؛ ثم قرروا خلعه نهائياً فى عام ١٩٠٩ ، حين حاول أن يقوم بثورة مضادة . وبذلك بدأ عهد (الاتحاديين) فى تركيا والشرق الأوسط والبلقان .

* * *

كان فرح الناس — ولا سيما الأحرار — بنجاح هذه الثورة عظيما ؛ فانتعشت الآمال ، وتطلع الجميع لمستقبل زاهر وعهد مشرق من الإصلاح . ولم يكن فرح العرب بأقل من فرح الترك أنفسهم بزوال عهد الحكم الفردى المستبد . وكان لكلمة الدستور أثر السحر فى كل قلب ؛ فكل إنسان ظن أنه بمجيء الدستور سيقضى على كل فساد ، ويبدأ كل صلاح . ظن الناس فى الشام والعراق والحجاز وغيرها أن دولة إسلامية فتية جديدة بدأ عهدها ؛ وأن اتحاداً وثيقاً سيكون بين كل الأقطار التى يتكون منها الشرق الأوسط

الإسلامى بما فيه تركيا . وإذا أردنا أن نأخذ صورة من هذا الفرح الغامر الذى شمل كل قلب ، فلنصغ — مثلا — إلى بعض ما قال حافظ وشوقى من شعراء مصر ، إشادة بالعهد الجديد وتحية لرجاله :

قال « حافظ » من قصيدة عنوانها (عيد الدستور العثمانى) ، أنشدها فى حفل جامع أقيم بحديقة الأزبكية ، فى مساء يوم الجمعة ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٩ م — قال :

أجل ؛ هذه أعلامه ومواكبه ... هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم ، فالكون فى يوم عيدهم ... مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله ... وتمت على عهد الرشاد رغائبه

إلى أن قال — مشيراً إلى رجال الثورة :

ثلاثة آســـاد يجانبها الردى ... وإن هى لاقاها الردى لاتجانبه
روت قول (بشار) فثارت وأقدمـ ... ـت وقامت إلى (عبد الحميد) تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه !)

ثم قال :

فمن لم يشاهد « يلدزا » بعد ربها ... وقد زال عنه الملك واندك جانبه
وقلمت الأقدار أظفار بطشـــه ... ودل على ما تجهل الجن حاجبه
ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه ... دنانيره والأمر بالأمر حازبه
وأصبح فى منفاه والجيش دونه ... يغالب ذكرى ملكه وتغالبه

....

مضى عهد الاستبداد واندك صرحه | وولت أفاعيه وماتت عقاربه
لك الله يا (تموز)[1] إنك بلسم | لجرحى الأسى، والدهر تعدو نوائبه
فديناك من شهر أغر محجل | أوائله ميمونة وعواقبه
تقابله الأعياد فى الأرض كلما | تجلى هلال الشهر أو لاح حاجبه

إلى آخر القصيدة . .

أما شوقى فقد قال :

سل (يلدزا) ، ذات القصور | هل جاءها نبأ البدور ؟
لو تستطيع إجابة | لبكتك بالدمع الغزير
أخنى عليها ما أنا | خ على الخورنق والسدير

. . . .

أين الأوانس فى ذرا | ها من ملائكة وحور
المترعات من النعيم | الراويات من السرور
الآمرات على الولا | ة الناهيات على الصدور

إلى أن قال :

(عبد الحميد) حساب مثلك | فى يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوا | ل ، ولسن بالحكم القصير
تنهى وتأمر ، ما بدا | لك، فى الكبير وفى الصغير
لا تستشير ، وفى الحمى | عدد الكواكب من مشير
كم سبحوا لك فى الرواح | وألهوك لدى البكور

(١) تموز هو شهر « يوليو » ويبدو أنه شهر الثورات .

ثم قال يخاطب الجيش الذى قام بالحركة :

يا أيهـــا الجيش الذى لا بالدعى ولا الفخور
كالليث يسرف فى الفعـا ل ، وليس يسرف فى الزئير
الخاطب العليـــاء بالأر واح ، غاليـــة المهور
يتلو الزمان صحيفة غرا مـــذهبة السطور
فى مدح (أنورك) الجرى ء وفى (نيازيك) الجسور
يا (شوكت) الإسلام ، بل يا فاتح البلد العسير

إلى آخر ما قال .

وفى قصيدة أخرى مطلعها :

يشرى البرية : قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

— قال :

يا شعب عثمان : من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها
نلت الذى لم ينله بالقنـا أحد فاهتف (لأنورها) واحمد (نيازيها)
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها وبين (مصر) ممان أنت تدريها

* * *

فكل هذا يدل على عظم الفرحة التى شعرت بها النفوس فى كل أقطار الشرق ، لما كللت به هذه الحركة الدستورية التى تهدف إلى الإصلاح من نجاح . ولبث الجميع يترقبون ما تسفر عنه الحركة من خير النتائج ، وأعودها بالنفع على الأمة ومستقبلها وعلى الدين ، وما ستحققه من أعمال عظام . ولكن هل برر المستقبل ما شعر به الناس من الفرح فى هذه اللحظة ؟ وإلى أى حد حققت الثورة الآمال وما هو الحكم الذى سجله التاريخ عليها ؟ .

عهـــد « الاتحاديين »

الدولة العثمانية والعالم العربى

١٩٠٨ — ١٩١٨

لم يكد الأتراك « الاتحاديون » يفرغون من تهنئة أنفسهم بنجاح الحركة حتى هبت عليهم عاصفة لم يستطيعوا مقاومتها ، فإن دول الغرب قد خشيت أن يؤدى قيـام الحركة إلى تجديد قوى الدولة العثمانية ، وبرئها ممـا أصيبت به من أمراض ، فبادورا إلى انتهاز الفرصة وتنفيذ مآربهم قبل أن يتم هـــذا التجديد .

بادرت « بلغاريا » إلى إعلان استقلالها ، فانقطعت منذ ذلك الوقت كل صلة بينها وبين الدولة ، وضمت النمسا إليها مقاطعتى البوسنة والهرسك (فى يوجوسلافيا الآن) ؛ وأعلنت « كريت » انضمامها إلى اليونان . ولم يستطع رجال العهد الجديد إلا أن يعترفوا بهـذه التغييرات مضطرين ، بعـد قليل ؛ فشجع هذا إيطاليا ، إذ أن ما اتفق عليه فى مؤتمر « برلين » (١٨٧٨) من ضمان حدود الدولة قـد صار منقوضا ؛ فما كان منها إلا أن أرسلت أسطولها ، وبدأت باحتلال « ليبيا » وضرب طرابلس عام ١٩١١ . وكان هـذا عدوانا سافراً غاشما بدون أى مبرر — كعمل القرصنة تماماً . فأثار هذا غضب الأحرار فى كل مكان ؛ ووقف العرب وقفة مجيدة إلى جانب الأتراك لمنازله هذا المعتدى الغاصب والدفاع عن كيان ليبيا .

ثم اتحدت دول البلقان ؛ وكونت « حلفا مقدسا » فى عام ١٩١٢ وهاجمت كلها تركيا ؛ فكانت حربا عنيفة ؛ ولم يكن «الاتحاديون» قد أتموا استعداداتهم فاستولت الجيوش المهاجمة على مدن ومواقع عديدة ، وسقطت (أدرنة) ، ووقف المهاجمون على بعد قليل من العاصمة . فاستبسل الأتراك فى الدفاع ، ثم لما حانت لهم فرصة بوقوع الشقاق بين المتحالفين بدأوا الهجوم ؛ فاستردوا بعض المواقع ، وحموا شرفهم . وانتهت الحرب بمعاهدة بوخارست عام ١٩١٣ ، التى بها تم الاعتراف باستقلال كل دول البلقان ، وانفصالها نهائيا عن تركيا .

* * *

لكن إذا كان هذا يعزى إلى سوء الحظ ، أو أنه كان أمرا متوقعاً نتيجة لما ابتليت به البلاد من فساد لعهد طويل ، ولم يعط رجال العهد الجديد الوقت الكافى لمعالجته ، فإن الكوارث الكبرى التى كانت ستصيب الدولة بعد قليل ، والفشل الذريع الذى كان سيمنى به الحكام الجدد — كان ذلك كله نتيجة أخطاء متعمدة ، وثمرة لسياسة ضالة ، وعاقبة اتباع مبادىء قد استوردت من الخارج ، وأريد تطبيقها بالقوة ، مع عدم ملاءمتها لطبيعة الأمة وعدم اتفاقها مع تطورها التاريخى . ذلك أن أعضاء جمعية الاتحاد كانوا فى الغالب من شباب تلقى تعليمه فى بيئات الغرب ، وقضوا شطراً من حياتهم فى عواصم أوربا ؛ فنشأوا مفتونين بنظم الغرب وثقافته ، وحشوا أدمغتهم بنظريات ومبادىء لا تصلح للتطبيق فى غير موطنها . كما أن من المحزن أن معرفتهم بالإسلام كانت ضئيلة ، وفهمهم لحقيقة مبادئه أو لطبيعة تاريخ أمتهم كان مضللا أو على غير أساس . ومن الثابت أن (جمعية الاتحاد) كانت خاضعة لتأثير الجمعيات (الماسونية) ، وكان نفوذ اليهود غالباً وظاهراً وسط محيط تلك

الجمعية ؛ فاليهود أمدوا الحركة وعاونوها بمختلف الوسائل ؛ فكانت فلسفة تلك الحركة إذن خايطا من مبادىء غربية نظرية ، وعواطف عنصرية ضيقة ، ونزعات سياسية مخربة ؛ ولهذا فان الحركة ــ فى الأمد الطويل ــ لم يقدر لها النجاح ، بل أصابت الأمة بصدمة شديدة من خيبة الآمال ، وكانت فى النهاية كارثة أطاحت ، ليس فقط بالنظام الجديد ورجاله ، بل بالدولة كلها ، وكادت تطيح بتركيا نفسها كأمة أو دولة مستقلة ، لولا جهود قام بها فى آخر لحظة رجال جدد .

كانت الآفتان اللتان أودتا بالحركه هما : اتجاهها غير الإسلامى ، ونزعتها العصبية القومية الضيقة . فقد عمد رجال العهد الجديد إلى إهمال شأن الدين ، وآثروا أن ينتهجوا سياسة مدنية أو زمنية ، أو حتى (لادينية) . وهذه إحدى الثمرات المباشرة لاتصالهم باليهود . كما أنهم بذلوا كل الجهد لإحياء العصبية القومية ، وبرزت فكرة (التركية) والاعتزاز بالأصل التركى ، وعملوا على صبغ الدولة كلها بالصبغة التركية ؛ وأرادوا أن يحاولوا المستحيل ، وهو محو العصبيات الأخرى وإزالة الأجناس المختلفة بمجرد إصدار التشريعات ، وبسلطان الإدارة وبالإكراه . كان إحياء القومية التركية وظهور هذه العصبية القديمة أحد العوامل القوية التى أدت إلى التعجيل بظهور قوميات أخرى ، كنتيجة مضادة أو كرد فعل . فما ظهر القومية العربية ، واضطر العرب إلى أن يقاوموا ، وكلما ازداد اضطهادهم وكلما ثقلت وطأة السياسة الاستبدادية عليهم ازدادت مقاومتهم وصلب عودهم ، وأمعنت شخصيتهم فى البروز ، فنشطوا للمطالبة بحقوقهم ؛ وتألفت الأحزاب ووضعت البرامج ، وأخذت الأهداف تتحدد .

كان من الأحزاب التى ألفت حزب يدعو إلى الاستقلال الذاتى للولايات ،

سمى « حزب اللامركزية العثمانى » وكان مقره مصر ؛ وجمعية « العهد) التى تكونت من الضباط العرب فى الجيش ؛ وجماعة (فتيان قحطان) ، وحزب (الإصلاح) وغير ذلك . وقد أساء الحاكمون فهم الغاية من وجود تلك الجماعات ، فظنوا بها شراً وعمدوا الى اضطهادها والتنكيل بأفرادها . ولم يفهموا معنى المعارضة ، فكانت المعارضة فى نظرهم ثورة على الوضع القائم ، وعصيانا ومخالفه لما يوجبه القانون . وهكذا انقلبت تلك الحركه ، التى قامت من أجل حماية الحقوق الدستورية واعلاء كلمة الأمة — انقلبت الى نظام استبدادى ، والى حركة ضغط وإذلال ، ولم يصبح لأصحابها غاية إلا الاستئثار بالسلطة لذاتها ، والتمتع بالنفوذ ، بل العمل لجلب منافع شخصية أيضا .

* * *

ثم ارتكب «الاتحاديون» غلطتهم الكبرى فانضموا إلى جانب «ألمانيا» فى الحرب العالمية الأولى . والواقع أن من أكبر الخطأ أن تقذف دولة ناهضة أو ناشئة بنفسها فى أتون الحرب ؛ كما أن من الخطأ المطلق أن تشترك أية دولة إسلامية فى حرب للدول الأوربية ؛ فليست لها أى مصالح مباشرة فيها . وإن هذا الاشتراك فى الحقيقة لا يكون إلا استغلالا ، بل تسخيرا . وعين الاتحاديون أحد كبارهم ، وهو « جمال باشا »، قائداً لجيوشهم فى الشام ، فجند الرجال وجمع الأموال ؛ ولكنه مع ذلك اتبع سياسة استبدادية فى حكمه للشام ، وقاوم كل حركة ، وشك فى كل هيئة . ولما وقع فى يده بعض الأوراق التى أظهرت أنه حدث اتصال بين بعض رجال سوريا وجهات أجنبية ، تحول إلى وحش ضار ، وملأ السجون بالأحرار ، ونصب المشانق ، فأعدم ، وعذب ، ونفى ، وذهب ضحية هذه السياسة الطاغية الخرقاء كثير من خيرة رجالات سوريا ، وشقى

كثير من الأبرياء ؛ ولذا فإنه لقب بحق « جمال باشا الجزار » . وهنا استقر اليقين وثبت الاعتقاد بأن لاحياة للعرب مع الترك ، على هذا الوضع ، وأن الأمة العربية يجب أن تعمل لاستقلالها ؛ ويجب أن تنتقل إليها الأمانة فتحمل هي عبء الدفاع عن الإسلام وأهله ، وتصير مركز ثقافته ومصدر تأثيره الروحي — كما أراد الله لها ذلك من قبل ، حين حمت الإسلام في نشأته ، وناضلت تحت لوائه ، وأخضعت له أعداءه .

أثارت هذه السياسة الجائرة وهذا التعصب الذميم سخط العرب الأحرار في كل مكان . وكان « الحلفاء » — وفي مقدمتهم إنجلترا — يسعون لضم أنصار لهم ، فوجدوا في هذا الشقاق فرصتهم السانحة. وكان الشريف «حسين» في مكة على خلاف مع الحكومة التركية ، ومهدداً بالعزل ، فاتصل بهم ومناه الانجليز الأماني ، ووعدوه بالملك ؛ وأغدقوا عليه المال. ولما وقعت الاضطهادات وحدثت مجازر الشام ، كان الرأي العام العربي مهيأ لإحداث انقلاب ،فتزعم (حسين) الثورة ، وأعلن انضمامه للحلفاء وخروجه على الدولة (١٩١٦) . وانقض — بتدبير الحلفاء — على الحامية التركية في مكة والمدينة فقتل وأسر ، ثم نادى بنفسه ملكا ، وأخذ يكون جيشاً للزحف إلى الشمال لمساعدة الحلفاء. ولكن الإنجليز في الوقت الذي اتصلوا فيه بالشريف ومنوه الأماني ، كانوا قد اتصلو أيضاً بجهات أخرى ، وعقدوا اتفاقيات متضاربة : عقدوا معاهدة سرية بينهم وبين روسيا وفرنسا ، تهدف إلى اقتسام أقطار الشرق الأوسط عقب هزيمة تركيا ، وعقدو اتفاق « سايكس — بيكو » ، بينهم وبين فرنسا ، لاقتسام نفس الأقطار بين الحليفتين ؛ واتفقوا مع اليهود على إقامة وطن قومي لهم في فلسطين أو بعبارة أخرى التمهيد لهم لامتلاكها ، وأعلن هذا في التصريح الشهير الذي أذاعه « بلفور » وزير خارجية انجلترا ، في نوفمبر سنة ١٩١٧

وانتهت الحرب العالمية بهزيمة ألمانيا وتركيا هزيمة ساحقة (١٩١٨) وكانت القوات المتحالفة ، جاعلة قاعدتها مصر ، ومستمدة منها مواردها والأيدى العاملة ، وبمعونة الجيش العربى ، كانت قد استطاعت أن تغزو فلسطين فسوريا ، واستولت على القدس ودمشق . وتنفيذا لاتفاقية « سايكس — بيكو » احتلت فرنسا السواحل الشامية . وحين آن وقت توزيع الأسلاب أخذت انجلترا تتنكر للعرب ، وتنسى أو تمارى فى وعودها ، بينما اتفقت كلتها مع فرنسا على اقتسام الشام فيما بينهما ، وعلى أن تفوز بالنصيب الأكبر من تركة الدولة العثمانية ، ولم يكن هناك شك فى وفائها لليهود ، بل منذ اللحظة الأولى أخذت تعمل لتحقيق آمالهم وتثبيت أقدامهم فى فلسطين ، وعينت أول مندوب سام لها هناك « هربرت صموئيل» وهو إسرائيلى إنجليزى .

* * *

وهكذا كانت نتيجة الحرب العالمية الأولى أن إنجلترا — ومعها اليهود — قد احتلت فلسطين ، واحتلت فرنسا لبنان ، ثم سوريا كلها إذ أن الأمير « فيصل بن الحسين » قد قام بمحاولة لتأسيس حكومة عربية بمعونة السوريين فى دمشق ؛ وأعلن نفسه ملكا ١٩٢٠ ، فلم تعش حكومته أكثر من أشهر ، وزحفت جيوش فرنسا فهدمت حكومته ونفته من سوريا ، ولم تنفعه إنجلترا حليفة والده . وقسمت فرنسا الشام إلى أجزاء ، وأثارت العصبيات والأحقاد الجنسية والطائفية ، لتستطيع أن تسود الجميع عن طريق سياسة التفرقة. واحتل الإنجليز أيضا العراق . ولم تنفع إنجلترا أيضاً حليفها الملك حسين ، إذ أخذت جيوش المملكة السعودية التى قامت فى نجد تهاجم بلاده فى الحجاز نفسها ١٩٢١ ، وانتهى الأمر بإخراج الحسين نفسه من الحجاز ، وذهاب ملكه

وانتهاء عهد أسرته، فنفى إلى قبرص وظل بها إلى أن مات، وقامت الدولة السعودية فى الأراضى المقدسة.

ثم وجدت إنجلترا نفسها مضطرة تحت ضغط الحوادث لإرضاء هذه الأسرة، فاقتطعت من الشام جزءاً أسمته «شرق الأردن» ونصبت الأمير عبد الله بن الحسين أميرا عليه، ثم ملكا. وليس هذا الجزء فى الحقيقة إلا قاعدة حربية لها، لتحمى فلسطين من الصحراء، ولأغراض أخرى. كذلك عاونت على تنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق، حيث أسس هناك أسرة أخرى، ونفوذ انجلترا هو السائد.

أما تركيا نفسها فقد سقطت فيها حكومة الاتحاديين بعد هزيمتهم. واحتل الحلفاء القسطنطينية؛ واحتل اليونان الأناضول، وأشرفت على الهلاك، لولا أن قام مصطفى كمال ورجاله وكون جيشاً فطرد اليونان، وأنقذ بلاده من العدم. وبعد أن نال شروطاً طيبة فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣، قرر إلغاء النظام القديم كله، ومحا الخلافة التى كانت اسماً على غير مسمى (عام ١٩٢٤) ومنذ ذلك الوقت بدأت تركيا حياة جديدة. وأما مصر التى كانت مفصولة عن العالم العربى، وعن هذه التطورات باحتلال الإنجليز لها، والتى اتخذوها مع ذلك قاعدة لحروبهم، ومصدراً لتموينهم وسخروا عمالها وأساءوا معاملتها فقد قامت عقب انتهاء الحرب بثورة مجيدة عام ١٩١٩، اهتزت لها أركان الامبراطورية، ثم اضطرت انجلترا إلى أن تعترف بمبدأ استقلالها ١٩٢٢، وبدأت فيها الحياة البرلمانية. وأخذت منذ تلك الساعة تملأ الفراغ الذى تركته تركيا فى حياة الأمم العربية والشرق الإسلامى ثم ظلت تكافح من

أجل استكمال استقلالها ، وتعمل لتعد نفسها للقيام بدور كبير فى حياة العروبة والإسلام .

* * *

وجد الشرق الأوسط الإسلامى نفسه إذن عقب الحرب العالمية الأولى فى وضع جديد ، وقد انتقل من دور إلى دور ، وهدمت نظم وشيدت نظم ، وذهبت دول وجاءت أخرى . ولئن كان بعد هذا الانتقال وجد أنه قد صار إلى حالة سيئة ، وأصبح وجهاً لوجه أمام الاستعمار - فإن هذا هو الثمن الذى كان لابد أن يدفعه ، نتيجة لما جنى عليه ضعف وإهمال وسوء إدارة الدولة العثمانية ، التى كان يتبعها أو كان مرتبطاً بها . وإنه لثمن باهظ حقاً ، اذ أنه كلفه حريته وكرامته ولكنها ضريبة لابد من دفعها ، وهى البوتقة التى يصهر فيها معدنه من جديد ، وتمتحن قوة صلابته ومتانة جوهره .

وعلى كل ، فقد بدأت المعركة منذ ذلك الوقت ؛ وصار مستقبل الشرق الأوسط الإســـــلامى بين يديه : صـــار مستقبله وحريته رهن كفاحه وجهـاده .

هذا ، وإن بعض ما أجملناه فى هذا الفصل سنعود الى تبيانه فى الفصول التاليـة .

الشعوب العربية
فى الحرب العالمية الأولى وما بعدها

هذا أخطر دور مر به الشرق العربى فى العصر الحديث . وهو الدور الذى تحددت فيه آماله وتكونت شخصيته وتعين مستقبله ، والذى فيه وضع الأساس لكل التطورات التالية . فيجب على كل مواطن فى الشرق العربى أن يدرس جيداً هذا الدور ، ويعى حقائقه.

دولة اتحادية :

حتى نشوب الحرب العالمية الأولى — (عام ١٩١٤) — كان الشام — بكل أقسامه — والعراق والحجاز ، وسائر جزيرة العرب — كانت هذه الأقطار كلها تكون الجزء الأكبر من الدولة العثمانية فى الشرق الأوسط . وكانت قد مضت على هذه العلاقة أربعة قرون . أما مصر فكان العدوان البريطانى قد فصلها عن الدولة منذ عام ١٨٨٢ .

ومن الخطأ أن يُظن أن علاقة الدولة بتلك الأقطار العربية كانت علاقة استعمار . فالواقع أن الدولة العثمانية كانت دولة « اتحادية » ، لا تقوم على أساس العصبية الجنسية ، وإنما تقوم على الرابطة الدينية والتاريخية : لم يكن طابعها الحقيق « تركيا » ، ولكن « عثمانياً » . وفرق كبير بين الإثنين .

فهى كانت متنوعة الأجناس ؛ وكان الباب مفتوحاً للعناصر غير التركية

لتتولى كل الوظائف ، وتصل إلى أعلى مراتب الحكم . فكثير من ولاتها وقادتها وأمرائها وعلمائها كانوا بالفعل من عناصر: عربية أو كردية أو مغربية أو بلقانية أو شركسية ، تجمعهم كلهم وحدة الدين والثقافة . أما فكرة العصبية التركية فنشأتها حديثة ؛ إذ أنها ترجع إلى حكم رجال « جمعية الاتحاد والترقى » ، بعد خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ . وحين ظهرت هذه الفكرة أخذت الدولة فى الانهيار النهائى ؛ لأن الأساس الأول الذى تقوم عليه أخذ هؤلاء المتعصبون ينتزعونه من مكانه . ولم تلبث بعد ذلك إلا سنوات حتى قضى عليها إلى الأبد ، فى ظروف الحرب العالمية التى كشفت التصدع الذى أحدث فيها ، وأوجدت الفرصة للعناصر الثائرة لتنتقض عليها .

فأقطار الشرق العربى — إذن — كانت مستقلة فى حدود هذا الاتحاد : أى أنها كانت بريئة من الإستعمار ، خالية من التحكم والطغيان الأجنبى ، محتفظة بكرامتها ، شاعرة أنها آمنة على ثقافتها وسلامة تراثها الروحى ، مطمئنة إلى تحقق شخصيتها . وهى إن خضعت لنظام كانت هى أولى من تعرف معائبه ومفاسده ، فهى كانت شاعرة أنه يمثل استمرار تطورها التاريخى ، وفى وجوده إرضاء لوجدانها الدينى ، وشعورها المشترك بوجوب التضامن لدفع العدوان الأوروبى . وقد أدى هذا النظام واجبه خير أداء فى عصور سابقة ؛ وهى كانت لابد أن تعمل على إصلاحه أو تغييره ، بعد زمن قليل أو كثير .

* * *

عند الحرب العالمية الأولى :

كان هذا هو وضع الأقطار العربية — باستثناء مصر التى كانت أسرة

« محمد على » قد حاولت أن تستقل بهـا ذاتياً ، ولـكنها لم تستطع الدفاع عنها ، بل أسلمتها للأعداء — كان هـذا هو وضعها حين نشبت الحرب العالمية الأولى .

فهى ما عرفت الاحتلال الأجنبي إلا قبـل ستمائة عام : أى منذ عهد الحروب الصليبية ؛ وقد أمـكنها حينئذ أن تلقى بهؤلاء المتعصبين الدينيين إلى البحر ؛ وإلا فى مناسبة الحملة الفرنسية الفاشلة التى قام بها نابليون ، فاستطاعت بعد قليل أن ترده وجيوشه مذءوماً مدحوراً . وما كان إيقاد نيران الحرب العالمية فى ربوع الشرق من عمل هذه الأقطار ، وإنما كان الجناة المسئولون هم الأتراك ، رجال « جمعية الاتحاد والترقى » ، الذين زين لهم غرورهم ودفعهم حمقهم إلى الاشتراك فى تلك الحرب — وما كانت إلا حربا أوربية ، فأوربية أمريكية : مدارها النزاع على الإمبراطوريات والاستئثار بالمنافع الاقتصادية والسياسية — فانحازوا إلى جانب ألمانيا ، وأعلنوا الحرب فى أكتوبر (عام ١٩١٤) على إنجلترا وروسيا وفرنسا . فبـذلك قامروا بدولتهم وأنفسهم والأقطار المرتبطة بهم ، مغـامرة انتهت بتحطيم دولتهم وذهاب ريحهم . ثم كان أوخم عواقب ، وشر نتائج ، تلك المقامرة أنها أتاحت الفرصة للاستعمار — الاستعمار الأثيم المعتدى — ليثب على أقطار الشرق العربى ، الذى صدق عليه إذ ذاك قول الشاعر :

لم أكن من جناتها — علم الله — وإنى بحرها اليوم صالى !

فيفقد تلك الأقطار استقلالها وحريتها ، ويؤذى كرامتها ، ويستلب حقوقها وخيراتها ، ويحاول طمس شخصيتها ، ويهدد مستقبلها وحياتها ! !

* * *

فى الحرب :

وجدت البلاد العربية نفسها على إثر قرار «الاتحاديين» — على غير إرادة منها ودون ذنب جنت — مشتبكة فى تلك الحرب الطاحنة .

وقد أرسل الأتراك جيوشهم مع القواد الألمان الى الشام ، ليهاجموا انجلترا فى مصر . وهبت انجلترا من جهتها تدافع عن القناة ومركزها . فأصبح البلدان الشقيقان ميدانى حرب ، لقوتين متماديتين . وكانت إنجلترا قد بادرت فمحت كل أثر لإرادة مصر ، إذ وضعتها تحت الحماية فى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ — منتهزة تلك الفرصة ، كعادتها ، لتحولها إلى مستعمرة ، تحكمها حكما مباشراً — وفرضت عليها الأحكام العرفية ، وجندت عمالها بالرغم منهم . وانتهبت مواشى الفلاح ومحاصيل زراعته ، واغتصبت ثروة البلاد فى مقابل أوراق يصدرها البنك الخاضع لها ، ليس لها قيمة ؛ فأوجدت التضخم والغلاء ، وحجرت على كل الحريات واعتقلت الأحرار ؛ مما كان كله سيؤدى إلى الانفجار ؛ فأدى بالفعل إلى قيام الثورة المصرية المجيدة التى حدثت فى عام ١٩١٩ ، التى أخذت تغير تاريخ البلاد منذ وقوعها. كذلك حكم «جمال باشا» قائد جيش الأتراك ، الشام حكما عسكرياً صارماً ؛ وجند الرجال ، وزاد الضرائب وصادر الحريات . ثم نصب المشانق وأعدم كثيراً ونفى عدداً من كرام المواطنين ! وكان من أقسى ما عاناه أهل البلاد اختلال الحالة الاقتصادية ، فاشتد الغلاء وتدهور النقد ، وتحولت الحالة إلى مجاعة ، حتى قدر عدد من هلك من سكان لبنان بسبب المجاعة بنحو ثلث السكان فكان قطر الشام كله فى حالة شقاء وبؤس طوال سنى الحرب لا مثيل لها ! .
كذلك صار العراق ميدان حرب : بين الجيوش التركية الألمانية تتقدم من بغداد ، والجيوش الإنكليزية من الخليج الفارسى إلى البصرة : بين مد وجزر ،

وكر وفر — مما أدى إلى الحصار الاقتصادى واضطراب الأحوال المعيشية؛ فاشترك العراق أيضاً فى الآلام التى سببتها أحداث الحرب

* * *

المؤامرات الاستعمارية

كانت الحرب العالمية الأولى : (١٩١٤ ـــ ١٩١٨) اذن محنة كبرى بالنسبة الى الشرق العربى : ولكن الآلام التى تحملتها أقطاره ، والإجراءات الصارمة التى حكمت بها فى خلال سنى الحرب ، لم تكن شيئاً بالقياس الى ما كان يدبره له المستعمرون ، وما كان مقدراً له أن يلاقى عقب انتهاء الحرب، من جراء ذلك التدبير !

ومما كان من شأنه أن يجعل تلك التدبيرات ـ حين حان وقت ظهورها ـ أوقع ألما ، وأشد مضاضة ، أنها جاءت فى صورة خيانة ـ على ما سنشرحه بعد قليل ؛ وأن الاتفاقات التى تآمرت الدول على إمضائها لم تكن إلا تنفيذاً لسياسة الاستعمار الرجعى : ذلك الذى كان من مميزات القرن التاسع عشر ، والذى ظن أن التنور والتقدم الذى حدث فى القرن العشرين قد فل حده وكسر شرته ، وأنها لم تكن ترمى إلا إلى عدوان غاشم ، سيكون مصطحباً — كما ستكشف الحوادث بعد حين — بأعمال الوحشية ومظاهر الهمجية وأساليب البربرية : كما سيظهر من فرنسا فى سورية ولبنان ، ومن إنجلترا فى مصر والعراق وفلسطين؛ ومعهم أصدقاؤهم اليهود ، من شذاذ الآفاق — مما كان جديراً كله بالحضارة الأوربية فى القرن العشرين . . . !

الاتفاق مع العرب .

حدثت هذه المؤامرات فى الوقت الذى كانت تمد فيه تلك الدول يدها

إلى الشرق العربى ، ترجو معونته وتطلب صداقته ، ذلك أن إنجلترا — ممثلة لحليفاتها ، وقد وجدت نفسها فى أوائل الحرب فى مأزق ، وأحست بضعفها إزاء جيوش الأتراك ؛ وكانت تخشى إعلان الجهاد الدينى ، الذى كان الأتراك يحثون رؤساء البلاد العربية على إعلانه — رأت أنها لا يمكن أن تتفادى هذه الأخطار إلا اذا صادقت العرب ، وعقدت حلفا مع زعمائهم . وكانت هناك اتصالات فى ذلك الوقت بينها وبين الشريف « حسين » أمير مكة ، وولديه : عبد الله وفيصل إذ أن الشريف لم يكن على علاقات حسنة مع « الاتحاديين » .

ففى الخطابات العديدة التى تبودلت بين « الشريف » وبين « هنرى مكماهون » معتمد بريطانيا فى مصر — وذلك فى خلال سنة ١٩١٤ — أعربت إنجلترا عن قبولها للمطالب التى كان يعرضها « الحسين » ، وتعهدت بالعمل على تأييدها وتحقيقها . وهى تتلخص فى استقلال العرب ووحدتهم . وذلك بإنشاء دولة عربية متحدة : تشمل جزيرة العرب ، والشام — بما فيه فلسطين — والعراق ؛ وينادى به ملكا عليها . فنتيجة لهذا الاتفاق خرج الشريف وأولاده على الدولة العلية ، وأعلنوا عليها الحرب (فى يونية عام ١٩١٦) . وبعد أن كونوا جيشاً عربياً قوياً ، ظلوا إلى نهاية الحرب يساعدون إنجلترا وفرنسا فى جهودهما الحربية ، لإنزال الهزيمة بالأتراك وإجلائهم عن الشام ، حتى تم ذلك .

معاهدة « سايكس — بيكو » .

ولكن إنجلترا ، فى نفس الوقت الذى كانت تتفق فيه مع الشريف كانت تتفاوض مع فرنسا وروسيا ، وتوصلت إلى عقد معاهدة (فى مايو عام ١٩١٦) هى التى عرفت باسم معاهدة « سايكس — بيكو » — نسبة إلى ممثلى إنجلترا وفرنسا اللذين عقداها — اتفقت فيها الدول الثلاث على اقتطاع أجزاء من تركيا ، وعلى تقسيم أقطار الشرق بينها ، وأن يكون ذلك على هذا الوجه :

(ا) أن تأخذ « روسيا » القسطنطينية ومناطق حولها ، وأراضى على الضفة المقابلة فى آسيا . (ب) وأن تعطى « فرنسا » سوريا ولبنان ، ثم ولاية الموصل شمالى العراق أيضاً . (ج) وأما إنجلترا فتأخذ الجزء الأكبر من فلسطين ، وبقية ولايات العراق إلى الجنوب . ثم تجعل منطقة معينة حول القدس دولية .

وأغرب شىء أن هذه المعاهدة احتفظ بها سرية ، ولم تطلع الدول عليها « الحسين » حليفهم ، فلم يصله نبأ عنها إلا بعد أن خرجت روسيا من الحرب عقب ثورتها ، ونشرت حكومتها بعض الوثائق السرية عام ١٩١٨ .

التآمر مع اليهود :

وكان أخطر اتفاق عقدته بريطانيا فى أثناء الحرب — من تلك الاتفاقات التى جاءت مناقضة كل المناقضة لتعهداتها للشريف حسين والعرب — هو اتفاقها مع الصيهونيين . فقد استطاع « وايزمان » — مؤيداً بروتشيلد والرأسماليين فى أمريكا وإنجلترا — أن يعقد اتفاقاً مع لويد جورج رئيس وزارة انجلترا ، وبلفور وزير خارجيته : تعهدت فيها إنجلترا أن تبذل أقصى ما تستطيع لتحقيق أمل اليهود فى إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين؛ وصدر بذلك تصريح « بلفور » الشهير فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ .

عقب الحرب :

جاءت إنجلترا إذن عقب الحرب بهذه الاتفاقات الثلاثة ، التى يناقض بل يصفع بعضها بعضاً ! وهذا هو مثال الشرف فى المعاملات الدولية !

يضاف إلى ذلك أن زعماء الحلفاء كانوا لا يفتأون فى أوقات شدائد الحرب ، يرددون تصريحاتهم بأنهم إنما يحاربون من أجل تحقيق العدالة ، وضمان حريات الشعوب . وجمعت هذه التصريحات فى المبادىء الأربعة عشر المعروفة ،

التى أعلنها الرئيس الأمريكى « ولسن » فى عام ١٩١٨ ؛ وكان من أهمها تقرير أن كل شعب ينبغى أن يعترف له بحق تقرير مصيره ، وأن العلاقات بين الدول يجب أن تقوم على التفاهم والتراضى ، لا على العسف والقوة . وقد كان لإعلان تلك المبادىء دوى وأثر كبير يفوق حد الوصف ، ولا سيما فى الشرق الأوسط ، إذ اعتقدت الشعوب صدقها فى ذلك الوقت ، وترقبوا بزوغ عهد جديد تتحقق فيه غايات العدالة والحرية ، ويسود السلام !

فى مصر ثورة ١٩١٩ .

فما كادت الحرب تضع أوزارها بعقد الهدنة فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ ، حتى كانت مصر — التى فرضت عليها الحماية قسراً ، بالرغم من قوة حركتها الوطنية ، وبالرغم من انتشار الثقافة فيها — كانت أول من تحرك للمطالبة بحق تقريرها لمصيرها .

فنى ١٣ نوفمبر توجه « سعد زغلول » ، مع زميلين له ، إلى « ونجت » المعتمد البريطانى ؛ وأبلغه مطلب مصر ؛ وهو يتلخص فى الاستقلال التام . وفى نفس اليوم ألف سعد « الوفد المصرى » الذى كان مقدراً له أن يقود الحركة الوطنية فى ذلك الدور . ونشط أعضاؤه فى جمع التوكيلات من الأمة ، وطلب سعد الإذن له بالسفر ليرفع صوت مصر فى « مؤتمر الصلح » الذى سيعقد فى باريس . ولكن كل هذه المطالب رفضت . ورفضت إنجلترا أيضاً ، بكل تعنت ، طلب رئيس الوزراء « حسين رشدى » أن يؤذن له بالسفر ، وكان مؤيداً للحركة الوطنية منذ بدايتها ، فاستقال . وانضم السلطان فؤاد الذى كانت الحماية قد عينته إلى جانب السلطة المستعمرة ؛ فاشتد الشعور بالسخط .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ اعتقلت السلطة العسكرية سعداً ورفاقه، ونفتهم إلى « مالطة » ، فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت مخزن البارود . قامت الثورة المصرية إذن منذ يوم ٩ مارس . واستمرت بعد ذلك فى عنفها وشدتها نحو عامين ، حتى اضطرت إنجلترا إلى إجابة بعض المطالب الرئيسية الوطنية .

(٢)

فى مصر .

كانت ثورة مصر إذن عام ١٩١٩ — كما قدمنا — الشعلة الأولى التى أضاءت فى جنبات الشرق العربى ، لتنير سبيل الحرية ، وتحيى الأمل فى قلوب المجاهدين ، ولتلفح أيضا بنارها وجوه المستعمرين !

ولقد كانت ثورة طبيعية لم يسبقها تدبير : تعبيرا بليغا عن إيمان شعب قوى بحقه ، وصيحة مدوية فى أذن الاستعمار ، أشعرته بروعة الحق وأعلنت استنكار عدوانه وغدره ، وأقامت الدليل على أن أمة متحدة الإرادة صادقة العزم تستطيع ، ولو كانت عزلاء ، أن تتحدى دولة مدججة بالسلاح ، خرجت مزهوة من حرب انتصرت فيها على أعدائها . وقد نشأت الثورة عن ظروف مصر الخاصة ، منذ أن اغتنمت إنجلترا فرصة الحرب ، ففرضت على مصر « الحماية » ، ثم أصرت بعد انتهائها على أن تبقيها وتجعلها نظاما دائما . فلم تكن للثورة إذن صلة بالأحداث التى كانت تجرى فى سائر الأقطار العربية فى ذلك الوقت ، فيما عدا أنه كانت تجمع بينها صفة مشتركة ، وهى أنها كلها كانت أعمال كفاح ضد المستعمر الأوربى ، الذى أراد أن يجعل الشرق العربى ميدانا لعدوانه ، وبقيت مثلا ملهما للشعوب التى ستلجأ إلى جهاد هذا المستعمر ، من أجل نيل حقوقها .

فى سائر الأقطار العربية :

كانت ظروف الشعوب العربية الأخرى مختلفة عن ظروف مصر ، فإنها —

نظراً لبقاء ارتباطها مع الدولة العثمانية إلى وقت الحرب ، وما عانت من مر التجارب من الأتراك المتعصبين لقوميتهم وما قاست من الويلات إذ ذاك — كان شعورها بالسخط على تلك الدولة شديدا . فلما واتت فرصة الحرب ، وجد قادة الرأى فيها أن الوقت قد حان لرفع نير الحكم التركى ، وتحقيق الأمل الذى طالما حلموا به ، وهذا الأمل هو إنشاء دولة عربية متحدة كبرى. تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، ومن حدود إيران شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا . وتألفت الجمعيات السرية من أحرار العرب فى الشام والعراق مثل : « العربية الفتاة » ، و « والعهد »: و « الإصلاح » وغيرها . وكانت « دمشق » قلب الحركة العربية . وحين فكر « الحسين » فى القيام بحركته اتصل ، بواسطة ابنه « فيصل » ، بتلك الجمعيات . وسجلت الوثائق التى تبادلها مع ممثلى الحلفاء أن هدف تلك الحركة هو تحقيق المثل الذى وضعه قادة العرب نصب أعينهم ، ألا وهو توحيد البلاد العربية واستقلالها .

تأييد انجلترا للدولة العربية

وقد صرح الحلفاء — على لسان إنجلترا — بأنهم مؤيدون لتلك الخطة ، وأعطوا تعهداتهم الأكيدة بأنهم سيعملون على تنفيذها عقب الحرب . ومن أجل هذا خاض كثير من رجال العرب القتال ملتفين حول راية الحسين ، إلى جانب الحلفاء ، وقدموا لهم من المساعدات — ماديا وأدبيا — ماذلل لهم العقبات فى طريقهم ، وما مكنهم من الانتصار على الأتراك ، الذين كانوا يشعرون — كما دونوا ذلك فى وثائقهم — أنهم يحاربون فى أرض معادية ! وقد شهد زعماء الحلفاء من سياسيين وحربيين ، بهذا الفضل للعرب ، ولم يحاولوا أن يجحدوه .

* * *

تطلعت الشعوب العربية إذن عقب الحرب إلى تحقيق تلك الآمال ، وانتظروا وفاء « الحلفاء » بعهودهم . وقد أصبح الملك « حسين » ممثلا لهم ، وعقدوا الآمال على مساعيه وجهود ابنه الأمير « فيصل » لحمل الحلفاء على الشروع فى إنجاز ما وعدوا به .

وكان آخر وعد بذله (الحلفاء) هو مذكرتهم التى أعلنوها فى ٨ نوفمبر ١٩١٨ ، وقد جاء بها : (أن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وإنكلترا فى الشرق ، تلك الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان ، إنما هو لتحرير الشعوب ، التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك ، تحريراً تاماً نهائياً ؛ وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً ، ولقد أجمعت فرنسا وإنكلترا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سورية والعراق ...

ولكن جيوش الحلفاء — وقد انتهت الحرب — بقيت محتلة لأراضى العرب : لسورية ولبنان والعراق ، التى دعوها حينئذ فى المذكرات الرسمية « أرض العدو المحتلة » . وقال الزعماء إن هذه إجراءات مؤقتة ، إلى أن يتم الاتفاق على النظم التى ستتبع فى « مؤتمر الصلح » . وكان هذا المؤتمر سينعقد فى باريس فى أوائل ١٩١٩ .

* * *

فى « مؤتمر الصلح » ١٩١٩ :

وصل (فيصل) إلى أوروبا فى أواخر عام ١٩١٨ ، على رأس وفد

الحجاز، ممثلا لوالده وليتكلم باسم العرب. فلاقى من «فرنسا» عنتا إذ أساءت استقباله، وعارضت فى أن يحضر مؤتمر الصلح بدعوى أن الحجاز لم يكن — أى على الرغم من اشتراكه الفعلى فى القتال — أحد الدول المحاربة! وتبين للأمير على الفور مدى الفرق بين الأمل والواقع المرير، وبدأت تتكشف له رويدا — وكان قليل الخبرة فى ذلك الوقت — حقيقة الأوروبيين وطبيعة الاستعمار، فلم يقبل فى المؤتمر إلا بعد ضغط من إنجلترا — هذا فى الوقت الذى قبل فيه وفد «الصهيونيين» الذين لا يمثلون أية دولة، بدون عناء بل بكل ترحيب! وفى نفس الوقت أيضا — وهذا على طريق المقابلة — الذى حيل فيه بين وفد مصر — الدولة الكبيرة التى كان عدد سكانها إذ ذاك اثنى عشر مليونا — وبين حضور المؤتمر، فاعتقل زعماؤها ونفوا إلى «مالطة» وسفكت المدافع الإنجليزية دماء المصريين فى طرقات القاهرة وغيرها، لأنهم طالبوا أن يسمع صوتهم فى مؤتمر «السلام»!

افتتح «المؤتمر» فى يوم ١٨ يناير ١٩١٩. ولم يكن يقصد من حضور «فيصل» المؤتمر، منذ البداية، إلا أن يكون شكليا. فبالرغم من أنه سمح له — بتوسط الرئيس «ولسن» — أن يعرض قضيته فى يوم ٦ فبراير — وكان الضابط الإنجليزى «لورنس» مترجمه فى المؤتمر — فإن المؤتمر لم يفعل له شيئا، سوى أن قرر فى يوم ٢١ مارس إرسال لجنة دولية، للتحقيق واستفتاء السكان!

خطط انجلترا وفرنسا:

وجد (فيصل) عند زيارته للندن وباريس أن نية إنجلترا وفرنسا — وهما الدولتان اللتان كانتا مسيطرتين على المؤتمر — منعقدة على تنفيذ اتفاقية

« سايكس — بيكو » ، بعد انتهاء المساومات التي كانت دائرة بينهما ؛ وهي تلك التي تقضى باقتسام أقطار الشرق العربي بينهما — وذلك بعد خروج روسيا ، إذ كانت قد انسحبت من الحرب عقب ثورتها في العام السابق لانتهاء الحرب . كما أن إنجلترا كانت معتزمة أيضا — بالاتفاق مع حليفاتها — تنفيذ وعد (بلفور) الذي يرمى إلى تحويل (فلسطين) إلى أرض يهودية. وقد حملت إنجلترا الأمير — بتأثير « لورنس » الذي كان فيصل منقادا له كل الانقياد حملته على أن يوقع مع « وايزمان » على اتفاقية ، اعترف فيها بوجاهة الأماني الصهيونية وصرح بعطفه عليها ، ووعد بالتعاون مع الصهيونيين في المستقبل؛ وإن كان قد اشترط أن ذلك رهن بتحقيق آمال العرب ، غير مدرك ما بين الهدفين من تناقض صارخ ! وغير متبين ما في مشروع الصهيونيين من خطورة على فلسطين والبلاد العربية كلها .

وبذلك انتهت مهمته في أوروبا فعاد إلى سورية في آخر أبريل ١٩١٩ ، وأخذ يهيىء الجو لحضور اللجنة التي قرر مؤتمر الصلح إرسالها .

لجنة « كنج كرين »

لكن إنجلترا وفرنسا نقضتا قرار المؤتمر ، بأن امتنعتا عن إرسال مندوبين عنهما ؛ فحضرت اللجنة برئاسة مندوبي الولايات المتحدة . وهي اللجنة التي عرفت باسم « كنج — كرين » ؛ وقد وفدت إلى سورية في يونيه ، وقامت باستفتاء عام دقيق ، وصلت فيه إلى حقيقة رأى البلاد ، وكانت لجنة عادلة محايدة ؛ ثم قدمت تقريرها في أغسطس عام ١٩١٩ .

وخلاصة ما انتهت إليه أن الأكثرية العظمى تطلب استقلال سورية التام — على أن تكون موحدة شاملة لفلسطين — وتستنكر فكرة إنشاء

الوطن القومى لليهود . فإن لم يكن بد من الانتداب ، فليكن لأمريكا — على أن يكون لمدة مؤقتة ، وعلى أن لا يكون المفهوم منه أنه استعمار ، بل مجرد بذل المساعدة الفنية لمعاونة الحكومة الوطنية على النهوض ؛ فإن لم تكن أمريكا ، فإنجلترا على نفس الشروط ؛ أما فرنسا فقد رفضت إطلاقاً . وقد سجلت اللجنة نفسها معارضتها للمشروع الصهيونى ، موضحة أنه لن يمكن تنفيذه إلا بإراقة الدماء ، وبإجلاء السكان الأصليين بقوة السلاح ؛ وهو ما يخالف كل المخالفة المبادىء التى دعا إليها « ولسن » ، والغايات التى من أجلها حارب الحلفاء . لكن هذا التقرير لم يكن له من أثر ، وألقت به الدولتان الاستعماريتان : إنجلترا وفرنسا ، فى سلة المهملات — كما كانتا قد ألقتا من قبل بآمال العرب — وكان « ولسن » قد فقد نفوذه ، إذ أن أمته نفسها قد خذلته ، وعارضت ما اتفق عليه مع رؤساء الدول الاستعمارية فى « مؤتمر الصلح » .

* * *

اتفاق « جورج كلمنصو » :

بذلك خلا الجو لانجلترا وفرنسا ، فوصلتا إلى اتفاقات على تقسيم النفوذ وتبادل للمصالح . واستطاع الاستعمار أن يحقق حينئذ أقصى غاياته ، وساد الظلم ، وديس على الحريات والحقوق .

توصل « لويد جورج » و « كلمنصو » إلى اتفاق فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٩ على تعديل معاهدة « سايكس — بيكو » ؛ وكان مضمون هذا التعديل : أن فرنسا وافقت — بعد إلحاح من إنجلترا — على أن تترك للأخيرة ولاية « الموصل » ، فتكون لإنجلترا السيادة على « العراق » كله ، فى نظير أن تعطى إنجلترا لفرنسا حصة وافرة من الزيت . وتلغى المنطقة التى

كان قد اقترح أن تكون دولية حول القدس فتصبح فلسطين كلها لإنجلترا ، حتى تستطيع أن تحقق آمال اليهود . وفى مقابل ذلك وافقت إنجلترا — رامية عهودها للعرب عرض الحائط — على تجزئة سورية . فهى قد أخذت فلسطين بالاشتراك مع أبناء إسرائيل ، وتستولى فرنسا على لبنان ، جاعلة منها قسما منفصلا ، وعلى المناطق الساحلية والشمالية من سوريا ، تاركة فقط المدن الأربع الداخلية ، ليقيم عليها الأمير فيصل حكومة عربية .

تنفيذ الاتفاق الاستعمارى:

استدعى « لويد جورج » الأمير لينبئه بهذا الاتفاق . فذهب مرة أخرى إلى أوربا فى سبتمبر ١٩١٩ . وبعد أن قام باتصالاته مع حكومتى إنجلترا وفرنسا ، لم ير بدأ من الموافقة على المشروع .

وفى أثناء وجوده هناك ، عينت فرنسا الجنرال « غورو » قائداً عاماً للجيش الفرنسى فى الشرق ومندوباً سامياً لها : فوصل إلى بيروت فى ١٨ نوفمبر ، وأخذت الجنود الفرنسية ترد تباعاً الى الشام . وفى خلال الشهر نفسه « نوفمبر » شرع الجيش الإنجليزى فى إخلاء سورية طبقاً لما اتفقت عليه حكومته مع حليفتها فرنسا ، تاركا حكومة الأمير « زيد » — أخى الأمير فيصل ، الذى كان الأمير قد أقامه نائباً عنه فى « دمشق » فى أثناء غيابه — مواجهة لفرنسا فى الشمال ، بينما انفردت انجلترا بالنفوذ فى الجنوب : « فلسطين والأردن » ، وفى الشرق : « العراق » .

غاية الجهد :

ثم عاد الأمير فيصل فى يناير من العام التالى : ١٩٢٠ . وكان هذا آخر ما وصلت إليه آمال العرب ، وغاية ما انتهت إليه جهوده وتأثيره على

وأصدقاء والده ، بعد الانضمام إليهم ، وتأييدهم بكل الوسائل ، والمحاربة فى سبيلهم ، منذ يونية عام ١٩١٦ : أى أن البلاد العربية وجدت نفسها فى حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه فى عهد الدولة العثمانية . فقد مزقت بدداً وقطعت أوصالها ، ونصب عليها سادة متعددون ، هم أجانب عن ثقافتها غرباء عن روحها ، هم أعداء الإسلام والعرب التاريخيون منذ عهد الحروب الصليبية . لذلك كان لاغرو أن يعلن الجنرال « اللنبى » يوم دخل القدس : « اليوم ختمت الحروب الصليبية » ! ! — بكل ما تتضمن هذه الجملة من معان . وهى قد ختمت حقا ، ولكن من وجهة نظر الأوربيين !

كان شعور الاستياء بالغاً ، إذ شعر العرب وأهل الشام بصفة خاصة أنهم بيعوا بيع السلع ، وعرفوا أن المبادىء التى يدعو إليها الحلفاء خداع ، وأنها لاتقف أمام المطامع الاستعمارية . ولقد قرروا إزاء هذا أن يعلنوا صوت الشعب ويظهروا إرادته فى صورة محددة ، ويبدأوا فى التنفيذ ليضعوا الدول أمام الأمر الواقع .

قرارات « المؤتمر السورى » :

فوفقاً لهذا ، اجتمع « المؤتمر السورى » — وهو مؤتمر دستورى يمثل الرأى العام تمثيلا صحيحاً — فأصدر فى يوم ٨ مارس ١٩٢٠ قرارات هامة حدد بها مستقبل البلاد . وإصدار تلك القرارات كان هو نقطة البدء فى تاريخ سورية الحديثة . فكان أهم القرارات إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية و — منها « فلسطين » — استقلالا تاماً ؛ وحفظ حقوق الأقلية ، ورفض مزاعم الصهيونيين ، ومعارضة هجرتهم ، وإقامة حكومة ملكية نيابية مسئولة . ثم اختار المؤتمر الأمير فيصل ملكا على البلاد .

كما اجتمع فى نفس اليوم « مؤتمر من رجال العراق » ، وأصدر قرارات باستقلال « العراق » وباختيار الأمير عبد الله ملكا عليه . وكانت انجلترا قد احتلت العراق وحكمته حكما عسكرياً مباشراً منذ نهاية الحرب ، وأرادت أن تجعله ولاية ملحقة بحكومتها فى الهند .

دولة « فيصل » فى دمشق :

تنفيذاً لقرار المؤتمر قامت الدولة الفيصلية فى « دمشق » ؛ وألفت أول وزارة برئاسة «رضا باشا الركابى» ، وشرعت فى تأدية وظائفها . وأوفد الملك أحد المخلصين له وهو اللواء « نورى السعيد » الى لندن وباريس ، ليحصل على اعتراف حكومتيهما بالعهد الجديد . وكان الواجب أن تحترم الدول الإرادة الشعبية ، وترحب بهذا النظام الذى كان لابد أن يعمل على الاستقرار . ولكن انجلترا وفرنسا - الحلفاء -أسرعتا إلى إعلان عدم اعترافهما بقرارات المؤتمر .

مؤتمر « سان ريمو » ١٩٢٠ :

وكان جوابهما دعوة « مجلس الحلفاء الأعلى » الى الانعقاد . فانعقد فى « سان ريمو » ؛ وأصدر قراراته فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ . وكانت قرارات غاية فى الخطورة ؛ وكان لها أكبر الأثر على مستقبل الشرق العربى .

قرر الحلفاء اذ ذاك وضع الأمة العربية تحت الانتداب : « الوصاية » : أى أن الأمة العربية كان يجب أن تظل مستعبدة للدول الغربية ، محتلة بالجيوش الإنجليزية والفرنسية ، تتصرف فيها وتملى عليها إرادتها كما تشاء . وقد وزعوا الانتداب : فجعلوه لإنجلترا على العراق وفلسطين كلها ، مع تعهد انجلترا بإنشاء الوطن القومى لليهود . وأعطوا الانتداب لفرنسا على سورية كلها ، بما

فيها حكومة فيصل فى دمشق . وكان هذا مخالفاً لما اتفق عليه لويد جورج وكلمنصو من قبل ، فى ١٥ سبتمبر من العام السابق .

فرنسا تمحو دولة « فيصل »

وإذ وجدت فرنسا نفسها مسلحة بقرار الانتداب ، غدت علاقتها مع حكومة الأمير فيصل علاقة الذئب بالحمل ! و كما أن الذئب ادعى على الحمل — ظلماً وعدواناً — أنه عكر عليه الماء ، فكذلك ادعت حكومة الجنرال « غورو » الفرنسى على الأمير « فيصل » أنه عكر عليه الجو فى الشام ! وأجمع « الذئب » رأيه على التهام الحمل ! .

ففى يوم ١٤ يوليه ١٩٢٠ ، أرسل الجنرال « غورو » إنذاراً إلى حكومة دمشق ، يطالب للتسليم بأمور معينة : منها قبول الانتداب ، وتسريح الجيش وإخلاء سكة حديد الخ ، وحدد للرد أربعة أيام مدت يوما آخر. وقد آثر فيصل الخضوع بدلا من المقاومة ؛ فسرح جيشه .ولكن جوابه تأخر فىالطريق فقرر الجيش الفرنسى الزحف على دمشق فى يوم ٢٠ يوليه ، بدباباته وطائراته .

معركة (ميسلون) :

وتقدم فريق من الوطنيين ، على رأسهم يوسف بك العظمة — وزير الدفاع فى الحكومة التى كان برأسها إذذاك السيد هاشم الأتاسى — وهى الوزارة الثانية تألفت يوم ٣ مايو — تقدموا لمقاومة الجيش الفرنسى بدون استعداد . فحدثت معركة « ميسلون » فى يوم ٢٤ يوليو ، التى فتك فيها الفرنسيون بنحو ألفين من الوطنيين من بينهم وزير الدفاع . ثم احتلوا (دمشق) فى يوم ٢٨ منه ، وبقية المدن السورية .و أمروا فيصل بالرحيل فلم يملك إلا مغادرة البلاد . فمنذ ذلك الوقت بدأ عهد الجهاد و الألم و التضحيات فى تاريخ سورية

وكان على السوريين أن يدفعوا من أجل حريتهم ضرائب العرق والدماء والدموع — لمدة ربع قرن بعد ذلك .

ثورة العراق ١٩٢٠

ولكن قرارات « سان ريمو » كانت أشعلت فى نفس الوقت ثورة فى « العراق » .

فقد تيقن العراقيون بعدها من مصيرهم ، وعرفوا أنهم لا يراد بهم — على أنهم جاهدوا أحسن جهاد فى سبيل الحركة العربية ، وساعدوا الحلفاء فى أوقات شدتهم — لا يراد بهم إلا أن يظلوا خاضعين لإنجلترا ، وأن آمالهم فى الاستقلال وفى نهضة الأمة العربية قد قضى عليها .

وكان الإنجليز قد أقاموا حكومة عسكرية فى بغداد ، على رأسها الكولونيل « ولسن » ، وعينوا حكاماً عسكريين على كل المدن العراقية ، وجابوا معهم موظفين من الهنود ، وأساءوا معاملة الشعب وجرحوا كبرياءه ، غير فاهمين لنفسيته . وكان قد مضى عام ونصف على هذه الحال ، والبلاد يزداد فيها الاضطراب ، وأحوال المعيشة مختلة لعدم الاستقرار . ثم جاء الحلفاء فرفضوا قرارات « المؤتمر العراقى » ومنعوا الأمير عبد الله من الوصول إلى بغداد . هذا فى الوقت الذى أقام فيه الأمير فيصل حكومة فى سورية . كذلك كان مثل الثورة المصرية التى كانت لا تزال مستمرة ، واستطاع المصريون أن يجبروا الإنجليز على التراجع ـ كان ماثلا أمام أعين العراقيين .

فاجتمعت كل هذه العوامل لتسبب قيام الثورة العراقية ، التى كانت شرارتها القبض على بعض كبار العراقيين . فبدأت الثورة منذ يوم ٣٠ يونيه عام ١٩٢٠ ؛ وتزعمها العلماء ورؤساء العشائر ، واشتركت فيها بغدادوالفرات؛

ثم انتشرت إلى سائر الأنحاء . وكان فى طليعة قادتها الإمام محمد تقى الشيرازى — الذى خلفه عند وفاته شيخ الشريعة الأصبهانى — والسيد محمد الصدر ، وجعفر جلبي أبو التمن ، والسيد علوان الياسرى ، والشيخ محمد رضا الشبيبى ، وغيرهم .

وقد جاهد العراقيون جهاداً صادقا ، وألقوا على الإنجليز درساً قاسياً ؛ وذلك لأن الوطنية كانت متحدة مع الدين ومستمدة منه . فكانت الحركة إسلامية روحية ناجحة موفقة . وقد استطاع الثوار أن يجبروا الإنجليز على إخلاء ريف العراق ، فبقوا شبه محصورين فى المدن الثلاث الكبرى . وألف الوطنيون حكومات محلية . واستمرت الثورة إلى أكتوبر ١٩٢٠ ، بعد أن تكبد الإنجليز خسائر قدرت بنحو أربعين مليوناً من الجنيهات — ومئات من القتلى والجرحى ؛ كما قتل من العراقيين بضعة آلاف، ولكنهم ماتوا شهداء راضين مرضيين فى أقدس قضية ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون. وأنتجت الثورة أثرها ، فأخذ الإنجليز يفكرون فى تغيير سياستهم وبدأوا بالفعل فى تنفيذ سياسة أخرى .

* * *

هكذا كان الشرق العربى فى السنوات التى أعقبت الحرب يغلى كالمرجل؛ ولم يظفر بالسلام الذى كان ينشده ، وصارت تتوالى فيه الأحداث وتنفجر الثورات . ولكن هذا كان دور الجهاد أو المحنة التى يصهر فيها معدنه . وصدق قول الله تعالى : « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » وقوله تعالى أيضاً : « وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين » .

(٣)

ذروة الأزمة فى الشرق العربى

بلغت أزمة « الشرق العربى » ذروتها ، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، باحتلال الفرنسيين « دمشق » ، فى يوم ٢٨ يوليه عام ١٩٢٠ ــ وكانوا محتلين « بيروت » منذ أواخر الحرب ـ فصاروا مستولين إذن على كل سورية ولبنان.

وكان الإنجليز ـ وقد احتلوا « بغداد » منذ حروبهم مع الترك ـ قد أعلنوا عزمهم على البقاء فى العراق ، ليحكموه حكما مباشراً ، مما أدى إلى انفجار الثورة الشعبية ضدهم، فى صيف ذاك العام ١٩٢٠. وكانوا مستولين على « القدس » و « عمان » أيضاً ، منذ دخلتهما القوات الإنجليزية العربية عام ١٩١٧ . وبعد مؤتمر « سان ريمو » فى أبريل عام ١٩٢٠ قرروا استمرار احتلالها ، فصارت فى حوزتهم فلسطين والأردن ـ وذلك باسم الانتداب .

أما مصر التى اشتعلت ثورتها منذ مارس عام ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال ، فإن الإنجليز لم يقبلوا أن يعترفوا بهذا الحق إلا مقيداً بحماية مصالحهم ، فأخفقت مفاوضات « سعد ـ ملنر » التى جرت فى صيف ذاك العام ١٩٢٠ ـ وهى المفاوضات الأولى ـ وبقوا فى احتلالهم « القاهرة » و « السويس » والمدن الأخرى ، كما كانوا منذ قدموا بحجة حماية العرش ، وما قدموا إلا لحماية مصالحهم الإمبراطورية .

النتيجة النهائية

وهكذا وجد الشرق العربى أن النتيجة النهائية لتلك الحرب ، التى بذل

فيها الكثير من جهوده ودمائه ، مما كان له أثر ظاهر في انتصار الحلفاء ، والتي وعده زعماؤهم إبانها بأنهم إنما يحاربون من أجل تحريره ، دون أن يكون لهم غرض أو مطمع .

وجد الشرق أن المآل أنه قسم إلى منطقتين : (١) منطقة احتلال فرنسي و (٢) منطقة احتلال انجليزي . فالأولى تتكون من سورية ولبنان بأسرهما . والثانية تشمل الأقطار العربية : العراق ، الأردن ، فلسطين ، فمصر ــ عبر محور متصل ممتد من الشرق إلى الغرب . فاذا كانت الدولة العثمانية قد زالت ، فإن الشرق العربي لم ينل استقلاله وحريته ، بل وجد أنه عومل ــ بالرغم من مناصرته لحلفائه ــ كما تعامل دولة مغلوبة ؛ وصار إلى استعباد حقيقي فقد فيه كل شيء ، وكان عليه أن يظل خاضعاً لاستغلال وطغيان الأجانب : الإنجليز والفرنسيين .

ثورات في كل مكان

حالة كانت لا بد أن تثير السخط والغضب ، وتوجد أعمق شعور بالاستياء. فلا غرو ــ إذن ــ أن كان الشرق العربي في تلك الفترة التي أعقبت الحرب ــ كما أسلفنا القول من قبل ــ يغلي كالمرجل ثائراً حانقاً على سياسة المستعمرين وأطماعهم ، ونكثهم للعهود ونفاقهم ، وأن يهب ذائداً عن كيانه مدافعاً عن حقه : فثورة في مصر ، وأخرى في العراق ، واضطراب في فلسطين ، وحرب بالشام ، وقلق في الحجاز !

ولقد أثبتت تلك الثورات ، بعد قليل ، للمستعمرين أن تدبيراتهم لن يمكن تنفيذها بسهولة ، وأن الشرق العربي ليس كما تصوروا ــ أو كما يقولون في أمثلتهم ــ « بندقة » يسهل كسرها ! بل إنهم إذا كانوا يريدون أن يصروا

على الاستمرار فى سياسة العدوان نحوه ، فلابد أن يعدوا أنفسهم لتحمل خسائر جسيمة فى الأرواح والأموال . ولما كان الاستعمار لا يقصد لذاته ، بل لما يأتى به من فوائد اقتصادية وسياسية ، وهذه لاتتحقق إلا فى جو الهدوء والسلام ، فان المستعمرين كان لابد أن يفكروا فى تغيير سياستهم تلك ، عاجلا أو آجلا .

فأما فرنسا فكانت قليلة الخبرة ، حديثة عهد بالشرق وروح الأمة العربية فى مواطنها الأصيلة ؛ وهى — كما عرفت فى ذلك الوقت — مغرورة حمقاء ، تلجأ إلى أساليب الهمجية والبربرية . وقد ظفرت بغنيمة طالما تمنتها ، دون أن تدفع من أجلها ثمناً ثقيلا ، فما كانت تستطيع إذن فى ذلك الوقت المبكر أن تقدر عواقب ما اقترفت يداها : وكان لابد أن تنقضى بضع سنوات ، حتى يحين الوقت الذى تجبر فيه على مراجعة موقفها ، وتجد أن الأصلح لها أن تأخذ فى التراجع والانسحاب . وكان هذا الوقت سيحل حين يقوم الشام بثورته الكبرى ضد فرنسا ، عام ١٩٢٥ ؛ ولكنا نرجىء الحديث عنها إلى ما بعد قليل .

سياسة « انجلترا » :

وأما إنجلترا : فلأنها كانت أكثر حنكة ، لطول اتصالها بالشرق ، وهى أمة عملية تسودها العقلية التجاربة ، وتعترف بالواقع . وكان حدوث الثورات العنيفة فى منطقتها ، فكلفتها أموالا وضحايا — بينما كان الرأى العام فيها يطالب الحكومة بوجوب الاقتصاد فى النفقات وتسريح الجنود ، بعد ما كابد فى أيام الحرب . وربما كانت إنجلترا أحست أيضاً فى ذلك الوقت بشىء من وخز الضمير إزاء الأسرة التى قدمت لها أجل الخدمات ، وهى أسرة

الشريف « حسين » ، فقد جازتها جزاء سنمار ! . وكان الأمير « فيصل » في ذلك الوقت ، بعد أن طردته فرنسا ، مقيما في إيطاليا ؛ يوالي إرسال الكتب إلى الوزارة الإنجليزية معاتباً مستنجداً ؛ والأمير عبد الله يهدد بالثورة منذ منعته إنجلترا نفسها من الذهاب إلى العراق ، حيث كانت تنتظره فرصة كبيرة . وكان الحسين في الحجاز يحرق الأرم ، وهو يفكر في كنه الشرف البريطاني الذي وضع كل ثقته فيه ! وقد ذهب أمله أدراج الرياح في إنشاء دولة عربية كبرى متحدة ، يكون هو ملكا عليها ؛ بل كان هو نفسه غير آمن في مركزه ، وهو يرى القوة السعودية تنمو على حدوده وقد عاهدتها إنجلترا — ربما كانت إنجلترا قد أحست أخيراً بشيء من وخز الضمير ، ففكرت في أن تسترضي تلك الأسرة ، وتنتفع في الوقت نفسه بما لها من نفوذ أو تأثير روحي أو من قوة مادية ، في تثبيت مركزها في الشرق العربي ، وفي إخماد أو تفادي الثورات ، وفي سياسة الأهلين بحيث يشعرون بالرضا ويدخل في روعهم أنهم يحكمون أنفسهم ،في الوقت الذي تخدم فيه مصالح الامبراطورية، وتحكم بريطانيا بأيد عربية ومن وراء ستار .

لكل تلك العوامل إذن مجتمعة وجدت إنجلترا أنه يلزمها أن تجري تعديلا في سياستها ؛ وهو تعديل يتناول الأساليب دون الهدف ، ويتصل بالشكل والمظهر دون أن يغير الحقيقة .

مؤتمر القاهرة ١٩٢١ :

هذه هي الأسباب إذن التي دعت إلى عقد مؤتمر القاهرة » ؛ وقد بدأ انعقاده يوم ٩ مارس عام ١٩٢١ .

ورأت الوزارة الإنجليزية ضرورة حضور وزير المستعمرات نفسه « تشرشل »، ايرأسه ويشرف على إصدار وتنفيذ قراراته .وحضر معه الضابط « لورنس » ، الذي كان مستشار وزارته للشئون العربية . وقد دعي وفد من العراق ، مؤلف من وزراء عراقيين وبعض العسكريين الإنجليز ؛ تحضر برئاسة

« سير برسى كوكس » — الذى كان المندوب السامى البريطانى. وكان المندوب قد ألف وزارة عقب الثورة ، على رأسها السيد عبد الرحمن الكيلانى نقيب الأشراف ؛ وهى أول وزارة عراقيـة . فحضر الوفد ، ثم تقرر فى ذلك المؤتمر إنشاء نظام جديد بالعراق . وذلك بأن تقام حكومة وطنية تكون ملكية دستورية ؛ ويتفق على مبايعة وتتويج الأمير « فيصل » ملكا على العراق — وكان فيصل قد دعى من إيطاليا فى أواخر العام السابق إلى لندن ، للتشاور والاتفاق على تلك الخطة .

المفاوضة مع « عبد الله » فى الأردن :

وذهب وزير المستعمرات أيضاً مع لورنس إلى القدس ، واجتمع بالأمير عبد الله — وكان هـذا قد حضر فى نوفمبر من عام ١٩٢٠ إلى مكان بشرق الأردن ، ليجمع حوله زعماء القبائل ويأخذ — كما أشيع — بثأر أخيه من الفرنسيين الذين احتلوا دمشق . وهذه المنطقة(أى الأردن) ذات طبيعة عربية بدوية ؛ ونزعتها شديدة إلى الاستقلال . كما أنه كثرت فيها الاضطرابات منذ إسقاط حكومة فيصل — وهى كانت جزءاً من دولته العربية التى كان مركزها دمشق ؛ كما أنها — أى شرق الأردن — كانت دائماً جزءاً من ولاية دمشق أو الشام ، طوال الحكم العثمانى إلى بداية الحرب ، ثم جلا عنها الجيش العربى وبقى فيهـا الإنجليز . لذلك ؛ ولأن إنجلترا كانت تريد أن تقيم معقلا يحمى فلسطين والمشروع الصهيونى فيهامن أخطار الصحراء: مثل تلك القوة السعودية الناشئة على الحدود ، وتحميها أيضاً من فرنسا فى الشمال ؛ ولتكون تلك المنطقة أيضا قنطرة تصل بين فلسطين والعراق ، وهى صاحبة النفوذ فى كليهما — لكل تلك الأسباب ، ولوثوق إنجلترا بصداقة الأمير عبد الله والأسرة وإخلاصه ،

قررت إنجلترا إقامة حكومة فى شرق الأردن ، يكون لها شىء من الاستقلال الداخلى فى حدود ، يرأسها الأمير عبد الله . وقد قام « تشرشل » بالاتفاق معه على ذلك ، وتنفيذ ما اتفق عليه .

دولتان فى العراق ، والأردن :

شهد الشرق العربى — إذن — فى خلال عام ١٩٢١ هاتين الحكومتين الجديدتين ، تقيمهما بريطانيا ، خاضعتين لها وتحت إشرافها . وقد تسلم الأمير عبد الله عمله على الفور ؛ وألفت أول حكومة لشرق الأردن فى أوائل أبريل عام ١٩٢١ . وكان الوضع أن الأمير تابع للمندوب السامى فى فلسطين — وكان فى ذلك الوقت « السير هربرت صموئيل » اليهودى — وينوب عنه معتمد إنجليزى مقيم فى الإمارة ، وهذا هو الحاكم الحقيقى . وكان أول معتمد « مستر أبرامسون » .وشكلت فرقة نظامية رأسها « الكبتن بيك »، ثم خلفه «جلوب بك » ، الذى منح لقب « باشا » فيما بعد . وقد سافر الأمير مراراً إلى لندن ليفاوض حكومتها فى إعطائه سلطات أوسع ؛ فعقدت معه معاهدة فى سنة١٩٢٨، اعترفت له فيها بلفظ الاستقلال ، لكن بقى وضع ولاية شرق الأردن وكأنها مستعمرة أو محمية بريطانية . وأدت لانجلترا خدمات جليلة : فصدت قوات السعوديين . وضمت « العقبة » حين غزا ابن سعود الحجاز لتكون تحت النفوذ البريطانى . ومنعت القبائل من مساعدة الثوار الوطنيين فى سوريا ضد فرنسا عام ١٩٢٥ . وشاركت فى إخماد ثورة « رشيد عالى الكيلانى » التى قام بها فى العراق ضد الإنجليز فى عام ١٩٤١ .

دولة « فيصل » فى العراق :

وأما الأمير فيصل فقدم من لندن يوم ٣١ مارس ١٩٢١ ، ووصل إلى العراق يوم ٢٣ يونيه ؛ فاستقبله العراقيون بحفاوة ونادى به مجلس الوزراء

ملكا . ثم تمت بيعته وتتويجه فى بغداد يوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١ . وانتقل العراق بذلك من الحكم الإنجليزى المباشر إلى حكم وطنى مرتبط بالإنجليز ، وجاعل القاعدة الأولى فى سياسته التعاون معهم والإخلاص لهم ، ومحاولة التوفيق بين مصلحتى العراق وبريطانيا : أى التوفيق بين الاستقلال والاستعمار ، بين الحرية والتقييد ، بين كرامة العروبة وعزة الإسلام والتبعية لبريطانيا والذل لها . وقد عقد الملك فيصل معاهدة مع بريطانيا فى عام ١٩٣٠ قيد بها العراق ؛ وقد حددت فيها العلاقات بين البلدين ، وجعلت لازمة لمدة خمسة وعشرين عاماً ؛ فهى القاعدة التى سار عليها حكم العراق حتى ثورة ١٩٥٨ . وخلاصة أهدافها الاعتراف القانونى باستقلال العراق ، ولكن مع بقاء الحاميات البريطانية والقواعد والمطارات الحربية ، والاحتفاظ بامتيازات الزيت من الموصل ، ومع إلزام العراق بأن تكون سياسته الخارجية وعلاقاته الدولية متفقة مع مصالح بريطانيا . على أن العراق مع هذا ، ظفر ببعض من الاستقرار ، وتم فيه تنظيم الحكومة ، وأخذ الوزراء الوطنيون يعملون بهمة على تقدمه فى نواحى الإنشاء المختلفة . غير أن السياسة الاستعمارية لا بد أن تتحالف مع الإقطاع والرجعية ، وتخشى من ظهور إرادة الأمة ؛ فلا مناص فى تلك الظروف أن يظل تقدم العراق محدوداً فى دائرة لا يتعداها ، ويترتب على ذلك أن لا يكون الإصلاح من الأساس ، بل يظل قاصراً على الوضع الراهن وفى الجزئيات والأشكال .

المفاوضة مع « الحسين » :

وأرادت انجلترا ترضية « الحسين » أيضاً — رأس الأسرة — ولكن بثمن ا فتوجه « لورنس » إلى « جدة » عقب تنفيذ قرارات « مؤتمر القاهرة »

فى عام ١٩٢١ ، وعرض على ملك الحجاز مشروع معاهدة تدور على التحالف بينه وبين بريطانيا ، ولكنها تتضمن نصوصا تجعله يعترف بالأوضاع الراهنة فى البلاد العربية : أى انتداب أو احتلال إنجلترا وفرنسا لها [١]. فرفض الحسين قبول المعاهدة ، بالرغم من إلحاح أفراد أسرته عليه بالموافقة . كما عاود الإنجليز جهودهم فى سنة ١٩٢٣ لنفس الغرض ؛ ولكنهم فى ذلك الوقت طلبوا من الحسين أن يعترف بوعد بلفور وآمال الصهيونية ؛ فكان الجواب الرفض القاطع . وإذ فجع الحسين فى شرف الحكومة البريطانية ، اتجه إلى الأمة الإنجليزية فأصدر نداء نشر فى لندن يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٢٣ — وهو آخر جهد له معهم — ذكر فيه الشعب بما اشتهر عنه — حقا أو باطلا — من الشرف ؛ وقال فيه : « فلهذه الأسباب ، ألفت نظر الأمة البريطانية إلى ما حل بحلفائها العرب ، الذين لا يزالون يعدون أنفسهم حلفاءها . فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة ؛ وأخذ العالم الإسلامى خاصة والسواد الأعظم من قومى يرميانني بتهمة أنى بعت بلدانهم لبريطانيا العظمى وحلفائها . . . » .

لكن لم يكن هناك جواب لهذا النداء ؛ ففجع أيضاً فى شرف الأمة البريطانية ! ودعاه ابنه الأمير عبد الله لزيارة شرق الأردن فذهب إليها فى أوائل عام ١٩٢٤ ؛ وهناك قدم إليه تعزية أنه نادى به خليفة على الإسلام والمسلمين ، عقب إلغاء الخلافة فى تركيا فى مارس عام ١٩٢٤ ؛ ولكنها كانت الومضة الأخيرة قبيل انطفاء السراج !

* * *

الدولة السعودية :

ذلك أنه كان من أكبر التطورات التى حدثت فى العالم العربى فى الفترة

التى تخللت بين الحربين العالميتين ، ظهور قوة « الدولة السعودية » الجديدة ، التى أسسها فى أول القرن الأمير « عبد العزيز آل سعود » ، ثم اشتبا كها فى نزاع مع « الحسين » أدى إلى استيلائها على « الحجاز » .

كانت أول موقعة جدية فى « تربة » ، شرقى مكة ، فى مايو ١٩١٩ حيث هزمت القوات السعودية الأمير عبد الله وجيشه هزيمة تامة . ثم استطاع ابن سعود أن يمحو دولة « آل الرشيد » ، التى كانت تنافسه فى شمال نجـــد ، عام ١٩٢١ ؛ فأصبح الجو مهيأ انفصال مباشر بينه وبين ملك الحجاز . ولم تـكن سياسة « الحسين » الداخلية مرضية عند أهل الحجاز ، ولا المسلمين الذين يفدون إلى مـكة لأداء فريضة الحج ؛ فقـد كانت حكومته فردية شخصية ؛ وكان يفرض من الرسوم مايشاء ، ولا تقوم حكومته بأى إصلاح . كما أنه كان يتبع إزاء آل سعود سياسة استفزازية ، تقوم على التحدى . ولما فشلت جهود التوفيق بدأت قوات نجد هجومها ، فاستولت على « الطائف » فى الأسبوع الأخير من أغسطس عام ١٩٢٤ . ثم دخلت « مكة » فى يوم ١٣ أكتوبر من نفس العام . وأجبر الحسين على التنازل لابنه على ؛ وذهب يقيم فى « العقبة » ؛ ولـكن الانجليز فى يونيه عام ١٩٢٥ أرغموه على الرحيل إلى « قبرص » ، ليفصلوا العقبة من الحجاز . ومما يذكر أنه قال لبعض أخصائه عند سفره : « إنه يعترف بأنه كان مخطئاً ، وأنه لم يكن يعرف أخلاق الأوروبيين وما ينطوون عليه » ! وقد بقى فى تلك الجزيرة شبه أسير حتى قبيل وفاته . وبعد أن ظل « الملك على » يواصل المقاومة من « جدة » عاما آخر ، اضطر إلى التسليم نهائيا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

وفى ٨ يناير ١٩٢٦ نودى بالسلطان عبد العزيز آل سعود ملـكا على

البلاد الحجازية . بذلك انتهى حكم دولة الأشراف من مكة والحجاز ، بعد أن دام قرونا . وصار الحجاز متحداً مع نجد فى دولة واحدة ؛ وبدأ عهد جديد فى حياة الجزيرة العربية : عهد إصلاح وتعمير ، وتطلع إلى مستقبل مجيد للعرب فى داخل الجزيرة وخارجها . ولقد أصبحت « الدولة السعودية » منذ ذلك الوقت قوة ذات أثر كبير فى حياة العرب والمسلمين ؛ وهم يعلقون عليها آمالا كباراً لإتمام الجهد فى تحرير أوطان العرب وإكمال استقلالها ، والقضاء على الأخطار التى تهددها .

* * *

فى مصر والشام :

أما ما كان من شأن مصر والشام فى ذلك الدور :

فإن إنجلترا أرادت أن تتبع فى الأولى سياسة مماثلة لسياستها فى العراق ؛ وهى إرضاء الشعور الوطنى مع تحقيق المصالح الإمبراطورية ؛ أو هى سياسة الحكم غير المباشر بواسطة حكومة وطنية . ففى وجه الثورة المصرية ، وفشل مفاوضات « سعد — ملنر » سنة ١٩٢٠ و « عدلى — كيرزون » ١٩٢١ ، أصدرت الحكومة البريطانية تصريحها فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى اعترفت فيه باستقلال مصر ، ولكنها فى نفس الوقت تشبثت بتحفظات أربعة ، تضمن لها بقاء النفوذ — وإن كان إلغاء الحماية على كل حال كان نصراً للثورة . وقد بقى ذلك التصريح أساساً للعلاقات المصرية — الإنجليزية ، إلى وقت عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم تكن أكثر من توضيح له مع بعض التعديل . فبقيت الحاميات الإنجليزية فى القاهرة والسويس ، وظل النفوذ البريطانى

بوجه البلاد بواسطة القصر ، والوزارات الوطنية التى تعلمت الولاء والتحالف مع المستعمرين .

الثورة فى الشام :

وأما الشام فإن كارثته كانت أفدح الكوارث .

فقد أتمت فرنسا احتلال سورية ولبنان ، وأخذت تعاملهما معاملة « المستعمرات » ، ولم يكن للانتداب معنى إلا أنه كان « حماية مستترة » . ولم تكتف بالقضاء على استقلال البلاد بل إنها جزأتها إلى أجزاء منفصلة ؛ فما أشبهها بالقاتل الذى لايكتفى بإزهاق روح ضحيته ، بل يعكف على تقطيعها إربا إربا ! فمنذ يوليو عام ١٩٢٠ أقامت هناك . (١) حكومة دمشق و (٢) حكومة حلب و (٣) حكومة العلويين فى اللاذقية و (٤) حكومة الدروز فى السويداء و (٥) هذا إلى جانب أنها اقتطعت أربعة أقضية : «محافظات» ، هى : بعلبك وطرابلس وصور وصيدا — اقتطعتها من ولاية دمشق فضمتها إلى جبل لبنان، فوسعت حدوده عما كان عليه طوال العهد العثمانى قبل الحرب ، فصنعت منه ما أسمته « لبنان الكبير » ، وأعلنت انفصاله أيضاً — فضلا عن شرق الأردن وفلسطين اللذين اقتطعا لإنجلترا ، وما كانا إلا جزءاً من إقليم الشام الكبير المتوحد .

فقدت البلاد هكذا وحدتها بعد استقلالها ؛ وقد أدت هذه التجزئة إلى تدمير اقتصادياتها ، كما أن الاستعمار الفرنسى لم يكن له هدف إلا الاستغلال ؛ فأنقص سعر النقد ، وملأ الحكومة بالموظفين الفرنسيين والأرمن ، وفرض الضرائب الباهظة . وقد قضى الفرنسيون على الحريات بكل صورها ،

وطاردوا الأحرار ، وأكثروا النفى والاعتقال ، كما أنهم جعلوا أساس سياستهم « فرق تسد » ، فأثاروا العصبيات العنصرية والطائفية ، واستغلوا الدين أسوأ استغلال ، فكان حكمهم كله قائما على المحاباة والتحيز — هذا مع أن الجميع يعرفون أن فرنسا بلد ملحد ، ولكنها تظهر التعصب المسيحى فى معاملتها للمسلمين ، شفاء لأحقادها الموروثة ، وقضاء لأغراضها الاستعمارية . وقد عنوا بنشر ثقافتهم ولغتهم الفرنسية على حين أهملوا شأن اللغة العربية . واستخدموا المصاريف السرية لإفساد الأخلاق وشراء الذمة ، ونشر التجسس . ورقوا غير الأكفاء وقربوا إليهم غير الأمناء . وبالجملة ، كان حكم الفرنسيين فساداً فى فساد ! وهذا هو « الانتداب » أو الوصاية ، التى أرادتها « جمعية الأمم » ، لتنقل إلى الأقطار الإسلامية حضارتها الأوروبية !

وقد ظل أحرار السوريين يجاهدون فى أوربا وفى مصر ، عاقدين المؤتمرات مصدرين النداءات ، متفاوضين مع الساسة ، ويتكلون باسم القانون والمبادىء ، فما أجدى كل ذلك فتيلا ! فكانت البلاد إذن متهيئة للثورة .

ولما بلغ الضغط مداه وضاقت الصدور ، انفجرت الثورة عام ١٩٢٥ . وكان سببها الأخير أو المباشر هو إهانة حاكم « السويداء » الفرنسى الدروز ، وإساءته استعمال سلطته إلى حد الوحشية والهمجية . قامت الثورة أولا بقيادة الدروز ، وعلى رأسهم « سلطان باشا الأطرش » ، ثم انضمت الأمة جميعها للثورة ، واشترك فى قيادتها زعماؤها الذين كان فى مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والسيد نسيب البكرى ، وغيرهم من أبطال الوطنية الذين

ظلوا يشتركون فى تقرير مصير سـورية ولبنان وقتا طويلا بعد ذلك . وقد استطاع الثائرون أن يهزموا أو يحاصروا بعض الجيوش الفرنسية ، التى أرسلت لمحاربتهم ؛ وكبدوا فرنسا خسائر فادحة فى المال والرجال . وكان جوابها أنها ارتكبت كثيراً من الحماقات ، توجتها بضرب « دمشق » بالقنابل ، وسفك دماء النساء والأطفال الأبرياء !

كانت تلك الثورة نقطة التحول فى تاريخ سورية ، وقد ردت فرنسا إلى صوابها . ولما اقتنعت بمنطق القوة ، الذى لا يقنعها غيره ، أدركت أنه يتحتم عليها أن تغير سياستها . فأخذت منذ ذلك الوقت تفاوض الوطنيين وتسعى إلى تعقد معهم اتفاقاً ، وقد قضت فى ذلك الجهد عشر سنوات : (١٩٢٦ — ١٩٣٦) . وأخيراً عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التى لم يعتبرها الوطنيون إلا خطوة نحو الفوز بأهدافهم الحقيقية . ولكنهم لم يتمكنوا من التخلص نهائياً من الفرنسيين وطغيانهم إلا فى ظروف الحرب العالمية الثانية ، حيث هزمت فرنسا هزيمتها المنكرة أمام جيوش ألمانيا التى استطاعت أن تحتل « باريس » .

فى فلسطين :

وبينما الشعوب العربية كانت كلها مشغولة بهذا الجهاد ضد الاستعمار ، كان الإنجليز يرتكبون جريمتهم الكبرى فى فلسطين ، بإجلاء أهلها عنها وتحويلها إلى أرض يهودية .

وقد أفردنا لشرح تلك الكارثة الفصل الأخير من الكتاب . فما يرد فيه متمم للصورة التى رسمناها لأحوال الأمة العربية فى ذلك الوقت .

* * *

كانت هذه - إذن - هى أحوال الشرق العربى فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخه ، بين الحربين العالميتين .

وقد كانت كلها — كما تبين — فترة جهاد ضد الاستعمار ، وفترة صبر وتحمل للآلام ؛ ثم ظهرت فى نهايتها تباشير النصر . وإن هذا الجهاد مستمر اليوم ، حتى تتحقق كل الغايات ، وتجلى كل الجنود الأجنبية من أوطان العرب والإسلام . غير أنه إذا كانت الأمة العربية قد كسبت أكثر المعركة بالنسبة إلى الاستعمار ، فإن الذى يجب عليها اليوم أن توجه كل جهودها لكسب المعركة الباقية فى « فلسطين » ، فإن هذه هى النقطة السوداء التى يجب أن تمحى ، وهذا هو الخطر الذى يجب أن تجمع جهودنا للقضاء عليه .

* * *

وإذا كنا قد أشرنا — فى هذا الفصل — إلى بعض أحوال مصر فى تلك الفترة ، فإنها تحتاج إلى أن نفرد لها فصلا خاصا ، لشرح جهادها وتطورها منذ الحرب العالمية الأولى وما تلا ذلك . فهذه إذن هى غاية الفصل التالى .

جهاد مصر ضد الاستعمار والاستبداد

أو

مصر من الحرب العالمية حتى الثورة

(١٩١٤ — ١٩٥٢)

— ١ —

كان قيام الحرب العالمية الأولى « أغسطس ١٩١٤ »، ثم ما تلاه من إعلان تركيا الحرب على انجلترا وفرنسا وروسيا « الحلفاء »، منضمة إلى جانب ألمانيا « ٣١ أكتوبر ١٩١٤ » — كان ذلك بدء حدوث تطورات جديدة وخطيرة في حياة مصر .

اعلان الحمايه :

فقد انتهزت إنجلترا — كدأبها — هذه الفرصة ، وقررت أن تحدد مصير مصر ومركزها الدولى ، بنفسها ، دون رجوع لإرادة الشعب . وكانت قد مهدت السبيل لذلك بكبت الحركة الوطنية فى سنوات ما قبل الحرب ، ثم بإيقاف « الجمعية التشريعية » عقب بدئها . ففى يوم ٢ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت « الأحكام العرفية » — وهذه معناها « الأحكام العسكرية » ، أو الحكم العسكرى المطلق ، الذى يبطل القوانين التى تضمن الحرية والعدالة — وفرضت الرقابة على الصحف ، وحرمت الاجتماعات . ثم اتخذت قرارها الخطير ، وهو

أن أعلنت « الحماية البريطانية » على مصر ، أو وضعتها تحت « الحماية » ، وذلك فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وكان مغزى ذلك أنها قطعت صلة مصر نهائيا بالدولة العثمانية ، وغيرت صفة الاحتلال ، فبعد أن كان مؤقتا أصبح دائما : وبالجملة أرادت بهذا القرار أن تحول مصر إلى « مستعمرة » تابعة لبريطانيا ، لا تنفصم عنها . وفى اليوم التالى (٢٩ ديسمبر) أعلنت خلع الخديوى عباس عن عرش مصر — وكان غائبا فى تركيا — وعينت بدلا منه أحد أفراد الأسرة، وهو الأمير « حسين كامل » ومنحته لقب « سلطان » ؛ لكنها لم ترد — وهو بحكم تعيينه لم يكن — إلا مجرد أداة فى يدها ، وكذلك لم تكن حكومته (التى كان يرأسها حسين رشدى) إلا منفذة لرغباتها. أما الحاكم الحقيقى فكان هو « المعتمد » البريطانى فى مصر ، ومن حوله من القادة العسكريين .

أسباب ثورة ١٩١٩ .

هكذا أصبحت مصر تحكم حكما مباشراً بالسلطة العسكرية الإنجليزية . وكانت هذه الاجراءات صدمات متتالية للشعور الوطنى فى مصر ، الذى نما وتأجج منذ بداية القرن ، نتيجة جهود الزعيم « مصطفى كامل » ، ثم خليفته « محمد فريد » ، ومؤيديهما من الوطنيين الأحرار . كما أن هذا التحول القهرى كان معارضا لاتجاه التطور والتاريخ ، إذ على حين أن الشعب كان يجاهد من أجل الجلاء ، ويتطلع لتنفيذ إرادته بواسطة الدستور ، إذا به يرد — فى هذه النكسة الخطيرة — إلى الوضع الذى كان فيه قبل عشرين عاما ، فأدى هذا إلى تجمع شعور السخط فى قلوب أهل البلاد .

ثم على مدى الحرب ، تمادت السلطة البريطانية فى غيها وعسفها ، فقامت بأعمال عنيفة من القمع والاضطهاد ، جعلت شعور السخط يقوى ويحتدم . فقد

عطلت الصحف ، واعتقلت الوطنيين ونفت بعضهم ، ونهبت أموال البلاد وخيراتها . وجعلت مصر قاعدة حربية ،لمختلف أنواع جنودها من المستعمرات وجندت العمال بالقوة ، وصادرت محاصيل الفلاح ودوابه ، وترتب على ذلك حدوث الغلاء ونقص الأقوات ، فكانت البلاد فى أسوأ حال ، لكنها لم تكن تملك إلا أن تكظم غيظها فى أثناء الحرب .

وحين توفى السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، عينت الحكومة البريطانية بدلا منه أخاه الأمير « أحمد فؤاد » ، ومنحته أيضا لقب السلطان .

وقد كان نص الخطاب الذى أرسله إليه « المعتمد البريطانى » كما يلى :

« يأمر جناب وزير الخارجية لحكومة صاحب الجلالة البريطانية . .

إننى مكلف . . أن أحيط علم عظمتكم . . أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى ـ على أن يكون لورثتكم من بعدكم ، حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم » .

« وإن حكومة صاحب الجلالة مقتنعة بأن فى استطاعتها أن تعتمد فى العمل مع عظمتكم على تلك الصداقة ، التى كانت شعاراً لحكم السلطان المرحوم . . . إلخ » .

وجاء فى الخطاب الذى وجهه الأمير فؤاد إلى رئيس الوزارة « حسين رشدى » معلنا قبوله لهذا العرض :

« عزيزى . . نعلم رعايانا أنه بسبب وفاة سلفنا . .

قد توليت — بالاتفاق مع الدولة الحامية — عرش السلطنة المصرية » !

وحيث كان تعيين السلطان أحمد فؤاد ، هكذا ، بأمر من قوة الاحتلال ، وفى ظل الحمـــاية البريطانية ، كان نتيجة طبيعية ولازمة إذن أن يظل السلطان صديقاً لدولة الاحتـلال الغاصبة ، منفذاً لإرادتها ، معتمداً عليها ، شاكراً لها منتها .

ثم لاح بريق من الأمل فى سمـاء الأفق الدولى ، إذ أعلن الرئيس « ولسن » — رئيس الولايات المتحدة الأمريكية — فى ينـاير عام ١٩١٨ مبادئه الأربعة عشر ، التى كان يُقصد أن تـكون قاعدة التسويات التى تقرر فى مؤتمر الصلح عقب الحرب ؛ وكان فى مقدمة هذه المبادىء أن « لـكل شعب الحق فى تقرير مصيره » ، وأن العلاقات بين الدول تقوم على التراضى والتفاهم لا القوة والقهر . فأخذت الشعوب المظلومة — ومن بينها مصر — تتطلع إلى أن تحين لها ساعة الخلاص ، وتستطيع أن تقرر مصيرها ، وتفك عن نفسها هذه الأغلال ، التى كبلتها بها السلطة الأجنبية المعتدية الغاشمة .

وكان العرب فى الأقطار الشقيقة المجاورة قـد قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية ؛ وأسفرت الحرب عن هزيمة حكام تلك الدولة « الاتحاديين » ، فآذنت تلك الدولة بالانتهاء وأصبحت غـير ذات موضوع ؛ وقدم زعماء العرب مذكرة إلى الحلفاء ، يطالبون فيها بتحقيق آمالهم فى الاستقلال والحرية ، فأصدر الحلفاء وثيقتهم فى ٨ نوفمبر ١٩١٨ ، التى أعلنوا فيها أن الغرض من هذه الحرب إنما كان لتحرير الشعوب العربية ، وإقامة حكومات وطنية منتخبة .

وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ عقدت الهدنة ، فانتهت الحرب العالمية الأولى .

الجهاد الوطنى والوفد :

وكانت مصر على الأهبة نترقب . فنى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ تقدم « سعد زغلول » — الذى كان وكيل « الجمعية التشريعية » المنتخب — ومعه زميلان — إلى « المعتمد البريطانى » يطالب بوجوب رفع الحماية عن مصر ، والسماح لوفد من مصر أن يتوجه إلى أوربا لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح.

وفى نفس اليوم ، ألف « سعد » الوفد المصرى من سبعة أعضاء : منه رئيساً ، ومن : على شعراوى وعبد العزيز فهمى وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد ، ثم ضم إليه مصطفى النحاس وعلى ماهر وحمد الباسل وإسماعيل صدقى وآخرون . ثم نشط الوفد فى جمع التوكيلات من الأمة ليكون نائباً عنها فى تولى قضيتها ، فاستجابت الأمة بحماس ، وكانت صيغة التوكيل أو المبايعة هى : « أن يسعى الوفد إلى تحقيق استقلال مصر استقلالا تاما ، حيثما وجد للسعى سبيلا » .

بذا بدأ الجهاد الوطنى ، فى دوره الجديد عقب الحرب العالمية الأولى . وكانت الأسباب قد تهيأت — كما وصفنا — لدفع هذا الجهاد ومواصلته . وكان الشعور عاما وقويا بوجوب رفع هذه النقمة التى أنزلتها بريطانيا على مصر ، وإنهاء هذه الحماية وعارها ، وإعلان مصر دولة مستقلة حرة ذات سيادة ؛ وفى نفس الوقت كان قد وجد الزعيم الذى تجتمع فيه الصفات الممتازة المطلوبة ، التى تجعله أهلا لقيادة الأمة فى هذا الجهاد ، وهو « سعد » ، فقد كان شخصية قوية لما ماضيها ومكانتها ، ويتمتع بصفات الوطنية الصادقة والشجاعة والإرادة القوية والخبرة السياسية الطويلة .

وإزاء ذلك لم تدرك السلطة البريطانية حقيقة الموقف، ولم تقدر قوة الشعور الوطني، فرفضت مطالب الوفد ولم تسمح له بالسفر خارج البلاد. فأدى هذا التعنت والعناد إلى ازدياد المقاومة والنشاط. وفي ديسمبر، وجه الوفد نداء إلى معتمدي الدول الأجنبية في مصر مبيناً أهداف الوفد وحقوق الشعب، ولخصها بأنها «الحصول على الاستقلال التام، وإقامة حكومة وطنية دستورية».

وفي ١٣ يناير ١٩١٩ عقد الوفد اجتماعاً هاماً ألقى فيه سعد خطبة وطنية قوية، أكد فيها الاحتجاج على موقف الإنجليز، وطالب بحقوق البلاد. فكان لها أثر كبير في تعبئة الشعور العام، وتوالت الاجتماعات ومظاهر الاحتجاج، وأصبحت الأمة إرادة واحدة. حتى الوزارة التي عاونت الإنجليز في أثناء الحرب تضامنت مع الأمة، فقدم رئيسها «رشدي» استقالته؛ فوجدت أزمة وزارية، حيث لم يوجد أحد يقبل أن يتولى الوزارة وسط موجة الغضب والاستياء.

اعتقال سعد والثورة

ولم يجد الإنجليز أمامهم إلا أن يتمادوا في الطغيان. فلجأوا إلى استعمال القوة؛ وفي ٦ مارس استدعوا زعماء الوفد فأنذروهم بوجوب الكف عن نشاطهم، محمليهم مسئولية ما حدث، فرفض الوفد الإنذار، ولم يأبه بالتهديد متحديا القوة الغاشمة. فما كان من الإنجليز إلا أن ألقوا القبض في يوم ٨ مارس ١٩١٩ على سعد زغلول وبعض زملائه، وقرروا نفيهم إلى «مالطة».

فكانت هذه هي الشرارة التي أوقدت مستودع البارود؛ وانفجرت الثورة منذ اليوم التالي (٩ مارس) على الاستعمار والطغيان، وهي الثورة التي عرفت باسم (ثورة ١٩١٩).

* * *

كانت هذه الثورة نتيجة محتومة للأحداث السابقة ، وتعبيراً طبيعياً عن الشعور العام . وقد اشتركت فيها جميع طبقات الأمة : من كبار ملاك وتجار ومحامين وطلاب وعمال وموظفين ، حتى أمراء الأسرة الحاكمة ، وسارت المرأة فى مظاهرات لأول مرة . فقد كانت ثورة قومية عامة ، وكانت أهدافها سياسية واضحة محددة ؛ وهى تحقيق الاستقلال التام ، بما يقتضى من إلغاء الحماية وإزالة الاحتلال ، ثم إقامة حكومة وطنية دستورية .

استمرت الثورة فى عنفوانها ، ممتدة إلى الأقاليم ؛ وعبر الشعب عن نفسه بصور عديدة : من مظاهرات ، وقطع وسائل المواصلات ، وإضراب عام ، وتكوين الجمعيات الفدائية السرية ، وغير ذلك ؛ ولا غرو ، فقد كان شعور السخط قويا ، وارتكب جنود الاستعمار مذابح وفظائع فى أنحاء متفرقة من البلاد .

ولما أفلت الزمام ، لم يجد الإنجليز بداً من التراجع . فبعد شهر من قيام الثورة ، اضطروا إلى تقرير الإفراج عن سعد وصحبه. فغادروا « مالطة » ووصلوا إلى باريس ، وإن كان الإنجليز قد أوصدوا الباب ، ومنعوا الوفد من المثول فى المؤتمر ، وتمكنوا من أن يحملوا هذا المؤتمر — الذى كان خاضعاً لنفوذهم — على أن يقر الوضع الاستعمارى القائم ، ويوافق على بقاء الحماية ، حتى الرئيس « ولسن » صاحب المبادىء المشهورة اشترك فى هذه الموافقة .

لجنه (ملنر) والمفاوضات

لكن كل هذا لم يثبط من عزيمة الوفد والشعب ، فاستمر الجهاد فى الخارج والداخل ، مما اضطر الحكومة البريطانية أن ترسل لجنة رسمية ، على رأسها « اللورد ملنر » أحد كبار وزرائها ، للبحث فى أسباب الثورة ومحاوله التوصل

إلى حل . فوصلت اللجنة إلى مصر فى ديسمبر عام ١٩١٩ ، لكن الأمة قررت مقاطعتها ، إلا أن تعود للتفاوض مع الوفد الذى يمثل الأمة .

فعادت اللجنة فى العام التالى ؛ وأرسلت تدعو الوفد من باريس للتفاوض معه فى لندن بشأن مطالب مصر ، فتوجه الوفد ، وجرت المفاوضات الأولى — من سلسلة المفاوضات ، التى كانت ستحدث بعد ذلك — وهى مفاوضات « سعد — ملنر » فى صيف عام ١٩٢٠ ، فلم تنته المفاوضات إلى اتفاق .

نفى سعد الى « سيشل » .

وفى العام التالى ١٩٢١ ألف « عدلى يكن » الذى كان يرأس الوزارة وفداً آخر - بعد أن حدث الشقاق بينه وبين سعد - وسافر إلى لندن للتفاوض فجرت المفاوضات الثانية ؛ وهى مفاوضات « عدلى - كيرزون » : وانتهت أيضاً بالفشل . وكان سعد قد عاد إلى الوطن، ودعا لاستئناف الجهاد بقوة ، والاتحاد فى وجه المستعمر ؛ فقبضت السلطة العسكرية — للمرة الثانية — عليه وعلى بعض أعضاء الوفد فى ديسمبر ١٩٢١ ، ونفتهم إلى جزيرة « سيشل » وبعد ذلك إلى « جبل طارق » .

أصبح الموقف فى غاية الخطورة ؛ وتوالت أحداث الاغتيالات، وقرر الوفد مقاطعة البضائع الإنجليزية ، ولم يقبل أحد تأليف الوزارة بعد استقالة «عدلى»؛ فاضطر الإنجليز حينئذ إلى الرضوخ للحركة الوطنية ، وإعادة النظر فى موقفهم ، بتأثير « ثروت » وحزب الساسة المتفاهمين مع الإنجليز ، أصدرت الحكومة البريطانية التصريح التاريخى ، وهو تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى بدأ به تطور جديد فى العلاقات بين مصر وإنجلترا وفى حالة السياسة الداخلية .

تصريح ٢٨ فبراير

وخلاصة هذا التصريح أن بريطانيا اعترفت باستقلال مصر وأنها دولة ذات سيادة ، وأعلنت إلغاء الحماية البريطانية . لكنها قرنت ذلك بأن نصت على الاحتفاظ بأربع مسائل ، حتى يتم الإتفاق عليها فى مباحثات مقبلة .

وهذه المسائل هى :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى .

٣ — حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

٤ — السودان .

هذا التصريح كان تراجعاً من بريطانيا عن موقفها الأول ، وكان نصرا للثورة من الوجهة القانونية أو النظرية ؛ لكن من الوجهة الفعلية بقى الاحتلال — إلا أنه كان نصراً على كل حال ، وبدءا لعهد جديد ، ولاسيما لما اقترن به من الاتفاق على إقامة حكومة دستورية وطنية . فبناء على هذا الاتفاق ألف « ثروت » وزارته الأولى ، فى أول مارس ١٩٢٢ ، وأعلن فى برنامج وزارته العمل على وضع دستور للبلاد .

كان هذا — ولاشك — بدءاً لعهد جديد ، وكان نتيجة للثورة التى قامت فى عام ١٩١٩ ، وإن كان الوفد — الذى يمثل الأغلبية — قد أعلن رفضه لهذا التصريح ، لأنه كان استقلالا ناقصاً أو مشروطاً . لكن الخطوات التى

تلت جلبت مكاسب للبلاد ، وإذ بدأت سلطتها الداخلية تتوطد وشخصيتها الدولية تظهر . فأنشئت وزارة الخارجية المصرية ، وأبلغت الدول باعلان استقلال مصر ، وباتخاذ السلطان لقب الملكية ؛ فقد كان السلطان فؤاد أول من بادر إلى جنى ثمار هذا التطور ، على الرغم من أن موقفه كان طوال الحركة الوطنية مناوئا للأمـة ، ومعاديا لزعمائها ، ومتعاونا مع السلطة البريطانية الغاصبة .

دستور ١٩٢٣

صدر قرار الوزارة فى ٣ أبريل بتأليف لجنة من ثلاثين عضواً يرأسها « حسين رشدى » ، لوضع الدستور . فظلت اللجنة تعمل ، وفى ٣١ أكتوبر قدمت مشروعها . وكان يحتوى على مبادىء ديمقراطية، لكن « الملك » فؤاد كان غير راض فى قلبه عن هذا التطور الدستورى، حيث كان رجعياً إقطاعياً، ويريد أن يحكم حكما مطلقاً، فإن كان لابد من دستور فليكن صورة أو قناعا زائفا . فاعترض على بعض مواد الدستور ، ومنها النص على أن « الأمة مصدر السلطات » . وأخذ يحرج الوزارة حتى أسقطها فى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ — دون أن تتم عملها . وعهد بالوزارة إلى « توفيق نسيم » ، وهو أحد صنائعه ، فعمد هذا إلى إرضاء سيده بتعديل المشروع وفق هواه، وبإرضاء الإنجليز أيضا بحذف النص الخاص بالسودان . لكن هذه المحاولة قوبلت بمعارضة قوية ؛ فسقطت الوزارة . وألف « يحيى إبراهيم » الوزارة التالية فى ١٥ مارس ١٩٢٣ . وأخيراً صدر الدستور فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣؛ وهو الدستور الذى حدد نظام الحكم وظل معمولا به سنين عديدة حتى الثورة الأخيرة .

وهذا الدستور — وإن كان احتوى على مبادىء طيبة تضمن الحريات والحقوق — إلا أنه أبقى امتيازات خطيرة للملك ، كان يستطيع بمقتضاها —

إذا وجد الأدوات والظروف الملائمة — أن يجعل إرادته هى السائدة، ويكون الدستور حبراً على ورق . لـكن الدستور صدر إذ ذاك وسط موجة من التفاؤل وترك هو الأمور تسير على سجيتها ، إذ لم يكن من الممكن أن يعارض التيار فى قوته .

* * *

وزارة الشعب

وبدىء فى تنفيذ الدستور، وإجراء الانتخابات . وكان سعد قد أفرج عنه ، وعاد من المنفى ، فاستقبلته البلاد أعظم استقبال . وقرر الوفد الاشتراك فى الانتخابات ، التى كان آخرها يوم ١٢ يناير ١٩٢٤ ، وكانت انتخابات نزيهة . وظهرت النتيجة ، فكان فوز الوفد بالأغلبية الساحقة ، حيث حصل على تسعين فى المائة من مقاعد مجلس النواب . فاستقالت الوزارة القائمة . وطبقا للدستور ، دعى سعد لتأليف الوزارة فألفها فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ .

كانت هذه أول انتخابات دستورية تجرى فى البلاد ؛ وهذه أول وزاره شعبية تعتلى مناصب الحكم بإرادة الأمة . كانت صورة ديمقراطية رائعة . وكانت هذه هى القمة التى وصلت إليها جهود الثورة التى بدأت فى عام ١٩١٩، ونصراً للأمة لاشك فيه . لذا كان فرح الأمة عظيما بهذه الوزارة، إذ لم تشهد البلاد مثيلالها منذ وزارة محمود سامى البارودى وأحمد عرابى . وهكذا وصل زعيم الثورة ، الذى بدأ الجهاد الوطنى منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، إلى رياسة الدولة والحكومة.

ولـكن هذه النتيجة لم يكن ليرضى بها « الملك » إذ كان يريد أن يملك ويحـكم ؛ ويعتبر الدستور منحة منه ، والأمة رعية يجب أن تظل خاضعة له ؛

فأخذ يناوىء الوزارة ويضع العقبات فى طريقها ، وحدث صدام بينه وبينها فى عدة مسائل.

كما أن « سعدا » كان يتحدى الإنجليز ، ويتصرف كأنه رئيس دولة مستقلة ليس بها جيش احتلال . وفى صيف ذلك العام ، ذهب إلى لندن ليفاوض رئيس الحكومة الإنجليزية « ما كدونالد » زعيم حزب العمال ، فانتهت المفاوضة بالإخفاق ، وعاد ، وقد ازدادت العلاقات بينه وبين الإنجليز سوءاً فهنا التقت رغبة الملك مع رغبة أعداء البلاد ؛ ووجد الملك فى ذلك الفرصة للقضاء على هذا النصر الذى أحرزته الأمة ، والتخلص من سعد . فكان الطريق إلى ذلك أن دبرت مؤامرة لاغتيال أحد كبار الإنجليز ، وهو السير «لى ستاك» سردار الجيش فى السودان ، فجرى اغتياله فى أحد شوراع القاهرة فى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ . فقامت حينئذ قيامة الإنجليز ، وتوجه اللورد « اللنبى » على رأس قوة مسلحة ؛ فسلم سعداً إنذاراً من الحكومة البريطانية . كان هذا الإنذار يقضى بأن تدفع الحكومة المصرية غرامة قدرها خمسمائة ألف جنيه مصرى ، وبالاعتذار ، والبحث عن الجناة، وبأن تأمر الجيش المصرى بإخلاء السودان . فبعد أن أجابت الحكومة الطلبات الأولى ، قدم سعد استقالة وزارته فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ فقبلت الاستقالة فى اليوم التالى . وبذا انتهت أول وزارة شعبية بعد عشرة شهور فقط .

— ٤ —

وعهد الملك بالوزارة إلى « زيور » — وهو موظف عادى لم يكن له أى نشاط سياسى ، ولم يكن له أى سند من برلمان أو هيئة — فقام بسحب الجيش

المصرى من السودان ، وأجل البرلمان شهراً تمهيداً لحله ، وأخذ ينفذ تماماً رغبات الملك والإنجليز ، وأصبح الملك فؤاد — بواسطة رئيس ديوانه « نشأت » — هو الحاكم المسيطر .

* * *

رجعية القصر

كانت هذه نكسة للثورة ، وإجراء قصد به إذلال الأمة ، وضربة موجهة للدستور . وظهر أن الأمة لا يمكن أن تثبت إرادتها مادامت « الملكية » قائمة ، وهى مستندة إلى قوة الاحتلال . فقد استطاع الملك أن يتحدى الأمة ، ويقيل زعيمها ، وهو حائز على الأغلبية ، ومؤيد من البرلمان . ولذا صار واجباً على الأمة أن تتجه للجهاد ضد الاستبداد ، والدكتاتورية ، الممثلة فى القصر — إلى جانب جهادها من أجل استكمال استقلالها. صارت الأمة تحارب فى جبهتين : وأصبحت المعركة مزدوجة : ضد الاستعمار وضد الاستبداد .

حكم القصر — بواسطة « زيور » فى الظاهر ، و « نشأت » فى الحقيقة — حكماً مطلقاً ، طوال سنة ١٩٢٥ ، بدون برلمان . فبعد حل البرلمان الشرعى ، حاولوا أن يأتوا ببرلمان آخر: فأجروا انتخابات تدخلت فيها الإدارة ، واستعملت وسائل غير قانونية . ومع ذلك فحين ظهر أن الانتخاب جاء بأغلبية وفدية ، صدر مرسوم بحل البرلمان فى مساء نفس اليوم الذى انعقد فيه .

كان هذا العام — وماحدث فيه من إجراءات — التجربة الأولى للمحاولات التى تعددت وتشابهت ، منذ ذلك العام وإلى أكثر من ربع قرن بعده ، وصارت السياسة المصرية تسير على هذه الوتيرة ، منذ ذلك الوقت . وماحدث فى ذلك العام كان

هو الاعتداء على الدستور ، والتدخل فى الانتخابات وتزويرها ، وفرض سلطان السراى أو الاحتلال ، وتجميع الأعوان من المستوزرين والرجعيين المالئين للاستعمار وأصحاب المصالح ، الذين يملئون الولاء للقصر ، ويقفون ضد القوة الشعبية وحقوقها الدستورية . لذلك ليس من الجدى ذكر تفاصيل هذه المحاولات المتشابهة ، ويمكن الإشارة إليها بإجمال ، وإعطاء صورة عامة عن الأحداث التالية ، لأنها كلها تكون فترة واحدة .

أما كيف انتهت التجربة « الزيورية » فإن الحكومة البريطانية لما رأت أن الملك أصبح هو سيد الموقف ، وأن مندوبها السامى فى مصر قد جاوز — فى التشفى والانتقام من سعد والشعب الثائر — حده . وأن الأحوال عادت إلى الاضطراب ، وجدت أن الوقت قد حان لكى تضع حداً لطغيان الملك . فغيرت مندوبها « اللورد اللنبى » وعينت بدلا منه « لورد جورج لويد » ، فجاء وصمم على عزل « نشأت » وإبعاده من مصر .

عهد الائتلاف

وكان الأحرار الدستوريون ، بعد أن استقالوا من الوزارة ، انضموا إلى الوفد فى جهده لإعادة الحياة الدستورية الطبيعية إلى البلاد . وقرر المتحدون أن ينعقد البرلمان فى السبت الثالث من نوفمبر ، كما ينص الدستور . وفى ذلك السبت عقدوا الاجتماع فى فندق « الكونتننتال » ، وأصدروا قراراً بعدم الثقة بالوزارة . ثم تكون الائتلاف : من حزبى الوفد والأحرار فى فبراير ١٩٢٦ . وتقدموا بطلب واحد ، وهو إجراء انتخابات دستورية مباشرة ، لتأليف وزارة تحوز ثقة البلاد . فتمت الانتخابات — بعد أن وزعت الدوائر بالتراضى — وجاءت الأغلبية فى صالح الوفد ، ثم يليهم الأحرار . فاستقالت

الوزارة الزيورية . وألفت الوزارة الائتلافية الأولى ، برياسة « عدلى » فى ٧ يونيو ١٩٢٦ . وانتخب « سعد » رئيساً لمجلس النواب . فكان هذا تصحيحاً للوضع ، وإنقاذاً للحياة الدستورية بعد أن تدهورت الحال فى العام السابق ، وعلت إرادة الأمة من جديد . والواقع أن عهد الائتلاف — وقد دام نحو عامين (١٩٢٦ — ١٩٢٨) وألف الوزارة فيه « عدلى » ، ثم ثروت منذ أبريل ١٩٢٧ — كان عهد استقرار وأمن وطمأنينة ، نجحت فيه التجربة الدستورية ، وحصل فيه تقدم كبير ، إذ نفذت فيه مشروعات إصلاحية ، فى مختلف نواحى الحياة العامة . وكان « ثروت » قد دخل فى مفاوضة مع « تشمبرلين » وزير خارجية بريطانيا ، انتهت بمشروع معاهدة . وتوفى « سعد » فى أثناء ذلك : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ؛ فانتهى بوفاته عهد فى حياة البلاد ، وفقدت قوة كان لها أثر كبير فى توجيه السياسة وجهاد الأمة .

— ٥ —

فترة الدكتاتوريه

ولم يعش الائتلاف طويلا بعد ذهاب سعد . فاستقالت وزارة « ثروت » فى مارس ١٩٢٨ ، بسبب عدم الموافقة على مشروع معاهدة « تشمبرلين » . وألف الوزارة « مصطفى النحاس » ، الذى خلف سعداً فى رياسة الوفد ، فما لبث أن تصدع الائتلاف واستقال بعض الوزراء . والواقع أنه كانت هناك مؤامرة مدبرة بين القصر والاحتلال ، إذ قصدا أن يوجها ضربة إلى الوفد والدستور . فأقيلت وزارة النحاس فى يونيه من نفس العام ، وأسندت الوزارة إلى محمد محمود ، وهو زعيم حزب أقلية . فأجل البرلمان ، ثم استصدر مرسوماً بتعطيل الدستور لمدة ثلاث سنوات ، قابلة للتجديد . وهكذا تكررت التجربة

الأولى بالاعتداء على الدستور . وحكم الرئيس الجديد حكماً دكتاتورياً — بيد حديدية ، كما قال ـ مع أنه كان زعيم حزب الدستوريين ـ وأكثر من الاعتداء على الحريات ، وعرفت البلاد الصراع الحزبى المرير . فظلت هـذه الوزارة فى الحكم حتى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ ، فاستقالت ، لأن حكومة المحافظين فى إنجلترا كانت قد تغيرت ، وتولى الحكم وزارة العمال على إثر انتخابات عامة . فعزلت ممثل إنجلترا « جورج لويد » الذى كان صديقاً لرئيس الوزارة المصرية ؛ وأرادت أن يعرض مشروع المعاهدة ـ الذى وضعه وزير خارجيتها « هندرسون » ـ على برلمان منتخب يمثل الشعب .

عودة الوفد ١٩٣٠ :

فأسندت الوزارة إلى « عدلى » — على أنها وزارة انتقال — فأجرت انتخابات محايدة ، وأسفرت النتيجة عن فوز الوفد ، بالأغلبية الساحقة ، فألف « النحاس » وزارته الثانية فى يناير ١٩٣٠ ، وتوجه بعد قليل على رأس وفد إلى لندن لمفاوضة « هندرسون » ، وزير خارجية العمال ، وكادت المفاوضات أن تنجح ، لو أنها فشلت فى آخر مرحلة بسبب النص المتعلق بالسودان . وكان هذا الفشل خسارة كبيرة على الأمة ، لأن هذه كانت فرصة طيبة لإنهاء العلاقة المتوترة مع بريطانيا ، وتحديد وضع البلاد ، لتتجه إلى إصـــلاح شئونها الداخلية ، فضاعت الفرصة ، ولم تـكن هذه حـكمة سياسـية

عهد استبداد وطغيان

وكانت العاقبة خطيرة ، فقد اتفقت رغبة الملك مع الإنجليز فى الانتقام

من ممثلى الشعب ، وتوجيه ضربة جديدة ، أقوى من الضربات التى سبقت ، إلى الدستور والحقوق التى كسبتها الأمة . وعلى ذلك أقيلت وزارة « النحاس » فى يونيه من نفس العام (١٩٣٠) ، وعين إسماعيل صدقى رئيساً للوزارة الجديدة . فكان أداة للحكم المطلق ، واعتداؤه على حقوق الأمة أشد . إذ لم يكتف بتعديل الدستور أو تعطيله ، بل ألغى الدستور كلية — دستور ١٩٢٣ — ووضع من عنده دستورا جديداً ، يعطى الملك حقوقا أكثر ، وعلى الرغم من معارضة الأمة ، أجرى إنتخابات تدخلت فيها الإدارة بالتزوير ، وكون برلمانا من الأتباع . وظل يحكم البلاد ، هكذ ، حتى سبتمبر ١٩٣٣ . فعين بدلا منه « عبد الفتاح يحيى » — أحد رجال المال — فواصل نفس السياسة بصورة أخف ؛ إلى أن ساءت الحال واشتد السخط ، وتدخل الإنجليز أنفسهم لتغيير الوضع ، عملا بسياستهم وهى حفظ التوازن إذا زاد طغيان القصر عن حده ، ولظهور عوامل فى الموقف الدولى تنذر بقرب الحرب . فألفت وزارة جديدة برياسة « توفيق نسيم » ، وألغى الدستور الجديد فى نوفمبر ١٩٣٤ .

ثورة ١٩٣٥

لكن بقيت البلاد عاما بدون دستور . إلى أن أثار الرأى العام ، ووجد أنه لم ينل لا دستورا محترما ولا استقلالا جدياً . فقام شباب الجامعة بثورة فى نوفمبر ١٩٣٥ ، واشترك فيها بعض هيئات الأمة وسقط عدد من الشهداء . ثم وحد الطلبة كلمتهم ، وقرروا أن يطلبوا من زعماء الأحزاب تأليف « جبهة وطنية » متحدة ، تسعى لإعادة دستور ١٩٢٣ وتنفيذه ، ولعقد معاهدة مع بريطانيا تنهى بها المسألة المعلقة . فأمام الوحدة الوطنية ، لم يسع الملك إلا أن يصدر

الأمر في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ بإعادة دستور ١٩٢٣ . وتألفت وزارة جديدة في أول فبراير ١٩٣٦ برياسة على ماهر . فألف وفد للمفاوضة في ١٣ فبراير ، ضم ممثلي الأحزاب . ثم أجريت انتخابات حرة ، واجتمع البرلمان الجديد بأغلبية وفدية — كالعادة — في ٨ مايو ١٩٣٦ .

— ٦ —

معاهدة ١٩٣٦ وعهد فاروق

وكان الملك فؤاد قد توفي في ٢٨ أبريل ١٩٣٦ . فخلفه ابنه فاروق وكان لم يبلغ سن الرشد بعد ، فلم يتول سلطته الدستورية إلا بعد ذلك بعام وأشهر . وطبقا لمواد الدستور ألف « مصطفى النحاس » الوزارة في ١٠ مايو ١٩٣٦ ؛ وكان هو رئيس وفد المفاوضات التي جرت في القاهرة مع ممثل بريطانيا « لامبسون » ، فانتهت إلى عقد معاهدة وقع عليها جميع زعماء الأحزاب ، ما عدا الحزب الوطني ؛ وهي معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ .

لم تكن هذه المعاهدة في الحقيقة أكثر من تفصيل وتحديد لتصريح فبراير ١٩٢٢ ، مع تعديل قليل في صالح مصر . فقد أكدت المعاهدة مبدأ استقلال مصر ؛ لكنها نصت على وجوب وجود قاعدة حربية لبريطانيا في قناة السويس ، تحتلها قوة كبيرة ؛ وفي وقت الحرب لها الحق أن تحتل كل المرافق في البلاد . ومن ناحية السودان ، أبقت الوضع على ما هو عليه ، كما في اتفاقية ١٨٩٩ . أما المزايا فلم تكن أكثر من تأكيد الاستقلال القانوني ، والتمهيد لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وتمثيل مصر في عصبة الأمم . وقد ألغيت الامتيازات — فعلا — بالاتفاق مع الدول ، في مؤتمر « مونترو » سنة ١٩٣٧ ، ودخلت مصر عصبة الأمم .

وفى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ تولى الملك فاروق سلطته الدستورية .

وكان المتوقع أنه بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ يبدأ عهد من الاستقرار فى حياة مصر ، ولا سيما أن « فاروق » كان لا يزال حدثا قليل التجارب ، ولكن المناورات السياسية انطلقت على أشدها ، منذ تولى سلطته الدستورية ، طمعاً فى تولى الوزارة ومناصب الحكم . وقد لقن فاروق منذ حداثته الكراهية للوفد وللدستور وحقوق الشعب . فبدأ عهده — تحت تأثير حاشيته ورئيس ديوانه « على ماهر » — بإقالة وزارة النحاس ، وهى وزارة الأغلبية — إقالة مهينة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، وإن كانت الوزارة ارتكبت فعلا بعض الأخطاء ، واتبعت سياسة حزبية ، لكن لم يكن هذا هو الطريق للإصلاح .

فإن الوزارات التى تلتها لم تظهر أحسن منها من حيث المغالاة فى السلوك الحزبى ، فأصبح النزاع الحزبى هو طابع الحياة السياسية . وشجع فاروق ذلك إذ كان يؤيد أحزاب الأقلية ؛ وهذه الأحزاب كانت تصل إلى الحكم عن طريق مخالفة الدستور ، وإجراء انتخابات موجهة ، واصطناع برلمانات لا تمثل الأمة تمثيلا صحيحاً .

لذا كان عهد فاروق كله عهد اعتداء على الدستور — مثل عهد أبيه — بل أكثر. فلم يتول الوفد — حزب الأغلبية — فى عهده الحكم إلا مرتين: مرة حين أرغمه الإنجليز على ذلك فى وقت الحرب عام ١٩٤٢ ، لحاجتهم إلى حكومة شعبية ؛ ثم فى عام ١٩٥٠ حين اضطرته العوامل الخارجية والداخلية إلى ذلك ؛ وفى الحالتين أسرع — حينما حانت الفرصة — لإقالة الوزارتين . لذا ليست هناك فائدة من ذكر التفاصيل عن الوزارات العديدة التى تولت الحكم ؛

فكلها من نوع واحد ، طابعها المشترك الخضوع للملك وسلطة السراى ، والولاء للعرش ، وغلبة التعصب الحزبى . وتكفى الإشارة إذن إلى هذه الوزارات . فقد تولى محمد محمود الحكم من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٣٩ ، فخلفه على ماهر ، قرب نشوب الحرب العالمية ١٩٣٩ ، ثم استقال — تحت ضغط من الإنجليز — فى عام ١٩٤٠ . فحسن صبرى فحسين سرى ، إلى فبراير ١٩٤٢ — ولم يكونا إلا مجرد أداتين للملك ؛ ثم جاء الوفد — لظروف الحرب — فبقيت وزارته إلى أكتوبر ١٩٤٤ . ثم تعاقبت وزارة أحمد ماهر ، الذى اغتيل عام ١٩٤٥ ، فالنقراشى — وكانا زعيمين للحزب السعدى ، الذى انفصل من الوفد منذ سنة ١٩٣٧ — فإسماعيل صدقى مرة أخرى ١٩٤٦ ، فالنقراشى ثانية ، وعند اغتياله — لاصطدامه مع الإخوان المسلمين — فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، أسندت الوزارة إلى إبراهيم عبد الهادى من زملائه .

وزارة الوفد ١٩٥٠ :

ثم جاءت وزارة « سرى » — ١٩٤٩ — كانتقال لإجراء انتخابات ، وعودة الوفد . فأجريت الانتخابات فى مطلع عام ١٩٥٠ ، وحاز الوفد أغلبية ساحقة ؛ فدعى رئيسه « النحاس » لتأليف الوزارة فى ١٠ يناير ١٩٥٠ . فبقى الى يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، حيث أقاله فاروق بعد إعلان الأحكام العرفية ، إثر حريق القاهرة المدبر فى اليوم السابق ؛ وكانت هذه الإقالة إجابة لطلب الإنجليز ، لإنهاء حركة القنال . فتوالت فى ستة أشهر أربع وزارات : على ماهر فنجيب الهلالى ، فحسين سرى — وذلك من غير برلمان ولا انتخاب — وأخيراً الهلالى لمدة يوم واحد ، حيث قامت ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

— ٧ —

فهذه هى سيرة الحكم فى مصر من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٥٢ . ويمكن أن يوضع لهذه الفترة كلها عنوان واحد ، هو : « ديكتاتورية الملك أو طغيانه — سواء فى ذلك الملك فؤاد ، أو ابنه الملك فاروق — متخذاً (أى الطغيان) صورة سطحية ، أو قناعا ، من دستور أو برلمان ، أو بدون ذلك فى بعض الأحيان . ومستعملا أدوات من الوزاريين ، الذين يتهافتون ويتنافسون على مقاعد الحكم ، غير مكترثين بإقامة نظام دستورى ثابت ، وتوطيد أركانه وتدعيم تقاليده ، حتى يكون فى مصر حكم ديمقراطى صحيح ، وتستطيع الأمة أن تثبت إرادتها وتكون كلمتها هى العليا .

على أنه — من ناحية أخرى — يجب أن نعطى هذه الوزارات الوطنية حقها من الإنصاف ، فقد كانت « وطنية » على كل حال ، ونفذت عدداً من المشاريع والأعمال الإصلاحية ، فى مختلف نواحى حياة البلاد : فى التعليم ، والصحة ، والمجالات الاقتصادية ، والإدارة ، والقضاء ، ورفع مستوى المعيشة ، وتحسين أحوال العمال والموظفين ، وغير ذلك ، بحيث يمكن القول أن البلاد مرت بفترة نهضة لا بأس بها فى تاريخها ، نقلتها إلى عهد أكثر تقدما ورقيا مما كانت عليه قبل ثورة ١٩١٩ : أى عهد الاحتلال . فقد وجد منذ هذه الثورة وعى سياسى واقتصادى ، واجتماعى ، وانتشرت الثقافة ، وتمتع الفكر بحرية ليست قليلة . وكان التنافس بين الأحزاب يؤدى إلى تسابق فى أعمال الإصلاح ، ونشاط سياسى يقوى روح الأمة وإرادتها . ومن هنا تعد ثورة ١٩١٩ فاصلا بين عهدين . وإن مصر فى عام ١٩٥١ — بنظمها السياسية

والإدارية ، والاقتصادية والتعليمية — غيرها فى عام ١٩١٨ . ولولا استبداد « الملكية » بها ، ومحاربتها لإرادتها ، وشغلها بهذه المعارك ، لبلغت من التقدم والرقى درجة أعلى بكثير مما بلغته .

على أن آفة هذا العهد ــ من الوجهة الإجتماعية ــ أنه كان عهداً إقطاعياً ، وكان هناك سوء توزيع للملكية والثروة . فكان هناك طبقة من الرأسماليين، فى مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، وصلوا إلى حد كبير من الثراء الفاحش ، واحتكروا الثروة ، وتمتعوا بكل وسائل الرفاهية — ذلك إلى جانب السواد الأعظم من أغلبية الشعب ، الفقراء والمعدمين . والأدهى أن كثيراً من الرأسماليين كانوا من الأجانب . وفوق هذه الطبقة كلها كان يقف « الملك » — رأس الإقطاع وعميد الرأسمالية — مع أسرته المالكة لأجود الأراضى الزراعية، الذين كانوا يعيشون عيشة الترف والإسراف . وأما فاروق — وكانت تحيط به حاشية فاسدة — فإن الأمر تطور به إلى أن أصبح مثال الانحلال والفساد. كما كسرت أسرته التقاليد المرعية . فانتهى عهده بسخط الناس جميعاً عليه .

كارثة فلسطين :

وفى أواخر عهده ، منيت مصر والشرق العربى بكارثة ؛ كان وسيكون لها أخطر النتائج بالنسبة لحياة الوطن والعالم العربى كله ؛ وهى احتلال الصهيونيين لفلسطين ، وإقامتهم دولة لهم على حدود مصر .

وقد كان سوء سياسة فاروق ، والحكومات التى عينها فى عهده ، من أسباب وجود هذه الكارثة ؛ فلم يحسنوا توجيه العوامل الدولية أو الانتفاع بها ، واشتركوا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بدون استعداد أو خطة ، بل اتخذها الملك والحاشية فرصة للاتجار بالأسلحة الفاسدة وجمع المال ؛ فحوصر

الجيش المصرى ، وعقدت الهدنة فى رودس ١٩٤٩ ، وقامت دولة « إسرائيل » فى فلسطين ، أول جار على حدود مصر . وكان لهذه الكارثة أسوأ الأثر فى الشعب وعلى نفوس رجال الجيش .

* * *

أما العلاقات بين مصر وإنجلترا فى عهد فاروق ، فإن معاهدة سنة ١٩٣٦ لم تمنع السفير البريطانى من التدخل فى شئون مصر ، وزاد هذا بدرجة خطيرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية . فغدا واضحاً أمام الشعب أنه لا يمكن أن يكون هناك استقلال حقيقى مادام يوجد جيش احتلال . فما أن انتهت الحرب ، حتى قامت حركة تطالب بالجلاء . وقدمت حكومة النقراشى فى عام ١٩٤٥ مذكرة تطالب فيها بالجلاء ، فلم تصل إلى نتيجة . ودخل إسماعيل صدقى فى مفاوضات فى القاهرة ولندن ١٩٤٦ ، ولكن المشروع الذى قدمه قوبل بالرفض . فتوجه النقراشى فى وزارته الثانية ، صيف عام ١٩٤٧ ، إلى أمريكا ، وقدم شكوى مصر أمام « هيئة الأمم » ضد بريطانيا ، فلم تصنع تلك الهيئة شيئاً . ولما جاءت وزارة الوفد ، دخلت فى مفاوضات طويلة ، وحاولت أن تصل إلى اتفاق ، فلم تجد أى استجابة . وأخيراً ، اضطرت حكومة الوفد إلى أن تتخذ الخطوة الحازمة ، فأعلن رئيسها « النحاس » فى البرلمان يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ إلغاء المعاهدة ـــ معاهدة ١٩٣٦ — التى كان أبرمها . ومنذ تلك اللحظة ، نشبت شبه حرب فعلية بين المصريين والإنجليز فى منطقة القنال ؛ فقاطعهم العمال ، وجاهدهم الفدائيون: من طلاب الجامعة والجيش ؛ وقاموا هم بهجمات عدوانية على الأهالى وجنود الشرطة . ولكن فاروق خان الحركة

وعاون الإنجليز ، وحاول أن يخمد أنفاس الأمة . وظلت العلاقات مع الأعداء في غاية التوتر إلى حين قيام الثورة في يوليو ١٩٥٢ .

فهكذا وصلت الأمور كلها في عهد فاروق إلى مآس ومخاطر وأزمات ؛ وكانت المشاكل قائمة ، والأحوال تحتاج إلى إصلاح ، والرأى العام كله ساخط ينتظر التغيير . لذا لا عجب ، أنه حين قام الجيش بثورته أيدها الرأى العام ، ونجحت دون عناء ؛ فكان هناك واجبات وقضايا كثيرة لا بد أن تعمل لمواجهتها .

* * *

والخلاصة أنه — بعد استعراض أحوال مصر ، من الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ التي أعقبتها ، إلى عام ١٩٥٢ الذى حدثت فيه الثورة الأخيرة — تتضح النتيجة ويتحدد الحكم العام ؛ وهو أنه إذا كانت ثورة سنة ١٩١٩ كانت طبيعتها سياسية ، ونجحت في أن أوجدت بعدها نهضة وطنية ، إلا أن هذه النهضة كانت محدودة ، وكانت مصر بحاجة إلى ثورة أخرى ، تكمل ما بدأته تلك الثورة السابقة ؛ فتظفر بالجلاء ، وتحقق الاستقلال التام ، وتقضى على الاستبداد السياسى ، وتقيم حكم الدستور ، وتطيح بالملكية ، وتحطم الوضع الإقطاعى ، وتحرر الاقتصاد من النفوذ الأجنبى ، وتوجه مصر لآفاق أوسع في المحيطين العربى والدولى ، وتتوج هذا كله بمواجهة الكارثة التي أوجدتها الصهيونية : فتحرر فلسطين ، وتزيل هذا الخطر عن مصر والأمة العربية ؛ وبالجملة توجد نهضة وطنية وعربية شاملة . ومن أجل هذه الغايات ، قام الجيش بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، منفذاً لإرادة الأمة .

وفى الفصل التالى ، سنبين حقيقة هذه الكارثة التى حاقت بفلسطين ، وتطورها ونتائجها .

مؤامرة الاستعمار الكبرى

أو

كارثة فلسطين

بل — فى الواقع — هذه أكبر من « مؤامرة » وأكبر من أن توصف بأنها استعمارية فقط، إنها جريمة كبرى ضد الإنسانية والعدالة والقانون . وقد نتج عنها أكبر خطر على الشرق العربى فى العصر الحديث . فالواجب على كل مواطن أن يدرس حقيقة هذه الجريمة وأدوارها ، حتى يمكن أن تقدر نتائجها ، ويمكن أن يتضح السبيل لمقاومة هذا الخطر ثم القضاء عليه .

إن قلم المؤرخ ليرتجف ، وهو يحاول أن يخط أسطراً من أنباء هذه المأساة ، بل الكارثة ، بل الفاجعة !

فقلما يعرف المؤرخ فى سجل المآسى الإنسانية التى تعيها ذاكرته وما اقترنت به من آلام وأحزان ، وفيما دون من أعمال القهر والظلم والعدوان والأحقاد العنصرية والمؤامرات الدولية ، ما يضارع هذه الكارثة فى هولها أو فى فداحة نتائجها . ولكن التاريخ — بعد كل ذلك — لا ينبغى له أن يتأثر بما يدون من احداث ؛ وأولى له أن يلتزم مهمته الأصلية ،وهى أن يسجل الحقائق مجردة كما هى ، ويقدم عنها صورة صحيحة كما حدثت فى دائرة الواقع .

* * *

فى القرن الماضى :

كان اليهود ، فى القرن الماضى ، فى فلسطين لا يزيد عددهم عن عدد أفراد أية جالية أجنبية ، تعيش فى أى قطر من أقطار الشرق ، وقد قدر عددهم حينذاك بنحو ثمانية آلاف .

وبينما كان اليهود مشردين مضطهدين فى كل مكان من أنحاء أوروبا — ولا سيما فى روسيا القيصرية وبولندة والنمسا — وما كانت أوروبا ، شعوبا وحكومات ، تعاملهم أبداً طوال العصور إلا بمنتهى القسوة ، وتسومهم ألوان العذاب والذلة — كانوا يعيشون فى فلسطين وفى غيرها من أقطار العالم الإسلامي آمنين مطمئنين ، يتمتعون بكافة الحقوق المدنية والدينية ، كما لا يزالون يعيشون فى هذه الأقطار إلى اليوم .

ولكن ما كان يجول بخاطر أحد ، وما كان يحسب أحد أنه يكون فى حدود التصور المعقول ، أن هذه الأقلية الدينية الغريبة عن الديار ، والتى تركت تعيش فى فلسطين فى كنف المسلمين ، وبفضل تسامحهم وكرمهم ، واتخذت من موطنهم ملجأ تلوذ به من اضطهاد الأوربيين وعسفهم ومطاردتهم — أن هذه الفئة ستصبح فى يوم من الأيام مصدر خطر على أهل البلاد أنفسهم ، ويزداد شأنها حتى يكون لها كيان سياسى ؛ ثم تستطيع أن تتحدى السكان الأصليين ، بل تمشق فى وجوههم الحسام ، وتعلن نفسها « دولة » فى قلب البلاد ، بعد أن تكون قد أخرجت أهليها إلى حيث يعيشون فى القفر والعراء ، عيشة البدائيين فى أسوأ الحالات ، يموتون بالآلاف ، ويهدد من بقى منهم بالفناء ! ولكن هكذا شاء الاستعمار ؛ وشاءت إرادة الدول المتعصبة ضد الشرق والإسلام ، التى تحاربه أبد الدهر ولا تريد به وبأهله إلا شراً — وإن كان

هؤلاء غير شاعرين تماما بما يراد بهم ، وغـــير مدركين مدى الخطر المحدق بهم . فما شأن هذا الخطب ، وما أصل ذاك البلاء ؟ وكيف وقعت تلك الكارثة ، التي تعـــد أكبر كارثة فى تاريخ الشرق الأوسط فى العصر الحديث ؟

البحث عن ملجأ أمن

إن أبعد آمال اليهود ، التى كانوا يطمعون فى تحقيقها عمليا — حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر — كانت هى أن يجدوا ملجأ آمنا ، يأوون إليه من اضطهاد أوربا المسيحية لهم ؛ ويستطيعون أن يضموا فيه شتات أبناء طائفتهم المبعثرين فى كل صقع على وجه الأرض ؛ ويتلقون من يفد إليهم كلما طافت بأوروبا موجة من الاضطهاد . وذلك كله تحت رعاية وفى كنف أية دولة ، تكون مستعدة لأن تؤويهم ، وتعترف لهم بهذه الحقوق المحلية ، وتبسط سلطان حمايتها عليهم . هذا ، وإن كانت أنظارهم تتطلع إلى فلسطين فى المقام الأول ، حيث أن أحلامهم كانت تقودهم إلى أن يتصوروا أنه يمكنهم أن يرجعوا التاريخ إلى ما قبل نحو ثلاثة آلاف عام : أى قبل أن يستولى عليهم ويسبيهم وينفيهم الأشوريون والبابليون ، وقبل أن يدمرهم ويقضى عليهم نهائياً ، ويشردهم — كل مشرد فى الأرض — الرومان . . !

هرتزل و « الصهيونية »

لكن فكرتهم لم تصر محددة ، ولم يبدأ الدور الإيجابى لحركتهم ،وتتبلور عقيدة « الصهيونية » : — وهى المطالبة بالرجوع إلى « صهيون » — اسم القدس فى العهد القديم : — أرض الميعاد لتأسيس وطن قومى ـ إلا حين قام « تيودور هرتزل » ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للصهيونية ، يدعو إلى هذه

الفكرة بحماس ، ويضع نظاما عملياً لتحقيقها . فألف كتابه : «الوطن اليهودى» فى عام ١٨٩٥ ، الذى حدد فيه أهداف الفكرة واستحث أبناء طائفته أن يسعوا لتنفيذها ؛ وحاول أن يؤيدها بما أمكن أن يعثر عليه من حجج وأدلة .

حينئذ بدأ النشاط وتوالى عقد المؤتمرات ؛ ففيما بين عامى : ١٨٩٧و١٩١١ عقدت عشرة مؤتمرات . كان المؤتمر الأول منها فى « بازل » بسويسرا ؛ وكان من بين القرارات التى اتخذت فيه : تشجيع حركة الاستعمار فى فلسطين فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ، وتنظيم عناصر اليهود وتوثيق الروابط بينهم بإنشاء المؤسسات المحلية والدولية ؛ وإحياء الشعور القومى وتعليم اللغة العبرية وإنشاء المدارس ؛ وإيجاد صندوق توفير يهودى وجمع الأموال والمنح لتنفيذ المشاريع ؛ وقد حدد الغرض من الحركة الصهيونية حينذاك ، بأنه «السعى لإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين على أن يكون مضمونا من الدول ويعترف به اعترافاً دولياً » .

مساعى « هرتزل »

ظل « هرتزل » يواصل جهوده فى سبيل دعوته — وكان كثير من اليهود لا يؤمنون بها بل يتوجسون منها خيفة ، لاعتقادهم أنها تضر مصالح الطوائف المتوطنة فى بلاد الشرق — فطفق يعمل لتأسيس الجمعيات ، وجمع التبرعات وفتح المصارف لتمويل الحركة . حتى كان من بين جهوده أنه توجه إلى السلطان « عبد الحميد » ، وسعى لديه أن يمنح اليهود أراضى فى فلسطين ، ويفتح أبوابها لوفود المهاجرين ، فى مقابل منافع مادية وسياسية عرضها عليه . ولكن الصفقة لم تتم ، إما لأن السلطان — وقد كان ، على استبداده ، ذكيا

بعيد النظر – فأدرك خطورة الحركة ؛ وهذه إذن تعد من الحسنات التى ينبغى أن يسجلها له التاريخ ؛ وإما لأن الثمن الذى اشترطه السلطان كان باهظا ، فلم يستطع اليهود الوفاء به .

وفى تلك الأثناء ، أظهرت انجلترا عطفها على المشروع ؛ فعرض اللورد « كرومر » على اليهود أن يستعمروا شبه جزيرة « سيناء » . وذهبت بعثة بالفعل سنة ١٩٠٣ لترتاد الأرض ، ولكن صعوبات مادية من بينها قلة المياه ، قامت دون تحقيق الفكرة . فعرض عليهم ثانية وزير المستعمرات الإنجليزى : « جوزيف تشمبرلن » فى نفس العام أن يقطعهم مساحات واسعة فى شرق أفريقية ، فرحب كثير من اليهود بهذا العرض ، وعدوه على كل حال دليلا على صداقة إنجلترا وعطفها على قضيتهم – وهى الصداقة التى استمرت إلى مابعد ذلك – ولكنهم انقسموا حياله . فحين وضع الاقتراح أمام المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى عام ١٩٠٥ قررت الأغلبية رفضه ، لأن شرق إفريقية ليس « صهيون » .

وكان « هرتزل » قد مات فى عام ١٩٠٤ ، خائب الأمل ؛ غير متجاوز الرابعة والأربعين من عمره ؛ وهو يشعر أنه – على وفرة نشاطه وكثرة الجمعيات التى ألفها – لم تكن آماله تبدو قريبة التحقيق . ثم مرت الحركة فى دور جمود بعده ، وكثر الشاكون فيها ، حتى من بين صفوف اليهود ، وباتت تظهر فى أعين الساسة على أنها حماقة أو وهم وخيال ، كما صرح بذلك المستر « أسكوث » نفسه ، الذى كان رئيس وزراء انجلترا قبيل الحرب وفى أوائلها .

* * *

في الحرب العالمية الأولى :

فهكذا يتبين أنه ، حتى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، كانت « الصهيونية » تبدو وكأنها ليست أكثر من مشروع نظرى أو فكرة خيالية ؛ ولم تكن تعدو أن تكون أملا يداعب خيال بعض المتعصبين ؛ إذ لم تكن الوسائل لإنشاء الوطن القومى — فضلا عن الدولة — موجودة ؛ وما كان يمكن أن توجد .

لكن هؤلاء المتعصبين المتحمسين لم يفقدوا الأمل ؛ فبعد أن كاد اليأس يدب إلى قلوبهم إذا به يحيا من جديد ؛ نتيجة لأعمال غيرهم . ذلك لأن رجال جمعية « الاتحاد والترقى » أخذوا منذ مدة يعملون بهمة لتقويض الوحدة الإسلامية ، متبعين سياسة « التتريك » أو التعصب القومى ؛ فبذلك كانوا يهدمون بناء دولتهم بأيديهم . وكان اليهود يحسون بقرب تفكك الدولة ، وهم يعلمون نيات الدول الاستعمارية نحوها ونحو أملاكها . ثم حانت لهم الفرصة النادرة التى لا يسمح بمثلها الدهر ، حين اندفع رجال الاتحاد فى جهالة وغرور وتهور ، فاشتركوا فى الحرب الأوروبية سنة ١٩١٤ ؛ وأعلنو انضمامهم إلى جانب ألمانيا ؛ إذ أنهم بذلك العمل الطائش قد زجوا بالعالم الإسلامى كله فى أتون الحرب ، ويسروا السبل أمام مطامع الاستعمار ؛ وأعادوا فتح باب « المسألة الشرقية » على مصراعيه ؛ فحل إذن دور التصفية . وكانت هذه الطامة الكبرى ، التى لم تود فقط برجال الاتحاد والترقى ، بل كان على أمم الشرق العربى أن تدفع هى ثمن جهالاتهم ، وأخطائهم وحماقاتهم .

(وايزمان) والمؤامرات الاستعمارية :

أسرعت إنجلترا وفرنسا والصهيونية ، فعقدوا فيما بينهم حلفا على تقسيم

الولايات التابعة للدولة العثمانية والتهامها . وكانت حركة الأمل الجديدة قد أظهرت زعيما آخر، هو الدكتور « حاييم وايزمان » — ولم يكن هذا الرجل مشهوراً من قبل ، بل كان أستاذاً فى جامعة « مانشستر » وعاون الحلفاء فى صناعات الكيمياء والمفرقعات — فنهض يعمل لتحقيق الفكرة الصهيونية . وأخذت بيوت الأموال اليهودية تساوم ، وتعرض إغراءاتها ؛ وصار « وايزمان » — ومن ورائه رجال الأعمال : من أمثال « روتشلد» يؤيدونه يقابل كبار الساسة والزعماء ، حتى ظفر بأن حصل على التأييد الكامل من انجلترا لمشروع « الصهيونية » . وكانت إنجلترا فى نفس الوقت تساوم «شريف مكة» وغيره من زعماء العرب ؛ ونجحت فى أن حملته على أن يدخل فى الحرب ويساعدها بكل قواته ، دون أن يأخذ منها موثقاً صريحاً ، ومكتفياً بالخطابات السرية ، وغير شاعر أيضاً بخطورة أغراض الاستعمار أو اليهود . ولم تكن إنجلترا تنوى غير الغدر بالعرب ، ولم يكن لها من قصد إلا استغلال قواهم وجهودهم ، حتى يتيسر لها النصر . أما « وايزمان » فقد ظفر بتصريح خطير ، أعلنه وزير خارجية إنجلترا بنفسه على العالم سنة ١٩١٧ ؛ وفيه لم يدع الإنجليز شكا فى أنهم قد احتضنوا القضية الصهيونية ؛ وأنهم عاملون وسيعملون على تأييدها ورعاية الوطن القومى اليهودى منذ نشأته حتى يبلغ مرحلة نضجه .

حينئذ دخلت الصهيونية فى دورها الجديد : دورها الخطير الإيجابى ، الذى كانت له أكبر الآثار فى تاريخ الشرق .

(٢)

وعد « بلفور » ١٩١٧ :

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن الفكرة الصهيونية كانت تبدو فى نظر كثير من الساسة على أنها وهم أو حماقة ؛ وهى كانت كذلك حتى فى نظر كثير من اليهود أنفسهم . ولكن هذه الفكرة قد تغيرت وانقلبت إلى حقيقة كبيرة، وأخذت صورة مشروع عملى يوضع موضع التنفيذ والتطبيق ؛ وذلك على أثر — وبسبب — التصريح الخطير الذى أعلنه وزير خارجية انجلترا : « لورد بلفور » ، فى مجلس العموم يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ — وهو يوم ينبغى ألا ينسى فى تاريخ الشرق العربى الحديث — فإن مؤدى ذلك التصريح كان هو أن إنجلترا قد أعلنت انضمامها إلى اليهود ؛ وقد أخذت على نفسها العهد بأن تسعى وتجتهد — ما وسعها الجهد — فى أن تحقق لهم آمالهم غير المشروعة فى « فلسطين » على حساب العرب سكانها الأصليين .

* * *

كانت إنجلترا فى ذلك الوقت قد أوشكت أن تخرج من الحرب ظافرة ، وهى معتقدة بقوة حلفائها ، وقادرة على أن تملى شروطها . وقد أعلنت هذا التصريح قبيل دخول الجنرال « ألنبى » القدس بمدة قصيرة ؛ فكان ملخصاً للسياسة التى ستتبعها عند احتلال « فلسطين » . وكان هو الذروة التى انتهت إليها المؤامرة التى ظل اليهود والمستعمرون يدبرونها ويحيكون خيوطها طوال سنى الحرب ، يقصدون من ورائها تمزيق وحدة العالم الإسلامى وتقسيم شعوبه وأوطانه ، بين المستعمرين والمشردين الأفاقين ..

كان صدور ذلك « التصريح » فى صورة خطاب ، وجهه الوزير البريطانى — الذى كان على اتصال دائم بزعماء اليهود والرأسماليين فى أمريكا وأوربا — وجهه إلى لورد « روتشيلد » زعيم الصهيونيين الإنجليز ؛ وقد كان نصه كالآتى :

[عزيزى اللورد روتشيلد :

يسرنى سروراً كثيراً أن أنهى إليك — نيابة عن حكومة جلالته — التصريح الآتى ، الذى يعلن العطف على المطامح اليهودية . وقد عرض هذا التصريح على الحكومة البريطانية ، فوافقت عليه :

إن حكومة « جلالته » تنظر — بعين الرضا والتأييد — إلى إقامة وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى . وستبذل أعظم جهودها لتسهيل تحقيق هذا المشروع].

ثم أضيف إلى ذلك قيد ، لم يكن يقصد به — كما برهنت الحوادث عليه فيما بعد — غير التمويه والتغرير ، تخديراً لشعوب العرب ليستكينوا لما يراد بهم فكانت بقية الخطاب :

[على أنه مفهوم بوضوح أنه لن يعمل شىء يمس الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية ، التى توجد الآن فى فلسطين] .

— وهكذا كان التعبير المقصود به الإشارة إلى العرب —

[ولا الحقوق والمزايا السياسية ، التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر .

وأكون معترفاً بالشكر إذا تفضلت بأن تبلغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيونى] .

* * *

من أغراض الاستعمار

هكذا قررت إنجلترا بنفسها مصير فلسطين ، واعترفت بـ « الوطن القومى » ـ هذا التعبير الغامض اللولبى ـ قبل وجوده ، متجاهلة إرادة الشعب الفلسطينى ، ومتصرفة فى أرض غيرها ، كأنها مالكتها الأصيلة ، تمنحها لمن تشاء حتى لقوم غرباء لم يفدوا بعد .

فإذا بحثنا عن الدوافع التى دفعت الإنجليز إلى عقد هذا التحالف الوثيق مع « الصهيونية » وجدناها متعددة : فقد كان هناك الغرض الاقتصادى ؛ وهو سعيهم إلى الحصول على أموال اليهود لتساعدهم فى إبان الحرب وبعدها ، ورغبتهم كذلك فى تأمين طريق « البترول » إلى حيفا ؛ والغرض السياسى ؛ وهو إيجاد قاعدة فى قلب الشرق الأوسط يتركز عليها نفوذهم ؛ والغرض « الاستراتيجى » وهو تكوين منطقة حراسة ، تؤمن احتلالهم لقناة السويس وسيطرتها على شرق البحر المتوسط . ولكن إلى جانب هذا كله ، كان هناك الغرض الدائم أو الأعم ، وهو الغرض المتصل بتطور الأحداث التاريخية بين الغرب والشرق ، والذى يحدد طبيعة العلائق بينهما : وهو إرضاء ما هو مستقر فى نفوس الإنجليز وغيرهم ، من الدول الأوربية المستعمرة ، من غريزة الكراهية ونازعة الحقد على الإسلام والشرق ؛ حقد دفين ناتج عن تعصب وروح « صليبية » موروثة ، تدفع الغربيين إلى أن يعملوا دائماً على توهين قوته وتبديد شمل أهله . حتى يسهل عليهم إما القضاء على شعوبه ، أو إبقاؤهم يرسفون فى قيود الاستعباد قروناً ، وهم يتصرفون فى أمورهم كما يشاءون !

وإذا كانت « إنجلترا » هى التى بدأت بحمل هذا الوزر ، وهى المسئولة أولا عن خلق تلك المأساة المفجعة ، التى قل أن كان لها نظير فى تاريخ الإنسانية ؛ وهى التى ينظر إليها التاريخ إذن على أنها الأم التى ألقت إلى العالم بهذا المولود غير الشرعى، الذى يحمل فى وجهه كل علائم القبح وسمات الشذوذ - فإن الدول الغربية الأخرى كانت موافقة على مسلكها الآثم ، وبادرت بالاعتراف بهذا المولود غير الشرعى ، فصادقت فرنسا على « التصريح » ، وتبعتها إيطاليا ، فى خلال عام ١٩١٨ ، كما أن الرئيس « ولسن » — رئيس الولايات المتحدة — وهو الذى نادى بمبادىء تقرير المصير وحقوق الشعوب، وما إلى ذلك ، أعلن اغتباطه بصدور التصريح . وما كاد مؤتمر الصلح ينعقد عقب الحرب — وهو المؤتمر الذى منع وفد مصر من أن يتقدم إليه — حتى أذنت تلك الدول لوفد « صهيونى » أن يمثل أمامه ويقدم مطالبه ؛ فتم ذلك فى فبراير سنة ١٩١٩ . ثم قرر « مجلس الحلفاء » الذى انعقد فى « سان ريمو » فى إبريل سنة ١٩٢٠ انتداب إنجلترا على فلسطين ، وأن تكون هى المسئولة عن تنفيذ « التصريح » بإقامة الوطن القومى لليهود .

« عصبة الأمم » و « الكونجرس »

فلما تكونت « عصبة الأمم » وافق مجلسها فى إجتماعه المنعقد فى «لندن» فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ على وثيقة « الانتداب » وشروطه التفصيلية ، وكان وعد « بلفور » على رأس تلك الوثيقة . والقارىء لشروطها يراها تنطق نطقاً صريحاً بأنها وثيقة صهيونية محضة ، كتبها أو أملاها اليهود أنفسهم ؛ ثم صدقت عليها إنجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا وبقية الدول . فقد صدر

بها الوعد كأنه قرار دولى ؛ واعترفت المـــادة الرابعة منها بـ « الوكالة اليهودية » ، ونصت على أن الغرض منها أن تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين، فى كل ما له علاقة بإنشاء الوطن القومى لليهود ؛ وقررت أن واجب الإدارة فى فلسطين أن تيسر هجرة اليهود إليها ، إلى غير ذلك مما يحقق الأهداف الصهيونية تحقيقاً تاماً.

وفى نفس العام ١٩٢٢ ، وافق الكونجرس الأمريكى ـ بمجلسيه ـ على « التصريح » . وكانت الهيئات اليهودية الأمريكية تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الصهيونيين فى فلسطين ، وفى كل مكان .

* * *

انجلترا والصهيونية .

بدأ تنفيذ « الانتداب » — وهو ليس إلا كلمة أخرى للاحتلال المسلح العدوانى ـ بعد مصادقة « عصبة الأمم» منذ سنة ١٩٢٣ .

ولكن إنجلترا ـ بالاشتراك مع الصهيونية ـ كانت قد بدأته منذ دخول جيشها أراضى فلسطين عام ١٩١٨ : هذا الجيش نفسه الذى كان متحالفاً مع العرب ، وأمكن له الظفر بمساعدة « الفيلق العربى » ، الذى كان يقوده « فيصل » و « عبد الله » ابنا « الحسين » ، والذى مهدت له الطريق سواعد العمال العرب ؛ وكانت مصر قاعدته للتموين والعمليات الحربية . وكان رمز هذا التنفيذ — أولا — تأسيس « الجامعة العبرية » بالقدس فى عام ١٩١٨ ـ التى كان سيحضر « بلفور » بنفسه فيما بعد لافتتاحها ، ثم أخذت « حكومة الاحتلال » منذ الساعة الأولى تعمل بهمة ونشاط ، وتتخذ الوسائل لإنجاز المشروع الصهيونى ؛ وذلك بإرشاد اليهود ، إذ كانت « الوكالة الصهيونية »

قد قدمت فلسطين على إثر الاحتلال ، كما تبعتها جماعات أخرى عديدة من تلك التى عرفت بشدة التعصب .

وسائل التنفيذ

وكانت الوسائل الرئيسية الكبرى لتحقيق أهدافهم ثلاثة :

١ — الهجرة .

٢ — شراء الأراضى .

٣ — تأسيس المستعمرات الزراعية والصناعية .

هجرة اليهود

أما الهجرة فكانت غايتهم أن يغرقوا فلسطين بالوفود المهاجرة . حتى تكون لهم الكثرة العددية . وكان هذا هو الخطر الأكبر على أهل البلاد ، إذ أن به يتم تهويد أرضهم ؛ ولذا كان المشكلة الرئيسية .

فتحت الإدارة الإنجليزية البـــاب على مصراعيه ، وشجعت الوكالة اليهودية ، والهيئات التابعة لها فى أوربا ، الهجرة بكافة الوسائل ؛ وكان هناك الرصيد الدائم من الأموال ييسر للنازحين الطرق ؛ فلولا مقاومة الأهلين على قدر ما كان فى استطاعتهم ، ولولا ارتباط الهجرة بمدى التقدم الاقتصادى ، لبلغت نسبتها درجة أضخم وأخطر مما كانت . ومع ذلك ، فإن نسبتها كانت عالية جاوزت كل حد متوقع . فقد كان تعداد اليهود فى فلسطين عقب نهاية الحرب العالمية الأولى لا يزيد على خمسين ألفاً إلا قليلا ، فإذا به فى عام ١٩٢٢ يبلغ ٨٤ ألفاً ثم فى عام ١٩٢٥ يصل إلى ١٠٨ ألف ، ثم زاد حتى بلغ فى عام ١٩٢٧ ـ ١٥٩ ألف . فكان عدد المهاجرين فى أقل من عشر سنوات إذن

مائة ألف يهودي : منهم ٣٣٫٨٠٠ ألف في سنة ١٩٢٥ فقط . ثم تضاعفت نسبة المهاجرين في عام ١٩٣٣ ، في أثناء حكم النازيين لألمانيا . وكان أكثر المهاجرين من بولنده ، ثم من ألمانيا وروسيا ورومانيا حتى ، إن عدد المهاجرين من بولندة وحدها بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٣٧ كان ١٣١٫٢٤٩ ألف . وذلك كله بتعضيد وترحيب الإدارة البريطانية .

شراء الأراضي

سارت حركة شراء الأراضي جنباً إلى جنب مع حركة الهجرة . وكانت خطورتها البالغة من الناحيتين : القانونية والاقتصادية . وساعدت الظروف السيئة التي كان يعيش فيها أهالي فلسطين على نشاط هذه الحركة ؛ كما أن الأموال لم تكن تعوز اليهود ، فقد هاجر كثير منهم برءوس أموال كبيرة ، كما كانت هناك الأرصدة التي خصصت لهذ الغرض .

المستعمرات

بذل الصهيونيون أعظم النشاط ، واستخدموا خبراتهم ومعارفهم الفنية إلى أقصى حد ، لتأسيس المستعمرات الزراعية والصناعية حتى كثر عددها وأحرزت قدراً من النجاح . وكانت حكومتا الاحتلال فالانتداب متحيزة لهم دائما — وهذه هي الحقيقة التي يسجلها التاريخ — تحابيهم وتؤثرهم بكل شيء ؛ ولا غرو فهي ما وجدت إلا لخدمتهم . فما أعطتهم — مثلا — : امتياز « الكهرباء » — وهو مورد اقتصادي هائل — واستخراج البوتاسيوم من البحر الميت ، وما عدا ذلك . وهكذا استمرت المؤامرة الصهيونية الإنجليزية ضد أهالي فلسطين في طريقها .

* * *

هذه هى أعمال « انجلترا » فى فلسطين من عام ١٩١٨ ؛ وهى تثبت بكل وضوح وجلاء أن الانتداب الذى أعطتها أياه جمعية المستعمرين التى كانت تسمى « عصبة الأمم » لم يكن إلا ستاراً لإنفاذ أبشع صفقة عرفها التاريخ : هى صفقة بيع شعب بأسره لشراذم من وافدين غرباء ، نظـــير رشاوى من أموال وامتيازات سياسية ونحو ذلك ؛ ولقد نفذت باسم ما أسموه « القانون الدولى » ! ! .

وفى أول الأمر لم يتبين شعب فلسطين حقيقة المؤامرة التى حيكت له ، ولم يدرك خطورة الأهداف التى ترمى إليها ؛ وكانت الأمة العربية أيضاً فى ذلك الوقت مشغولة برد العدوان الأوروبى الذى داهمها أو شدد قبضته عليها عقب الحرب ؛ ثم إذ أخذت الحقيقة تتكشف رويداً رويداً ، ورأى أهل البلاد وفود المهاجرين وسيول الأموال تتدفق على أرضهم ، فأيقنوا أن وطنهم فى خطر ، هبوا للدفاع عن كيانهم ! كان سخط الفلسطينيين وحنقهم مستمراً ، فقاموا بثورات متعاقبة : فى أعوام ١٩٢٠ و ١٩٢٥ و ١٩٢٩ و ١٩٣١ ، قابلها الإنجليز بمنتهى العنف والقسوة : بالسيف والنار ! ثم لم يجدوا بعد ذلك بداً من القيام بثورتهم الكبرى فى عام ١٩٣٦ .

وكان الوعى العربى فى ذلك الحين قد أخذ ينمو وينتشر ، فأدركت شعوب العرب أن المؤامرة تشملهم جميعاً ، وأن الخطر على الأبواب ؛ وأن ضياع فلسطين هو ضياع للوطن العربى بأكمله ، وأن المؤامرة ليست ضد العرب فقط ، بل ضد الإسلام والشرق . فأصبحت قضية فلسطين هى قضية الأمة العربية بأسرها ، بل قضية الإسلام .

(٣)

ازدياد الهاجرة

أخذ الشعور بخطر « الصهيونية » يزداد ، بتزايد أعداد المهاجرين إلى « فلسطين » ؛ وذلك على إثر استيلاء رجال « الحزب الوطنى الاشتراكى » على مقاليد الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، وقيامهم بتطهير وطنهم من اليهود ، لما ظهر منهم من الغدر والخيانة فى أثناء الحرب العالمية الأولى . فبينما كان عدد المهاجرين عام ١٩٣١ . . ٢٥ فقط ، إذا به يرتفع فى الأعوام التالية : فيصير فى سنة ١٩٣٢ ٩٥٥٠ ، ثم فى سنة ١٩٣٣ ٢٧ر٣٠٣ ، ثم يثب سنة ١٩٣٤ فيصير ٣٥٩ر٤٢ ، وفى سنة ١٩٣٥ يبلغ ٧٢٤ر٦١ . ورحبت الدول الأوروبية ، ومن بينها انجلترا ، بتحويل العدد الأكبر من النازحين إلى الشرق الأوسط ؛ لأنها فى نفس الوقت الذى تتظاهر فيه بالعطف عليهم ، تريد أن تتخلص منهم من بلادها ، ولا تقصد أن تنصفهم إلا على حساب غيرها : أى العرب ، ذوى الحمى المستباح !

ثورة العرب سنة ١٩٣٦

لم يكن بد إذن ، وسكان فلسطين يرون أنهم قد أغرقوا ويغرقون بأمواج المهاجرين المتتابعة ، من أن يقوموا بثورة عارمة أرادوا بها الإعلان عن حقهم والذود عن كيانهم ، ومحاولة إيقاظ ضمير العالم الميت الذى خنقته المطامع والشهوات والأحقاد ، الناشئة عن التعصب القومى والدينى والإغراق فى عبادة المادة ، والأثرة تلك التى تتجلى فى نفوس المستعمرين الأوربيين والأمريكيين من مسيحيين ويهود . فكانت إذن ثورة العرب الكبرى فى عام ١٩٣٦ التى استمر فيها إضرابهم ستة أشهر كاملة ، وخرج أبطالهم يقاتلون فى الجبال والوديان ؛ فكانت الطائرات

الإنجليزية تدك معاقلهم وقراهم بالقنابل دكا! وهكذا أصبحت فلسطين — الأرض المقدسة — فى حالة حرب . وكان أول أثر لذلك هبوط نسبة الهجرة فى السنوات القليلة التالية ، كما أن هذه كانت أول مرة شعر فيها الإنجليز بقوة العرب .

ولم تجد إنجلترا بداً من معالجة الحالة — بطريقتها الخاصة — فأرسلت لجنة للتحقيق رأسها لورد « بيل » — نائب الملك السابق فى الهند — فأخذت تحقق وتستجوب ، وكان العرب قد قاطعوها فى بداية الأمر ثم اتصلوا بها بعد ذلك ، وأخيراً أصدرت تقريرها فى يوليه ١٩٣٧ .

لجنة « بيل » وتقريرها

اعترف تقرير هذه « اللجنة » ببعض الحقائق

فقرر أن أسباب الثورة راجعة إلى رغبة العرب فى الحصول على استقلال بلادهم ، ومعارضتهم للوطن القومى اليهودى ، وبالتالى خوفهم من سيطرة اليهود . كما سجل أن العرب يأخذون على حكومة الانتداب تحيزها للصهيونية ، وأنها لم تحقق مانصت عليه وثيقة انتدابها من العمل لإقامة الحكم الذاتى فى البلاد ، خشية إغضاب الصهيونيين الذين كانوا لايزالون أقلية : فبينما تهمل بريطانيا تنفيذ البنود التى تخدم مصالح فلسطين والعرب ، تعنى بتنفيذ تلك التى تحقق مطالب اليهود : مثل تيسير الهجرة ، وشراء الأراضى من العرب ، وما إلى ذلك . وتضمن التقرير عدة توصيات ، بعضها جاء بعد فوات الوقت ، وأتى بعضها مناقضاً للبعض الآخر . ولكن أهم ما جاء به وهو العلاج النهائى الذى قدمه لحل المشكلة ، أنه اقترح تجزئة أو « تقسيم » فلسطين إلى ثلاثة أقسام . وكان هذا أول ظهور لفكرة التقسيم فى ثوب رسمى . وهى فكرة وردت من إنجلترا ! . فاقترح أن يكون القسم الساحلى مع مايليه من سهول خصبة لليهود ،

والقسم الداخلى الذى يكون مع شرق الأردن كتلة واحدة يكون للعرب ، وبينهما دولة الانتداب التى تفصل بينهما : وتشمل رقعتها القدس وبيت لحم والناصرة ، وتشرف على كليهما بمقتضى معاهدتين تبرمهما مع كل منهما على حدة .

ولما كانت هذه « التجزئة » لوطن واحد محدود المساحة معناها اقتطاع الجزء الأكبر من الوطن العربى فى فلسطين للانجليز واليهود ، مع الاعتراف بشرعية وجود الأخيرين الذين ما هم غير مغتصبين ، واستمرار خضوع البلاد لنفوذ الاحتلال دون أن تنال استقلالها ـ كان طبيعياً أن يكون نصيبها الرفض . وكانت على كل حال اقتراحاً غير عملى لم يرض به أى طرف . ولم يجد العرب حينئذ أمامهم إلا أن يستأنفوا الجهاد ، فعادت الأمور كما كانت إلى الاضطراب . وقابلت الحكومة البريطانية هذا السعى المشروع نحو الاستقلال ودفاع أهل فلسطين عن وطنهم بكل قسوة وعنف ! فخربت القرى ، وسجنت الأحرار ، وأقامت المحاكم العسكرية فى كل ناحية . ثم حلت اللجنة العربية العليا واعتقلت أعضاءها فنفتهم إلى « سيشل » ـ وإن كان « المفتى » استطاع أن ينجو إلى بيروت ثم إلى العراق . هذا بينما تنعم « الوكالة اليهودية » فى أحضان حكومة الانتداب آمنة ، تنظم شئونها وتدبر خططها المستقبل فى طمأنينة ورضا ! .

* * *

أزمة الانتداب

وهكذا وجدت « إنجلترا » نفسها وجهاً لوجه أمام أزمة ، عجزت أساليبها الدبلوماسية الخداعة أو العسكرية الصارمة عن حلها . وظهر فشل « انتدابها» أمام العالم فشلا ذريعاً ، بعد مضى عشرين عاماً على وعد « بلفورها » الشهير .

فلم يكن لأعمالها من نتيجة إلا أن حولت أرض فلسطين المقدسة — أرض السلام — إلى ميدان حرب ، وخضبتها بأنهار من دماء !

أرغمت تلك الأحداث وغيرها إنجلترا على أن تفكر فى موقفها وتدرك خطورة النتائج التى أوصلتها إليها أعمالها ، فكان لابد لها أن تتراجع ، ولو قليلا ، وتأخذ فى تعديل سياستها ، ولاسيما والسحب المنذرة بالشر ، الموعدة بقرب هبوط حرب عالمية ثانية ، كانت تتجمع وتتكاثف فى أفق العلاقات الدولية ، وكانت قوة « الفاشستية » تبدو خطراً لايمكن تجاهله على نفوذ بريطانيا فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

تضامن العرب

وحوالى ذلك الوقت ظهرت قوة جديدة كان على إنجلترا أن تحسب لها حسابها ؛ فكان لظهورها أثر كبير فى مؤازرة قضية العروبة فى فلسطين: تلك هى قوة الشعور العام المشترك بين الشعوب العربية بالوحدة فى الأهداف والمصير، والتجاوب لما يصيب أياً منها من خير أو شر .

فإنه فى ذلك التاريخ تمكنت تلك الشعوب من أن تختتم مرحلة فى حياتها، كانت كل منها فى خلالها مشغولة بشئونها الداخلية ، وما يقتضيه واجب كسب معركتها ضد قوى العدوان والرجعية ، منذ أن دهمها الاستعمار فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وفور انهيار الدولة العثمانية ؛ فكانت تلك الفترة مابين عامى ١٩١٨ — ١٩٣٦ الفرصة الثمينة التى اغتنمها الاستعمار والصهيونية لتنفيذ مؤامرتهما فى فلسطين . ولكن منذ سنه ١٩٣٦ بدأت مرحلة جديدة من حياة شعوب الشرق العربى : فإن سوريا ولبنان تمكنتا من عقد معاهدة مع فرنسا

١٩٣٦ اعترفت فيها الأخيرة لها بالاستقلال والسيادة مع بعض القيود ، كما تمكنت مصر من عقد معاهدة مع إنجلترا فى نفس العام ، كانت على كل حال خطوة كبيرة نحو تحقيق أهدافها التامة فى الاستقلال والسيادة . وبرزت شخصيتا هاتين الدولتين العربيتين على مسرح السياسة العالمية . وكان العراق قد أخذ يتمخض عن ثورات عنيفة ضد الاستعمار تحت زعامة مليكه الفتى « غازى » ، ويتوثب حيوية على قضية العروبة . وكان قد أصبح لشرق الأردن صوت مسموع فى تقرير مصير السياسة الدولية ، فيما يختص بالشرق الأوسط ؛ كما أن الحجاز كان قد انتهى من تثبيت دعائم دولته التى بدأت منذ سنة ١٩٢٦ ، حين انتهى عهد أسرة « الأشراف » من مكة ، وعقد صلحه مع اليمن عام ١٩٣٥ ، واعترفت مصر بحكومته فى عام ١٩٣٦ . وأخذت الدولة السعودية الجديدة ـ الغنية بثروتها البترولية الطائلة التى اكتشفت حديثاً ـ تظهر عاملا قوياً فى محيط السياسة العربية .

لجنة (وود هد)

كل هذه الأحداث والتطورات — مع خوف إنجلترا على مصيرها فى أثناء الحرب العالمية ، التى كانت ستهب قريباً — أرغمت إنجلترا ، بعد أن يئست من أن تحل القضية بتقارير لجانها التى ألفتها (فإنها كانت قد حولت تقرير « بيل » إلى لجنة الانتدابات بعصبة الأمم ؛ وهذه بدورها طلبت موافاتها ببيانات عن طريقة تنفيذ المقترحات .

فاضطرت الحكومة الإنجليزية إلى تأليف لجنة أخرى برئاسة « وود هد » التى قدمت تقريراً آخر فى نوفمبر ١٩٣٨ اقترحت فيه مشروعات أخرى للتقسيم .

ثم قررت إنجلترا أنها كلها مشروعات غير قابلة للتنفيذ ، وأعلنت إعراضها عما ورد بالتقارير — أرغمت تلك التطورات إنجلترا على أن تشرع فى خطة جديدة ، وأن تعترف بقوة الرأى العام للعالم العربى ، الذى أخذ يعلن استنكاره — بكل قوة — لسياسة بريطانيا الجائرة ، والذى اعتبر قضية فلسطين قضية الشعوب العربية جميعاً .

* * *

مؤتمر المائدة المستديرة

فحيث استمرت الاضطرابات عبر سنتى ١٩٣٧—١٩٣٨ ، قررت إنجلترا أن تدعو إلى عقد « مؤتمر المائدة المستديرة » فى لندن فى أوائل عام ١٩٣٩ ؛ الذى دعت إليه زعماء وممثلى الدول العربية جميعها . وتظاهرت بأن غرضها السعى للتوفيق بين العرب واليهود ، فدعت إليه ممثلى اليهود أيضاً ، تبحث الأمر مع كل فريق على حدة. عقد « المؤتمر » فى سان جيمس بلندن (يناير-مارس ١٩٣٩). وكان اجتماع مندوبى الدول العربية : مصر ، العراق ، سورية ، لبنان ، شرق الأردن ، الحجاز ، اليمن ، وفلسطين — النموذج الأول لاجتماع « الجامعة العربية » التى كانت ستنشأ بعد بضع سنوات — وكان اجتماعاً رائعاً — كما أنه كان فى دعوة إنجلترا لهم ومفاوضة حكومتها معهم الاعتراف شبه الرسمى بقوة العالم العربى .

تدخل امريكا

وفى الفصل التالى والأخير ، سنبين تطور القضية منذ مؤتمر المائدة المستديرة وصدور « الكتاب الأبيض » ١٩٣٩ إلى نهاية الحرب الفلسطينية

١٩٤٩ . وفى خلال هذا الدور الأخير حدث تطور خطير فإن أمريكا قد حلت محل إنجلترا فى مماضدة الحركة الصهيونية ؛ وصار اليهود يعتمدون على أمريكا بدلاً من إنجلترا . فأصبحت أمريكا العامل الأول المؤثر فى سياسة الشرق الأوسط ، وأكبر خطر يهدد أمن وحياة الشعوب العربية والإسلامية. فهى تقف منذ ذلك الوقت — بتأييدها للصهيونية ضد العرب — موقف العدو الأول للعروبة والإسلام معاً .

(٤)

نتائج المؤتمر :

لم يسفر « مؤتمر المائدة المستديرة » — الذى عقد بلندن فى أوائل سنة ١٩٣٩ عن نتيجة مرضية . وكان هذا — على أية حال — أمراً متوقعاً ؛ إذ أنه ما كان من الممكن ولا من المعقول أن يحدث توفيق بين صاحب الشىء ومغتصبه ، أو بين المجنى عليه والمعتدى ، مادام العدوان قائماً وعملية الاغتصاب مستمرة .

ولكن هذا « المؤتمر » ، من ناحية أخرى ، كانت له بعض نتائج ذات أهمية كبيرة : فمن ذلك أنه أعطى العرب فرصة ثمينة — كانوا من جانبهم متيقظين لها ؛ فلم يدعوها تفلت من بين أيديهم — استطاعوا فيها أن يتصلوا بالمسئولين الإنجليز اتصالا مباشراً ، وأن يعرضوا عليهم وعلى الرأى العام البريطانى قضية « فلسطين » عرضاً وافياً ، مؤيداً بالأدلة القوية والبراهين ؛ وكانت الاضطرابات التى حدثت فى الأرض المقدسة واحتجاجات الدول العربية — وفى مقدمتها مصر — قد لفتت الأنظار إلى تلك القضية ؛ فلأول مرة بدأ الرأى العام فى بريطانيا يدرك وجهة نظر العرب إدراكا صحيحاً ، ويشعر بشىء من العطف على العرب ، الذين كانوا يهاجمون فى ديارهم ، ولم يكن من قبل يسمع إلا دعايات اليهود وأباطيلهم التى لم يألوا جهداً فى ترديدها ونشرها ؛ وما كان رجل الشارع الإنجليزى يعرف — فى الغالب — عن « فلسطين » أكثر مما ذكر « العهد القديم » : من أنها كانت مسكناً

لبنى إسرائيل ، فما داموا — هكذا يؤدى به منطقه السديد الذى لا يشو به شائبة — قد سكنوها قبل ثلاثة آلاف أو ألفى عام ، فمن حقهم إذن أن يعود مدعو اليهودية من مختلفى الأجناس إليها ؛ أو بعبارة أخرى إن العالم ينبغى أن يعاد تقسيم خريطته وفقاً لما جاء فى « العهد القديم » الذى كتبه اليهود ! ! !

صدور « الكتاب الأبيض » :

نتيجة لهذا الاتصال إذن ، وأيضاً لما طرأ من تطور على الأحداث العالمية، وحرص إنجلترا على أن يكون العرب مؤيدين لها فى أثناء نشوب حرب ، وأيضاً لشعورها بأن هذا الكائن العجيب الذى ألقت به للعالم ، عن طريق الإثم ، قد أخذ يتحول إلى مخلوق شاذ غريب التصرفات ! يخرج عن طاعتها، ويريد أن يفلت من زمامها ، فأحست من جانبه بالخطورة ، وما أرادته إلا أن يكون خاضعاً لها — نتيجة لهذا كله ، ظهر تحول فى السياسة الإنجليزية ، أفصح عنه « الكتاب الأبيض » الذى أصدرته إنجلترا بعد انفضاض المؤتمر (مايو ١٩٣٩) ، وناقشه البرلمان الإنجليزى فوافق عليه فى صيف ذلك العام ، بالرغم من معارضة بعض الغلاة : من أمثال « تشرشل » و « إمرى » .

وقد حددت إنجلترا فى هذا الكتاب السياسة التى قررت أن تتبعها فى حكمها لفلسطين ؛ وهو وثيقة تاريخية لا تقل فى أهميتها عن وعد « بلفور » نفسه ، ويعتبر معدلا وموضحاً له . وكان صدوره ولا شك نصراً للعرب من بعض الوجوه ، كما كان خذلاناً للصهيونية ، التى ظلت تكسب انتصارات منذ صدور الوعد المذكور .

* * *

السياسة الجديدة :

يمكن تلخيص التغيير الذى طرأ على السياسة الإنجليزية — بصفة عامة — بأن إنجلترا تحولت من التأييد المطلق لليهود ، إلى التأييد المقيد .

وقد ظهر هذا التغيير فى أن « الكتاب الأبيض » قد أعلن أن إنجلترا لا تنوى إقامة « دولة يهودية » فى فلسطين — وكان هذا فى الواقع تأييداً لتصريح سبق أن أعلنته فى سنة ١٩٢٢ ، وإن كانت أعمالها قد أدت إلى عكس ما كان يرمى إليه — كما نفت فى الوقت نفسه أيضاً أن وعودها على لسان معتمدها « مكماهون » فى سنة ١٩١٥ للشريف « حسين » قد تضمنت أن تكون فلسطين داخلة فى حدود الدولة العربية المستقلة ، التى وعدوه أن يملك عليها . وكان هذا تمحكا وتنصلا من الوعد — بدون شك — لأن أى دولة عربية على هذا النحو لابد أن تكون شاملة لفلسطين ، التى ما هى إلا الجزء الجنوبى من قطر الشام .

وقررت إنجلترا أن هدفها أنها ستعمل على تكوين حكومة مستقلة لفلسطين ، مرتبطة معها بمعاهدة ، من الجنسين : العربى واليهودى ، وذلك فى مدى عشر سنوات ، مالم يطرأ مايضطرها إلى التأجيل . وستعمد إلى إشراك العنصرين فى إدارة الأعمال بنصيب متزايد ، وبنسبتهما العددية . وبعد خمس سنوات يكون الأمن فيها قد استقر ، بوضع دستور للبلاد . ثم اعترفت انجلترا — وكان هذا أهم ما احتوى عليه « الكتاب » — بأن الهجرة هى أس البلاء وسبب الاضطرابات — ولكن هذا الاعتراف جاء بعد فوات الأوان — فاعتزمت إنجلترا تقييد الهجرة : وذلك بأن قررت بأن يسمح بدخول ٧٥,٠٠٠ مهاجر فى مدى خمس سنوات ، بمعدل ١٠,٠٠٠ كل عام ، يضاف إليهم ٢٥,٠٠٠

آخرون ، وذلك لكى تبلغ نسبة اليهود ثلث عدد سكان فلسطين كلها . ثم لا يسمح بعد ذلك بقبول مهاجرين إلا بموافقة العرب . وأوضح الكتاب أن موارد فلسطين وإمكانياتها الزراعية والصناعية لا يمكن أن تسمح بقبول أكثر من هذه النسبة ، دون أن يكون فى ذلك أكبر الخطر على السكان الأصليين .

الحرب العالمية الثانية:

فلما عرض هذا الكتاب على مجلس « عصبة الأمم » رفضه بإجماع الآراء محتجاً بأن هذه السياسة تتعارض مع أغراض الانتداب — مما دل على أن تلك العصبة كانت خاضعة لتأثير الصهيونية خضوعاً تاماً — إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية فى ذلك الظرف أطاح بالقرار ، كما قضى على « العصبة » . وأتى بجديد من التطورات . فكان فى مقدمتها أن اشتدت وطأة « النازيين » على اليهود — إذ كانوا دائماً موضع الاشتباه — فحشدوا فى معسكرات الاعتقال ، وحلت مؤسساتهم وصودرت ممتلكاتهم ، كما طوردوا فى كل بلد دخلته الجيوش الألمانية . وقد أدى ذلك إلى ازدياد عدد النازحين ، فأخذت أمريكا وإنجلترا نصيبا ، ولكنهما أرادتا أن يرسل الجزء الأعظم إلى وطن العرب ، فلسطين المنكوبة ! وبادر اليهود فأظهروا استعدادهم لمساعدة الحلفاء فى جهودهم الحربية : انتقاما من « هتلر » أولا ، واهتبالا لفرصة الحرب ليدبروا مؤامرتهم ويحكموا خططهم فى غمرتها ثانيا ، ولينالوا جزاءهم أيضاً بعد النصر . ولا سيما وقد أخلد العرب إلى الهدوء بعد قيام الحرب ، ووضعوا قضية « فلسطين » على الرف ، ولم يترددوا فى أن يضعوا كل مواردهم فى

خدمة الحلفاء المستعمرين ، دون أن يأخذوا عليهم المواثيق ، ويستخلصوا منهم الضمانات للمستقبل ، ، فى تلك الظروف التى كانوا أحوج مايكونون فيها إلى مساعدة العرب ، وأكثر مايكونون استعداداً للاتفاق معهم .

أمريكا تحتضن الصهيونية

غير أن اليهود ظلوا حانقين على إنجلترا — بالرغم من أنها هى التى أنشأت لهم الوطن « المغتصب » ، وبالرغم من خدماتها الجليلة التى ظلت تقدمها لهم أكثر من عشرين عاماً — وذلك لتقييدها « الهجرة » كما أعلنت فى كتابها الأبيض ، ولإصدارها قانوناً أيضاً فى عام ١٩٤٠ يقيد عمليات شراء الأراضى التى كانت تمولها الهيئات الصهيونية العالمية . فلما دخلت أمريكا الحرب أخذوا يولون وجوههم شطرها وقد أدركوا أن إنجلترا قد استنفدت أغراضها فيما يتعلق بخدمة قضيتهم ، وهم واثقون على كل حال أنها لن تتخلى عنهم برغم انصرافهم عنها ، لكراهيتها العميقة للعرب والإسلام .

ولم يكن اليهود بحاجة إلى جهد كبير ليظفروا بضم أمريكا إلى جانبهم وتأييدها لمطالبهم ؛ فهى تعطف على الصهيونية منذ نشأتها . ولليهود فيها النفوذ القوى فى دوائر المال والصناعة ؛ ولهم سيطرتهم على وسائل الدعاية والصحافة . كما أن أمريكا تجهل - أكثر من زميلتها إنجلترا - أحوال الشرق والعرب ، ولم يبق لها من مسيحيتها إلا مجموعة أفكار خاطئة عن الإسلام ، وشعور بالتعصب ضده ، وهى تذكر « فلسطين » أيضاً على الصورة التى وردت عنها فى « العهد القديم » ولا تعرف ماطرأ من تطورات ، فى مدى ألفى عام ، على تلك البلاد منذ ذلك العهد ، وفى طليعتها إنقاذ الإسلام والعرب للأرض المقدسة من ظلم واضطهاد

البيزنطيين والرومان ، الذين استمروا فيها نحو سبعة قرون ، ثم بقى نوره وسماحته يشرقان عليها منذ ذلك الحين ، ثلاثة عشر قرنا أخرى .

وإن إنضمام « أمريكا » إلى اليهود - بهذا التعصب وذاك الجهل - كان أكبر تطور طرأ على القضية الفلسطينية منذ ظهورها ؛ وهو الذى حولها من مجرد قضية . . . فجعلها كارثة ، وأية كارثة !!

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

(٥)

اليهود فى الحرب الثانية :

اتخذ اليهود الحرب ستاراً لإعداد قوة حربية وتكوين جيش، وصاروا يجمعون الأسلحة والمؤن ويدخرونها، ويحولون « مستعمراتهم » إلى معاقل.

ووجدوا فى الحرب فرصة نادرة للتدريب العسكرى. فبلغ عدد من انضم منهم إلى صفوف الحلفاء خمسة وعشرين ألفا. وألفوا الجمعيات الإرهابية. فظهرت عصابات « الهاجانا » — أى الدفاع — و « أرجون زفاى لومى » — أى الهيئة الوطنية الحربية — و « إشترن »، نسبة إلى زعيمها وهو طالب شاب. وكان أحد أفراد هذه العصبة ذلك الذى اغتال فى عام ١٩٤٥ فى القاهرة لورد « موين » أحد أقطاب المحافظين. ولما كانت انجلترا ظلت متمسكة بمبدأ تقييد الهجرة، وكان الصهيونيون يريدون فتح الباب على مصراعيه ليغرقوا فلسطين بوفود المهاجرين، فقد نشطت تلك العصابات لترغم الحكومة الإنجليزية — بأعمال القتل والتدمير والهمجية - على نقض قرارها. وأدت هذه الحالة إلى ازدياد الاضطراب واختلال الأمن. على أن « الوكالة اليهودية » كانت تتظاهر دائما بالولاء لحكومة الانتداب، وتتنصل من جرائم الإرهابيين، مع أنها كانت تشجعهم فى الحقيقة سراً، كما أنها تيسر الوسائل للمهاجرين ؛ فلم ينقطع ورودهم إلى فلسطين طوال الوقت، خاصة وبمختلف الطرق.

وقد بلغ عدد اليهود فى نهاية سنه ١٩٤٤ ٥٥٤ر٠٠٠ من عدد السكان الذى كان إذ ذاك ١ر٧٦٥ و ٠٠٠

* * *

أمريكا تطلب زيادة الهجرة :

وإذا كانت إنجلترا ، بعد تجارب مرة قاسية دامت نحو ربع قرن قد وصلت إلى هذه النتيجة . وهى ضرورة تقييد الهجرة والحد من المطامع الصهيونية الجامحة ، فإن أمريكا — وقد أتت عقب الحرب سنة ١٩٤٥ لتمد الصهيونيين بقوة دافعة جديدة — لم تكن لها أية تجارب سابقة ، أو حنكة أو دراية . فكان تدخلها مبعثا لأكبر الشرور ، وظلما فادحا لا مثيل له ، ومحطما لأى أمل فى السلام فى فلسطين أو الشرق الأوسط . وإذا كان لهذا التدخل نتيجة واضحة فإنه قد كشف أمريكا على حقيقتها وبين أنها دولة « بروتستانتية » متعصبة ، وأنها تعمل للاستعمار واستغلال الشعوب مثل أخواتها الدول الأوربية .

سارع « ترومان » — الذى خلف « روزفلت » فى رئاسة الولايات المتحدة — إلى الطلب من إنجلترا أن ترخص بهجرة ١٠٠ر٠٠٠ يهودى إلى فلسطين ؛ وأخذ يضغط عليها لتحقق هذا الطلب . وكانت أمريكا قد خرجت من الحرب صاحبة الكلمة الأولى فى الشئون الدولية ، وهى الدائنة لإنجلترا المنقذة لها ، فما كان من انجلترا — ولا سيما أن للصهيونية نفوذاً كبيراً فى دوائر حزب العمال — إلا أن نقضت سياستها التى كانت أعلنتها فى الكتاب الأبيض وقررت فتح باب الهجرة بنسب معينة ، وإن كانت قد ذكرت أن هذا إجراء مؤقت ، إلى أن تصدر اللجنة المشتركة التى اقترحت

تكوينها قرارها فى مسائل الهجرة والإقامة وغير ذلك .

تقرير لجنة « هتشسن »

وجاء تقرير هذه اللجنة ، التى رأسها « هتشسون » : القاضى الأمريكى — ١٩٤٦ — مؤيداً لطلب « ترومان » ؛ وداعياً لإنجلترا أن تلغى قوانين تحديد الهجرة والملكية ، وإن كان لم يوافق على فكرة إقامة دولة لليهود ، ونصح بأن توضع فلسطين تحت وصاية هيئة الأمم .

ولما كانت إنجلترا لا تستطيع إلا أن تطيع أمر أمريكا ، وهى فى الوقت نفسه توازن بين المصالح المتناقضة ، فقد عادت إلى فكرة « التقسيم » لتوزع الغنائم بينها وبين أمريكا . وتم بينها وبين أمريكا اتفاق سرى على الخطة التى ستتبع ، والتى اعتزمتا أن تنفذ بالقوة والدهاء .

تحويل المشكلة الى « هيئة الأمم »

أعلن مستر « بيفن » (فبراير ١٩٤٧) أن المشكلة القائمة لا يمكن حلها بالمفاوضة ؛ وأنه ليس للحكومة المنتدبة أن تعطى فلسطين لليهود أو للعرب ، أو أن تقسمها بينهما (كذا) . فلم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام هيئة الأمم المتحدة . وقد دعيت الجمعية العمومية للهيئة للنظر فى الأمر : (أبريل ١٩٤٧) . فتقرر تأليف لجنة قيل عنها إنها ستكون محايدة ، لتحرى حقائق النزاع — كأنه لم يكن معروفا بعد . وقد بدأت هذه اللجنة ، التى رأسها القاضى السويدى : « ساندستروم » عملها منذ يونيه من ذلك العام . وجالت بالأقطار العربية ، واستمعت لآراء الفريقين ، ثم قدمت تقريرها فى سبتمبر إلى الجمعية العمومية . وكانت خلاصة تقريرها التوصية بالتقسيم .

وتحت تأثير أمريكا والدول الاستعمارية ، وبين المؤتمرات والمناورات، وإغراءات الصهيونية للمندوبين بالرشاوى وغيرها ، اجتمعت الجمعية العمومية ، فلم تصغ إلى صوت المنطق والعدل ، وصمت آذانها عن حجج أصحاب الحق ، وقررت أن تجعل الاغتصاب أمراً مشروعاً ، وتمزيق الوطن الواحد إلى شطرين متحاربين سياسة صواباً وإخراج الناس من ديارهم ليحل محلهم غيرهم من الغرباء عملا إنسانياً مهما استتبع من مآس وفواجع .

وهكذا أصدرت قرارها فى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . وهو يقضى بتقسيم « فلسطين » إلى دولتين : عربية ويهودية . ووضعت بنفسها الخرائط الموضحة لحدود التقسيم . ومعنى هذا القرار أن يكون لليهود كيان دولى فى فلسطين ، تعترف به الدول وتضفى عليه صفة الشرعية ، وهو ما قام فى الأصل إلا على أساس الاغتصاب والانتهاب ، ولم يمكن تنفيذه إلا بالسيف والنار اللذين استخدمتهما إنجلترا طوال حكمها لفلسطين ، بالقوة وعلى الرغم من إرادة أهلها. وكان هذا القرار آخر التطورات التى بدأت منذصدور وعد « بلفور » ، والثمرة التى أسفر عنها الانتداب البريطانى فى مدى ثلاثين عاما : (١٩١٧ — ١٩٤٧).

* * *

نتائج التقسيم

رفض العرب القرار وما كان لهم إلا أن يرفضوا ، وبالرغم مما أثار من عاصفة سخط واحتجاج شديدين بين الشعوب العربية ، فإن أمريكا — متعاونة مع إنجلترا — صممت على تنفيذه ؛ إذ كان لابد لها أن ترضى اليهود لتحرز أصواتهم وتنتفع بنفوذهم، ولابد أن تطيع قرار « مؤتمر الكنائس البروتستنتية»

الأمريكية ، الذى انعقد فى خلال الحرب ؛ وقد طالب بأن تسلم فلسطين من المسلمين إلى اليهود ، ولا بد أن تقيم دولة غريبة فى قلب الشرق العربى ، تكون خاضعة لها ؛ وبمثابة قاعدة حربية وسياسية يقوم عليها نفوذها ، ولا بد أن تدق إسفينا فى جنب الأمة العربية ، يظل يهدد أمنها وحياتها ومصيرها ، حتى يستمر ضعفها وتكون فيما بعد لقمة سائغة للاستعمار ، ويسود النفوذ الأمريكى والإنجليزى فوق هذه المنطقة أبداً .

سارت الأمور إذن وفق خطة مرسومة . فكان لا بد لإنجلترا أن تعلن إنهاء الانتداب حتى يمكن قيام النظام الجديد ، ولا بد أن تنسحب من ذلك الجزء فى فلسطين الذى تقرر أن تتخلى عنه لليهود .

انهاء الانتداب :

وقد أعلنت إنجلترا أن الانتداب سينتهى فى أغسطس سنة ١٩٤٨ ثم قدمت الميعاد فجأة فيما بعد إلى ١٥ مايو من نفس العام . وأخذ اليهود يستعدون للحرب التى كانوا يعرفون أنها قادمة لا محالة ، وهم واثقون من مناصرة الدول لهم حتى إذا هزموا . وهب عرب فلسطين يدافعون عن أنفسهم ووطنهم ، ووفدت عليهم جموع المتطوعين من البلاد العربية — وفى طليعتها مصر — فأظهر الجميع آيات البطولة والبسالة ، وجاهدوا جهاداً مشكوراً .

حرب فلسطين ١٩٤٨

ففى يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وقد أتمت « إنجلترا » إخلاءها لفلسطين ، أعلن « ترومان » — رئيس الولايات المتحدة — فى نفس اليوم ، اعتراف أمريكا ـ وكانت أول دولة تفعل ذلك ـ اعترافها بدولة « إسرائيل » : أى الدولة التى لم تولد بعد ـ أعلن اعترافه بها قبل وجودها . فكان هذا كشفاً للمؤامرة

التى دبرها منذ وقت طويل . ثم تبعتها « روسيا » أيضاً فى الاعتراف، وتلتهما سائر الدول. وتبين أن الجريمة « دولية » ، وأن اليهـود استطاعوا أن يكتلوا العالم ضد العرب .

فـكانت نتيجة الحرب التى بدأت فى يوم ١٥ مايو من ذلك العام ؛ حين دخلت الجيوش العربية أرض فلسطين لتحول بين الصهيونيين وبين احتلالها ـ كانت نتيجتها معروفة مقدما ، يضاف إلى ذلك أن أكثر الدول العربية نفسها التى دخلت الحرب كانت مقيدة بوحى الدول الاستعمارية ، أو مرتبطة معها فى أحلاف . لذا فإن الحرب لم تـكن حربا جـدية ، وكانت فى الواقع مهزلة مأساة ، فى وقت واحد !

فهناك إذن كثير من الأسرار المتعلقة بهـذه الحرب ، وموقف الدول الشرقية والغربية منها .

ولا تتم الصورة أمام التاريخ للوقائع التى حدثت ، إلا إذا نشرت كل الوثائق والمذكرات المتصلة بتلك الحرب، وما نتج عنها، وأذيعت كل الأسرار. فيكفى المؤرخ إذن الآن أن يشير إلى بعض هـذه الأسرار بأن يطرح هـذه الأسئلة ؛ وهى :

لماذا جرد أهل فلسطين من سلاحهم وهم الذين كانوا يدافعون عن بلادهم مستميتين ؟ ولماذا تقرر إشراك الجيوش العربية النظامية وشل أو معارضة حركات المتطوعين ؟

ولماذا دخلت هذه الجيوش ـ أو زج بها إلى الحرب ـ بدون استعداد ، وبأسلحة فاسدة ؛ ودون هدف محدد ؟ وقوص بحياتها وغوص بشرفها ؟ .

ولماذا اشتركت فى القتال دون توحيد للقيادة ، أو اتفاق على الخطة ، أو تنسيق بين الأعمال ؟

وكيف خدع الساسة والقادة ، فإذا بإنجلترا تفاجئهم بإخلاء « حيفا » ـ أكبر ثغر فى فلسطين ـ قبيل نشوب القتال ، ليدخلها اليهود ؟ ثم تسلم لهم « اللد » أيضاً ـ وهى أهم نقطة مواصلات ـ ليحتلها اليهود فى أثناء القتال؟ وكيف رضى رؤساء العرب أن يكون القائد الأعلى لهم القائد الإنجليزى الإستعمارى « جلوب باشا » ؟ وكيف صدرت الأوامر إلى الجيش العراقى ـ وقد كان قاب قوسين من النصر — بالتقهقر ؛ وكشف إذ ذاك جناح الجيش المصرى ، فتعرضت بعض وحداته للحصار ؟

ومن أخطر الأسئلة التى ينبغى أن توجه أيضاً : ولماذا وافق الساسة والقادة على إعلان الهدنة الأولى ـ وقد كان النصر ملازماً لهم — بعد أن سفكت الدماء وضحى بالأرواح ، فضاعت الدماء عبثاً ؛ وأعطوا بذلك الأعداء الفرصة لكى يتموا استعدادهم ويستوردوا الأسلحة من كل الجهات؟ ثم كيف قبلوا — أيضاً — الهدنة الثانية؟

وهكذا ؛ وهكذا . . . إلى آخر أسئلة لا تنتهى !

هدنة « رودس » ١٩٤٩ :

ثم كانت نهاية المطاف عقد الهدنة فى رودس فى مارس ١٩٤٩ . فانتهت الحرب وكان فى مقدمة نتائجها أن شرد أكثر من تسعمائة ألف عربى ، تركوا يهيمون على وجوههم يقابلون الجوع والفناء ! وخرجت دولة اليهود هى دولة مترامية الأطراف : تمتد حدودها من سوريا وبحيرة طبرية فى الشمال ، إلى ميناء « أيلة »

على « خليج العقبة » فى الجنوب . وتضم أهم مدن فلسطين وموانيها ، وتشمل أيضا منطقة النقب ، والقسم الأكبر من القدس .

فها هى ذى الآن دولة قائمة ، فى قلب الشرق العربى الإسلامى — لم تعد مزعومة كما كان يقال عنها — هى الجار الأول الملاصق ، لكل من الأقطار العربية : مصر ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، والحجاز . تعترض بين هذه الدول كلها ؛ وتقطع المواصلات بينها ؛ وتقوم خطراً ملموساً كبيراً على كل منها . ثم هى — بعد هذه الجولة الأولى — تستعد ليوم آخر أو أيام ، تتمنى أن تحقق فيها ما بقى من مطامعها — ومطامعها ، كما لا يخفى أبناؤها — أن يمدوا حدود دولتهم — كما يقولون — من الفرات إلى النيل !

فهذا هو الخطر الذى يجابه الشعوب العربية الآن . بل إنه أكبر خطر تعرض له الشرق العربى منذ عهد الحروب الصليبية .

التصريح الثلاثى ١٩٥٠ :

وإن « إسرائيل » فى ذاتها ما كانت لتكون لها هذه الأهمية ، لولا أنها هى يد أمريكا وإنجلترا ؛ وهى قاعدة الاستعمار لهما ، وهى أداتهما لتنفيذ العدوان . وقد اتفقت أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، فأصدرت إعلانها فى مايو سنة ١٩٥٠ ؛ وفيه تضمن هذه الدول بقاء حدود إسرائيل على ما هى عليه : أى أن الدول الثلاث ضمنت أو تعهدت بالمحافظة على إسرائيل، حتى لا تقدر أية دولة عربية على أن تسترد أى حق لفلسطين . فهذه الدول ، ومعها غيرها ، تقف مساندة لإسرائيل ، تؤيدها فى عدوانها ، وتمدها دائما بالأسلحة . وقد ازدادت هذه المساندة بعد ذلك حين أخذت القومية العربية فى الظهور[١] .

---

(١) يلاحظ أن فرنسا غيرت سياستها بعد عدوان ١٩٦٧ فى عهد الرئيس «ديجول» .

(وبعد) فهذه هى قصة الـكارثة التى حاقت بفلسطين العربية ؛ هذه هى قصة دولة « إسرائيل » ، وقصة المؤامرة الاستعمارية الـكبرى ، أو الجريمة الدولية .

وهكذا قامت « إسرائيل » ـ تؤيدها دول الاستعمار ـ تتحدى العرب وأمة العرب وتاريخ العرب ! وأوجدت بينها وبين العرب معركة الحياة أو الموت .

أما ماذا سيكون جواب العرب على هذا التحدى ؟ وكيف سيعملون — أو هم بدأوا العمل بالفعل — ليردوا هـذا العدوان ، ويدافعوا عن بلادهم وأوطانهم ؟ وكيف سيعيدون للوطن العربى وحدته ، ويؤكدوا استقلاله ؟ ويطهروه من المعتدى الغاصب ؟

وكيف سيخرجون ظافـرين منتصرين ، فيثبتوا وجـــودهم ، ويستأنفوا رسالتهم ؟

فأما هذه الأسئلة وأمثالها ، فإن الذى سيجيب عنها إنما هو المستقبل ؛ وهو المستقبل القريب ، الظافر المشرق ، بعون الله .

إسرائيل جريمة الاستعمار

إسرائل ليست ظاهرة منفصلة أو قائمة بذاتها ، ولكنها أثر الاستعمار أو نتيجته . وهى متلازمة معه ، ولا بقاء لها إلا فى حمايته ورعايته .

وإذا كان الاستعمار القديم الذى أوجدها قد اندثر أو قضى عليه بفضل الجهاد العربى ، فإنها تحاول أن تبقى الآن فى حماية الاستعمار الجديد ، وهو الذى لا بد أن تقضى عليه الأمة العربية أيضاً .

فإسرائيل ما هى إلا ظاهرة شاذة مفتعلة ، مضادة لسير التاريخ ، ومناقضة لروح العصر والمدنية المتقدمة . ولذا فإن نهايتها محتومة ، ومقضى عليها بالزوال — وذلك إذا أجمعت الأمة العربية أمرها ، واتخذت الوسائل القوية الحاسمة ، لتطهير الوطن العربى من هذا الأثر الأخير للاستعمار ، وهو بقية عصر باد ، أو يوشك أن يصل إلى نهايته .

* * *

بدأ وجود هذه الحركة فى أواخر القرن الماضى ـ التاسع عشر ـ وكان هذا الوقت هو الذى بلغ فيه الاستعمار الأوربى ذروته . فكان يتسابق ويتدافع للوثوب على الأقطار فى آسيا وإفريقيا ، ومنها بلاد الشرق الأوسط . وجاء الاحتلال البريطانى لمصر ـ ١٨٨٢ ـ نذيراً بما ينوى الاستعمار أن يفعله بالدولة العثمانية ، والأقطار العربية المتصلة بها . فحينئذ فكرت جماعات من اليهود ،

المكروهين فى أوربا ، أن هذه فرصتهم ليلحقوا بركاب الاستعمار ، ويلتقطوا قطعة من بلاد الدولة العثمانية . وولوا أنظارهم نحو فلسطين بالذات ، لأوهام وخرافات تملأ أذهانهم ، ولأطماع عدوانية يخفونها حتى تتمكن أقدامهم . فظهرت إذن الحركة الصهيونية ، وهى السعى للعودة إلى صهيون وفلسطين . فلم تكن إلا جزءاً من حركة الاستعمار العامة ، ومن موجة الاندفاع نحو الشرق العربى ، الذى كانت الدول الأوربية تتطلع إلى تقسيمه والتهامه.

* * *

وحانت الفرصة حين انضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا ضد بريطانيا وحلفائها ، فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فحينئذ اقتربت لحظة التقسيم . ونشط زعماء الصهيونية ، فاتصلوا برجال السياسة البريطانية والتقت الأغراض ، وتم الاتفاق على المؤامرة .

فقد كان هؤلاء الساسة من غلاة المستعمرين وأصحاب العقلية البائدة ، الذين يعملون لبناء الإمبراطورية ، وتوسيع حدودها ، ويعتقدون أن الاستعمار البريطانى سيبقى إلى الأبد . كما أنهم كان يستولى عليهم — أيضاً — ويوجههم تعصب دينى ، فهم متأثرون بكتب اليهود وأساطيرهم ومعتقداتهم ، ويشاركونهم الحقد والكراهية للدولة العثمانية والعرب والإسلام . وهذا الجيل من عتاة المستعمرين هم الذين حكموا بريطانيا ، وتصرفوا فى شئون الشرق الأوسط ، وذلك من بدء الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية . وأولهم « دزرائيلى » (وهو يهودى الأصل) ثم جرانفل ، وتشمبرلين ، وسلسبرى ، ولانسدون، وبنرمان ، وبلفور ، ولويد جورج وتشرشل .

* * *

وكانت سياسة الاستعمار إزاء الشرق العربى قد تبلورت فى تقرير خاص كتبه خبراء وزارة الخارجية البريطانية (فى عهد وزارة «بنرمان») فى عام ١٩٠٧، وجاء فى هذا التقرير :

« إن الخطر ضد الاستعمار يكمن فى البحر المتوسط ، فعلى الشواطىء الشرقية والجنوبية لهذا البحر يعيش شعب واحد ، تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والترابط ، هذا فضلا عن ثرواته الطبيعية ونزعته للتحرر . فلو أخذت هذه المنطقة بالوسائل الحديثة ، وإمكانيات الصناعة الأوربية ، وانتشر التعليم بها ، فستحل الضربة القاضية بالاستعمار الغربى . فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة ، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر ، وهذا يستلزم فصل الجزء الإفريقى فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى . وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشرى قوى وغريب ، يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقيا ، حيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة » .

ولما حانت الفرصة فى أثناء تلك الحرب ، عرض زعماء الصهيونية على المستعمرين الإنجليز مشروع إنشاء وطن لليهود فى فلسطين ، واستطاعوا أن يقنعوهم بأن هذا — إلى جانب إرضائه لميولهم الدينية — فيه مصلحة للاستعمار وتثبيت للنفوذ البريطانى فى الشرق العربى ، وحراسة لموارد البترول وقناة السويس ، وكان الاستعماريون إذ ذاك فى أزمة اقتصادية ، فوجدوا أن الاتفاق مع الصهيونيين - فوق أنه يحقق مطامعهم الإستعمارية - سيؤدى أيضا إلى مساعدتهم للخروج من الأزمة ، لانضمام الرأسمالية اليهودية العالمية

إلى جانبهم ، وعملها ضد الألمان فى داخل وطنهم بالخيانة ، وسعيها لإشتراك أمريكا فى الحرب إلى جانب الحلفاء .

* * *

ومن الوثائق المثبتة للعلاقة الوثيقة بين المشروع الصهيونى والاستعمار الرسالة التى وجهها الزعيم الصهيونى « وايزمان » إلى الشعب البريطانى والمسئولين ونشرتها صحيفة « المانشستر جارديان » ، والتى قال فيها . . « ألا ترون أنه يمكننا الآن القول بأنه إذا أصبحت فلسطين ضمن منطقة النفوذ البريطانى ، ووافقت بريطانيا على إقامة مستعمرة يهودية فيها تحت الحماية البريطانية ، فإنه فى خلال عشرين سنة نستطيع أن يكون لنا هناك مليون يهودى أو أكثر ، يشكلون حراسة عملية لقناة السويس ؟ » ! !

ومما يثبت ذلك أيضاً ما قاله « تشرشل » فى جلسة مجلس الوزراء التى تمت فيها الموافقة على تصريح « بلفور » ، وهذا هو نص كلامه من محضر الجلسة بتاريخ أول نوفمبر سنة ١٩١٧ — قال : « إن قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين يخدم أهداف بريطانيا ، من حيث أنه يساعدها على مواجهة تناقض المصالح الحاد بينها وبين العرب . هذا الوطن القومى لليهود فى فلسطين سوف يكون عازلا يفصل بين العرب فى شرق سيناء والعرب غرب سيناء .

ثم إن هـذا الوطن القومي لليهود — الذى سيكون بحاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد الامتداد العربى الواسع ـ سوف يبقى دائماً فى أحضان الغرب ، الذى يستطيع فى أى وقت أن يستعمله كقاعدة ، ضد أى تهديد لمصالح الإمبراطورية البريطانية فى مصر من ناحية أو فى العراق من ناحية أخرى . كذلك فإن هذا الوطن القومى اليهودى سوف يشغل العرب ، ويمتص طاقاتهم أولا بأول » .

وفيما يتعلق بالمشاعر الدينية، التي كانت تحرك الساسة الإنجليز وكانت تقترن بالتعصب، فإن « وايزمان » - الذى كان على اتصال مستمر بهم - يقول فى مذكراته :

« ينسبون إلى فضل الحصول على تصريح « بلفور » . . ولكن الحقيقة أن السبب لفوز اليهود فى الحصول على وعد من بريطانيا بإنشاء الوطن القومى اليهودى هو شعور الشعب البريطانى المتأثر « بالعهد القديم » (توراة اليهود) وإن رجالا من أمثال بلفور وتشرشل ولويد جوج كانوا متدينين من أعماق قلوبهم، ومؤمنين بما ورد فى هذا الكتاب، ونظروا إلينا معشر الصهيونيين كممثلين لفكرة يعتقدون فيها ويجلونها » .

* * *

فكانت نتيجة كل هذه العوامل — السياسية والدينية — إذن أن أصدر اللورد (بلفور) وزير خارجية بريطانيا — وكان أحد هؤلاء المستعمرين المتعصبين — تصريحه المنكود المعروف فى نوفمبر ١٩١٧، وذلك بالنيابة عن حكومته، وهو الذى أعلن فيه تأييد بريطانيا للأغراض الصهيونية، وتعهدها بأن تبذل أقصى ما فى وسعها لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

صدر هذا التصريح فى صورة خطاب وجهه وزير الخارجية إلى اللورد (روتشيلد) — أحد كبار الصهيونيين الرأسماليين — ولم تكن بريطانيا قد دخلت فلسطين بعد، ولم يكن لها أى حق، قانونى أو دولى فيها، فكان وعداً صادراً من غير ذى صفة، ودون رعاية لحق شعب فلسطين فى تقرير مصيره، فكان تصرفا باطلا .

(وقد أثبتنا نص هذا التصريح فى الفصل السابق) .

* * *

هكذا كان بدء هذه الجريمة ، أو هذا المشروع الصهيونى الذى أسموه فيما بعد « إسرائيل » . وقد كان ــ كما بينته هذه الحقائق ــ مشروعا استعماريا يهدف إلى تحقيق مطامع الإمبرياليين البريطانيين وأتباعهم الصهيونيين ، وتدفعه مشاعر دينية تعصبية نابعة من معتقدات ضالة .

وقد وضع هذا المشروع وأخذ فى تنفيذه، دون اعتبار لإرادة شعب فلسطين بل دون نظر إلى وجوده ، فكان مشروعا عدوانياً ظالماً مخالفاً لكل القوانين والمبادىء . ولذا لم يمكن تنفيذه إلا بقوة الاستعمار — قوة السيف والحديد والنار ، وعلى مدى ثلاثين عاما (١٩١٧ — ١٩٤٧) رزحت فيها فلسطين تحت الحكم العسكرى المباشر .

ومع أن بريطانيا دخلت فلسطين بمعونة العرب ومتحالفة معهم ، وأخذت الإنتداب من عصبة الأمم لكى تدرب شعب فلسطين — كما تقول وثيقة الانتداب — على الحكم الذاتى ، إلى أن تصل به إلى الاستقلال ، فإنها غدرت بالعرب ، وخانت الأمانة ، فأدخلت الشعب السجون ، وفتكت به ، على حين فتحت باب الهجرة لليهود على مصراعيه ، وسلمت زمامها للوكالة الصهيونية ، فكانت هذه جريمة من أبشع الجرائم التى ارتكبها الاستعمار فى تاريخه الممقوت ، بل أكبر جريمة ارتكبها على الإطلاق ضد الإنسانية والعدل والقانون .

* * *

وبعد أن أتم الاستعمار القديم تنفيذ جريمته ، سلم البلاد إلى شركائه الصهيونيين وإلى الاستعمار الجديد ، ليواصل حماية الجريمة ، واستمرار نتائجها . فتولت « أمريكا » المهمة بدلا من بريطانيا ، عقب الحرب العالمية الثانية . فدفعت

بالعدوان مرحلة أبعد ، وأكبر خطورة ، وبذلت جهودها لتكسبه صفة دولية .
وكانت نتيجة هذا كله المأساة التى نشهدها ويراها العالم ، وهى إخراج شعب بأكمله من وطنه ، ليعيش لاجئا فى الصحراء أو البلاد المجاورة ، وإقامة دولة من الغرباء فى هذا الوطن على أساس الاغتصاب .

وصارت مهمة هاته الدولة المصنوعة أن تشن العدوان من حين لآخر على الدول العربية ، وتنهب الأراضى بالقوة ، وتقضى على الأمن والسلام فى الشرق الأوسط . وهى فى ذلك تخدم الاستعمار ، فتحقق أغراضه ، بأن تستنزف جهود الدول العربية ؛ وتقف حاجزا بينها فتمنع وحدتها ، وتعوق نهضتها . وبذلك تعمل على إخضاع المنطقة للنفوذ الامبريالى لخدمة مصالح الدول الامبريالية — وفى مقدمتها البترول — وتنفيذ خططها السياسية والحربية ، وتظل هكذا قاعدة للاستعمار والتحكم والعدوان فى الشرق العربى .

فالاستعمار الجديد يقف اليوم وراء هذه القاعدة يحميها ويسندها ، ويمدها بالأسلحة والأموال ، ويدفعها للقيام بأعمال عدوان أخرى . وهو لا يختلف فى أهدافه عن الاستعمار القديم ، فله مثل مطامعه الاقتصادية والسياسية وتحركه المشاعر الدينية التعصبية . وإن كانت وسائله مختلفة لأنها ليست بقوة الاحتلال الظاهر ، وإنما بالسيطرة المستترة ، أو باستخدام أدوات له لتنفيذ مآربه ، كما أنه أيضا أكثر حماقة لقلة خبرته ، ولأنه يستولى عليه غرور القوة .

غير أنه فى هذا الغرور يكمن السر الذى سيؤدى إلى التغلب عليه وفشله فى النهاية . فهو لا يدرك روح العصر ، ولا يكاد يعترف بما طرأ على العالم من تطور وظهور قوى مؤثرة تعمل للسلام ، وتناضل من أجل العدل واحترام

حقوق الشعوب . كذلك لا يفهم حقيقة الأمة العربية ، ولا ماحدث من تغير فى أوضاع منطقة الشرق الأوسط .

* * *

فحين أصدر المستعمرون الإنجليز تصريحهم الذى بدأ به العدوان على فلسطين، كانت « الدولة العثمانية » التى تشغل هذه المنطقة فى آخر عهدها ، ولم تكن الأمة العربية قد ظهرت بعد على مسرح التاريخ كقوة سياسية أو دولية أو اقتصادية . لكن قد مضى الآن على هذا التاريخ خمسون عاما أو أكثر ، وقد زالت الدولة العثمانية وحلت محلها الأمة العربية . فبدأت نهضتها وأثبتت وجودها وكافحت الاستعمار حتى ظفرت بحريتها ، وقامت فيها دول عديدة مستقلة .

فالأمة العربية المتوثبة الطامحة هى التى تشغل الآن منطقة الشرق الأوسط، وهى تعمل بكل دأب وإصرار على تحقيق وحدتها ، واستكمال قوتها ، وطرد الاستعمار فى أى شكل من أشكاله من أرضها . ولا تتم هذه الوحدة والقوة والتخلص من الاستعمار إلا باستعادة فلسطين العربية ، وتوحيد الأرض العربية كلها من المحيط إلى الخليج ، وإزالة هذه القاعدة الباقية للاستعمار من هذه المنطقة ، لتأمن الشعوب العربية على حريتها ، ويزول عنها الخطر الذى يهددها فى كل وقت ، ويتأكد استقلالها وتتضاعف قوتها .

فالاستعمار الجديد متخلف ـ إذن ـ فى عقليته عن التطور ، وحركته مضادة لسير التاريخ . وهو لن يستطيع أن يقف فى وجه قوى التقدم والتحرر والعدل والسلام . وكما استطاعت الشعوب العربية وغيرها القضاء على الاستعمار القديم، فإنها ستقدر أيضا على التغلب على خلفه . وسيكون مصيره حتما الزوال ، وبالتالى

ستكون نتيجة حتمية ومؤكدة انهيار أثره وقاعدته فى الشرق الأوسط . فهذه قاعدة مصطنعة أوجدها الاستعمار ، واحتلال أجنبى فرضته القوة الغاشمة ، وجسم غريب زرعه الاستعمار فى جسم الأمة العربية ، وهى شذوذ ونشاز وسط هذا المحيط العربى الغامر ، وهى الجريمة الدامية التى ارتكبها الاستعمار ذو العقلية البائدة الرجعية ، والمضلل بأوهام دينية خاطئة يدفعها تعصب ممقوت . وفى هذا العصر الحديث : عصر الحرية والتقدم واحترام القانون ، وإرادة الشعوب ، لن يكون هناك مكان للاستعمار — القديم أو الجديد — وبالتالى لأثره أو صنيعته هذه ، المدعوة «إسرائيل» فما هى بحكم التاريخ والعصر إلا ظاهرة مؤقتة شاذة ، ولا بد أن تزول حتما . وهى لا سند لها فى الحقيقة إلا القوة المادية .

* * *

ولذا ، فإن الواجب على الأمة العربية — وهى صاحبة الحق الطبيعى وقرينة التاريخ ، ومظهر القانون ، والتى تمثل روح العصر ، تعاونها كل قواه التقدمية — أن تجمع كل إرادتها وتحشد كل جهودها لتحطيم هذه القوة المادية. وهذا شىء فى إمكانها ، وقادرة عليه — بالبداهة — كل القدرة ، وما عليها إلا أن توفر لنفسها الشروط اللازمة لإحراز التفوق الحربى ، وتحقيق النصر .

والتفوق الحربى يتم بالأسلحة الحديثة — ولا سيما السلاح الجوى — والتدريب والمهارة فى وضع الخطط والتنفيذ . كما أن من أول شروطه الإيمان والإخلاص والشجاعة والاتحاد ، وأن توجهه السياسة الحكيمة التى تضمن بلوغه إلى هدفه .

فحاضر العرب إذن ومستقبلهم مرهون بعلو الهمة وصدق العزم ، وقوة

الإيمـان والإرادة للنهوض بهـذا الواجب . وما بين العرب والوصول إلى أهدافهم — من الاستقرار والسلام والمجد ـ إلا أن يسجلوا نصراً خالداً على عدوهم فى موقعـة حاسمة تاريخية ، تضاف إلى أمجادهم السابقة ، أيام ظفروا بانتصاراتهم الداوية : فى « اليرموك » و « حطين » و « المنصورة » و « عين جالوت » . الله ناصر الحق ومؤيد المؤمنين .

خرافة الصهيونية

الأرض الموعودة « أرض الميعاد »

(دراسة علمية فى تاريخ اليهود وتوراتهم)

أثبتنا فى الفصلين السابقين ـ بالأدلة والوثائق التاريخية ـ أن إسرائيل ما هى إلا مشروع استعمارى : كانت استعماراً بريطانياً صهيونياً ، ثم صارت استعماراً يهودياً أمريكياً .

ولكننا أوضحنا أيضاً ، فى ذينك البحثين ، أنه كان من أهم العوامل التى دفعت الساسة البريطانيين إلى احتضان المشروع الصهيونى وتعضيده ـ فوق الأغراض الاستعمارية ـ المشاعر الدينية ، وهى المشاعر المقترنة بالتعصب . وهذه حقيقة . لأن الساسة البريطانيين ـ ولا سيما هؤلاء الذين كانوا متدينين ، وكانوا السبب فى إصدار وعد بلفور والعمل على تنفيذه ـ يقرأون نفس الكتاب الذى يعتبره اليهود كتابهم المقدس ـ وهو « العهد القديم » ـ ويقرؤه أيضاً الشعب الإنجليزى ، وكذلك الشعوب الأوربية والأمريكية بوجه عام .

وقد بنى الصهيونيون دعواهم على ما جاء فى هذا الكتاب من أن الله وعد إبراهيم ، أو « عقد معه صفقة » . . ! لأن هذا الإله الذى تصوره اليهود كان ـ وذلك كما يقول العالم المؤرخ « ولز » ـ كان إلهاً تجارياً ، اتفق مع إبراهيم على أن يعطيه هذه الأرض:أى فلسطين ، له ولنسله من بعده ، كثمن لعبادته .

أيضاً يقرأ الأوروبيون والأمريكيون أساطير بنى إسرائيل فى هذا

الكتاب ـ وهى قصص مطولة متعددة ـ أو لا يقرأونها، ويكتفون بعناوينها، أو يسمعون نبذا منها فى الكنائس ، فيخيل إليهم أن فلسطين لا زالت كما كانت فى تلك الأزمنة السحيقة ، وأن التاريخ وقف عندها فلم يخط أى خطوة واحدة منذ ثلاثة آلاف عام أو أكثر . . !

وهذا الوعد المدعى ما هو فى الحقيقة إلا خرافة — كما سنثبت فيما يلى بالأدلة التاريخية . وكثير من الأسماء التى ذكرت فى هذا « العهد القديم » ما هى إلا شخصيات وهمية . وكثير من القصص والأخبار التى وردت ما هى إلا أساطير متخيلة ، ما أنزل الله بها من سلطان .

ولذا يجب أن نبين هذه المسائل ، من الوجهة العلمية .

* * *

فالحقيقة التاريخية الأولى والثابتة من نفس هذا الكتاب « العهد القديم » وهو توراة اليهود ، وأيضاً من كل المصادر الأخرى ، أن هذه الأرض : أى فلسطين هى أرض كنعان . (وكنعان فرع من الجنس العربى) .

كانت ملكا لشعب كنعان ووطنه ومقامه . وأن الجماعة العبرية التى هى أصل بنى إسرائيل أو اليهود ؛ كانت طارئة غريبة على هذه البلاد أجنبية عنها؛ لأن إبراهيم — جد هذه العشيرة البدوية فيما يزعمون — أصله من بلدة « أور » فى بلاد الكلدانيين فى جنوب بابل ، وكان كلدانياً . وعبر هو عن نفسه حينما جاء إلى أرض كنعان بأنه — كما ورد فى هذا الكتاب نفسه — « غريب » و « نزيل فى أرض غربة » ، ولما أراد ابنه اسحاق أن يتزوج ، وأيضاً حفيده يعقوب الذى سمى إسرائيل فيما بعد — عاد كل منهما إلى قومهما فى « كلديا» — كما ذكر هذا الكتاب — وتزوجا هناك فى « فدان أرام » . ونص هذا

الكتاب على أن جميع أبناء يعقوب — أى بنى إسرائيل — ولدوا فى تلك الجهة : أى خارج فلسطين .

ولم يستقر إبراهيم ولا ذريته فى فلسطين ، بل نزحوا إلى مصر وتجولوا ثم رجعوا . ثم استدعى يوسف — بعد حادث مؤامرة إخوته — أباه يعقوب وأولاده ، فعاشوا فى مصر تحت حكم ملوك مصر قرونا ، بلغت نحو خمسمائة عام ، وخدموا فى أعمال الحفر والبناء .

* * *

ولم يدخلوا فلسطين إلا بعد أن خرجوا من مصر ، وبعد تيههم فى الصحارى مشردين ؛ ثم تمكنوا من دخولها فى عهد يوشع مغيرين . وذلك بعد زمن إبراهيم بستمائة أو سبعمائة عام — حيث إن المؤرخين يقدرون أن إبراهيم عاش فى القرن العشرين قبل الميلاد أو القرن الذى بعده ، وأما خروج العبريين من مصر فلم يحدث إلا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

فأين إذن كان وعد الله لإبراهيم المزعوم طوال هذه الحقب ؟ إنه لم يتحقق لا لإبراهيم ولا لذريته ، طيلة سبعمائة عام . فهل كان وعد الله كاذباً ؟ (سبحانه وتنزه عن ذلك) ؟ أم لم يستطع إنجاز وعده (تعالى جل شأنه) . فهذا وحده يمكن أن ينهض دليلا كافياً على زيف هذا الوعد ، وأنه وعد موهوم مكذوب؛ لا حقيقة له .

* * *

ومذ دخل بنو إسرائيل هذه البلاد ، ظلوا فى حروب متوالية مع أهل البلاد الأصليين : من كنعانيين ، وأموريين ، وأدوميين ، وفلسطينيين ، وغيرهم ، ممن ذكرهم كتابهم هذا . وقد سجل كتابهم أنهم هزموا مراراً ،

وخضعوا لحكم غيرهم فترات عديدة ، فلم يستطيعوا إلا أن ينشئوا فى القرن العاشر (ق . م) ملكا صغيراً فى عهد داود فابنه سليمان ، لم تزد مدته عن ثلاثة وسبعين عاماً ، وكان فى الواقع تحت وصاية ملك مصر من جهة ، وملك صور من جهة أخرى .

ثم انقسمت هذه المملكة وظلت فى حروب واضطرابات ، حتى جاء أخيراً ملك أشور «سرجون» ـ وذلك فى عام ٧٢١ ق م ـ فقضى على دولة إسرائيل فى الشمال ، فانتهت من التاريخ . ثم جاء ملك بابل « بختنصر » فى عام ٥٨٦ ق . م فقضى على الدولة الأخرى « يهوذا » ، وهدم عاصمتها أورشليم وأحرق هيكلها ، ونقل من بقى من الإسرائيليين أسارى أذلاء إلى بابل فى العراق ، حيث بقوا فى الأسر مدة طويلة .

* * *

فمنذ هذا التاريخ الثابت :أى منذ ستة قرون قبل الميلاد (أو منذ أكثر من ألفى وخمسمائة عام) انتهى التاريخ السياسى لبنى إسرائيل أو اليهود فى فلسطين. وبعد أن انقضت مدة السبي ، وسمح ملك الفرس بعودة من بقى منهم ، رجعوا رعية خاضعين لدولة الفرس ثم اليونان ثم الرومان ، إلى أن جاء الإمبراطور « طيطوس» فطردهم من « أورشليم » وأحرق المدينة ، وبنى مدينة أخرى على أنقاضها أسماها « إيلياء » — وذلك فى عام ٧٠ م — فصاروا منذ ذلك الوقت مشردين فى أنحاء الأرض ، منبوذين مكروهين من جميع شعوب العالم ، ومنذ هذا التاريخ — أى منذ نحو عشرين قرناً — انقطعت صلتهم بفلسطين .

وكل هذا تاريخ قديم باد ، وانتهى واندثر ـ كما اندثرت تواريخ كثير من القبائل والعناصر والدول فى تلك العصور القديمة — كما اندثرت تواريخ

الحيثيين والميديين والآراميين والأدوميين وغيرهم ، فلا يمكن أن يفكر أى عاقل فى إعادة الأحداث البائدة ، ورد عجلة الزمان إلى ماقبل ثلاثة آلاف عام أو نحو ذلك ، أو إعادة تقسيم الأراضى كما كانت فى قرون سحيقة قبل الميلاد . فهذا منتهى السخف، بل هو التخريف والجنون بعينه. فهل يفكر أحد فى إعادة أهل إيطاليا إلى بريطانيا أو فرنسا لأن الرومان أجدادهم كانوا يملكون تلك البلاد نحو أربعة قرون ؟ وهل يجب أن يعود الأتراك إلى البلقان لأنهم بقوا فى تلك البلاد نحو خمسة قرون ؟ وهل يطالب العرب بأن يعودوا إلى أسبانيا حيث عاشوا فيها سبعة قرون ؟ وهل يجب أن يطالب الإنجليز بالعودة إلى أمريكا ثانية ؟ . لكن هذا السخف والجنون هو فكرة الصهيونية التى سعى الاستعماريون البريطانيون ، وبعدهم الأمريكيون الإمبرياليون ، إلى اعتناقها وتنفيذها .

* * *

ومنذ القرن الأول قبل ميلاد المسيح ، صارت فلسطين إقليما رومانياً أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية ، وبقيت كذلك نحو سبعمائة عام . ثم ظهر الإسلام وجاء العرب فى النصف الأول من القرن السابع — وكانت صلة الجزيرة العربية والعرب بفلسطين متصلة من أقدم العصور — فحرروا البلاد من حكم الروم ، وأصبحت فلسطين من ذلك الوقت جزءاً من الدولة العربية الإسلامية ، وكملت طبيعتها العربية ، وبقى العرب فيها ، واتصل تاريخهم — أربعة عشر قرناً متوالية ـ حتى العصر الحاضر .

وطوال هذه القرون ، دافع العرب عن فلسطين ضد الروم ، ثم ضد

الصليبيين ، ثم ضد التتار ، ثم جاهدوا ضد الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث، وسموا إلى الاستقلال . وفلسطين العربية ما هى فى الحقيقة إلا جزء من سوريا الكبرى — أو إقليم الشام العربى المعروف — وما هى إلا جزء لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير ، الذى يمتد من المحيط الإطلنطى إلى الخليج العربى ، والذى يشغل المنطقة التى تسمى اليوم الشرق الأوسط . وهى جارة وشقيقة الأقطار العربية أخواتها : مصر وسوريا ولبنان والأردن والحجاز والعراق وجزيرة العرب ؛ ووراءها الأقطار العربية الأخرى : السودان والمغرب العربى .

فهذه هى الحقائق التاريخية الثابتة . وهذه الحقائق هى التى تحداها الاستعمار البريطانى الغاشم ، حين أخذ ينفذ الفكرة الصهيونية بالقوة ؛ وهى التى يتحداها اليوم الاستعمار الأمريكى الجاهل المتعصب ، إذ يساند الباطل أيضاً ويدعمه بالقوة .

* * *

ونعود الآن إلى الوعد المزعوم أو الموهوم ، وهو الخرافة التى بنت عليها الصهيونية دعواها ، والتى تقوم عليها .

فهذا الوعد منح — كما ادعوا — إلى إبراهيم . وإبراهيم — على مايفترض المؤرخون — عاش فى القرن العشرين قبل الميلاد : أى منذ أربعين قرناً بالتمام والكمال . فمن أوما الذى يضمن أو يثبت صدور هذا الوعد أو غيره ، أو وقوع أى حادث فى ذلك الزمن القصى : أى قبل أربعة آلاف عام ؟. فهل هذه حقيقة علمية ؟ اللهم إلا إذا كان هناك نقش على صخر أو حجر أثرى ، وجد مدفوناً

تحت طباق الأرض ، وهذا لم يوجد . فلا سند لهذا الوعد المدعى إلا كتاب اليهود فقط .

فما حقيقة هذا الكتاب فى ميزان العلم أو التاريخ ؟

يتفق المؤرخون والباحثون — من الأوربيين قبل غيرهم — على أن كتاب اليهود هذا ، أو ما يسمى بالعهد القديم ، لم يكتب فى صورته المعروفة إلا فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد . ومعنى هذا أنه كتب بعد عهد إبراهيم بخمسة عشر قرنا ، وبعد موسى بثمانمائة عام . وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى تعليق ، بالنسبة لصحة أو عدم صحة ما يروى ، منسوبا إلى هذا الزمن البعيـــد .

والعلماء الذين درسوا هذا الكتاب وجدوا فيه أخطاء مادية ، ومبالغات. ومعلومات ينقضها العلم الحديث، وقصصا خيالية ، أثبتوا أنها استمدت من أساطير بابلية أو فارسية أو مصرية قـديمة . ولا توجد أدلة تاريخية تثبت وجود كثير من الأشخاص أو صحة الأنساب التى ذكرها الكتاب ، بل ظاهر أن بينها أسماء وهمية وشخصيات خرافية .

وإلى جانب هذا تحوى هذه القصص ذكر أفعال تعد فضائح أو جرائم منسوبة إلى الأنبياء وبنى إسرائيل ، ومع أنها موجودة مفصلة فى نصوص الكتاب «المقدس» المطبوع الذى يقرأه الناس جميعاً ، فإننا نتردد فى إيرادها بل لا نستطيع ذكرها ، لأنها جرائم بشعة تصدم الذوق والأدب ، من فسق وانتهاك للحرمات وقتل وخداع، بل حتى كفر بالله منسوب إلى بعض الأنبياء ـ صلوات الله عليهم — بل ورد فى هذا الكتاب أيضا أن الله سبحانه يأمر بعض أنبيائه بارتكاب الجرائم.

والـكتاب مملوء بالحث على التدمير والقـوة وسفك الدماء . .

ويكفى هذا لبيان طبيعة هذا الـكتاب « العهد القديم » — الذى احتوى على هذا الوعد المزعوم ــ وهل هو « مقدس » من عند الله ؟ !

* * *

والحقيقة أن التوراة الأصلية التى أنزل الله على موسى — وهى التوراة التى ورد ذكرها فى القرآن المجيد ــ قد فقدت بعد عهد موسى أو شوهت . وإذا كان بقى منها شىء فهو بعض التشريعات والوصايا المنسوبة إليه . أما « العهد القديم » فيما خلا ذلك — وهو الذى كتب بعد عهد موسى بثمانمائة عام فى أيام السبي — على ما حقق المؤرخون ــ فهو كتاب وضعه اليهود أنفسهم ، كتبوه كتاريخ لقبيلتهم ، وصاغوه صيغة دينية . وهو صورة من طبيعتهم وأوهامهم وأحلامهم ، يتضمن بعض أخبار تاريخية ، لـكنها مخلوطة بـكثير من الأساطير والإضافات .

ولـما كانوا ، وهم أسرى فى بابل ، يحلمون بالعودة إلى الأرض التى نفوا منها « فلسطين » ـ بعد أن هزمهم البابليون وأخرجوهم ـ فقد لفق لهم الخيال أن يتوهموا أن الله كان وعد إبراهيم ـ فى الزمن القديم ـ أى قبل عهد موسى بسبعمائة عام ـ وقبل زمن السبي الذى كانوا يكتبون فيه بألف وخمسمائة عام ـ كان وعده بأن يعطيه هذه الأرض له ولذريته ، ويخرج منها أهلها الكنعانيين وغيرهم ، وذلك ليدعوا ملكيتهم فى هذه الأرض بحق إلهى، وليجعلوا الاغتصاب والعدوان أمراً مشروعا ! .

وهكذا صدر الحلم أو الأمل فى صورة هذا الوهم ، أو هذا الوعد الذى زعموه ، وماهو إلا وهم فاسد ووعد مكذوب مدسوس على الله تعالى. والله سبحانه

برىء منه ، وممن يكذبون عليه ، ويكتبون الباطل بأيديهم . وصدق الله تعالى إذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

* * *

والواقع أن من يقرأ كتاب اليهود هذا — « العهد القديم » — يجد أنهم صوروا الله على أنه إله لهم وحدهم ، وكأنه رئيسهم أو رائدهم ، أو شيخ قبيلتهم ! ليس له عمل إلا أن يرعى شئونهم ، وهو يسير أمامهم ، و كلما عن لهم أو لأحد قادتهم حاجة استدعوه ، فيلبي حاجتهم على الفور ، وينزل لهم فى هيئة سحاب أو عمود من نار . . ! ومهما خالفوه وعصوه ـ مهما فسقوا أو كفروا ، فهو يعفو عنهم ويعود إليهم ، وذلك لأنه لا يحب من جميع خلقه الذين خلقهم غيرهم: أى جماعة العبريين هؤلاء . فهو يأمرهم أن يقتلوا ويبيدوا الكنعانيين ، والأدوميين ، والحثيين ، والفلسطينيين ، والآراميين ، وسائر الأقوام حولهم ، لأن الله (سبحانه) متحيز لبنى إسرائيل فقط ، و يحب سفك الدماء ، ويكره سائر عباده . . ! !

فهذه هى العقلية اليهودية التى صورها « العهد القديم » ، وهى تمثل عقلية بدائية متبربرة، وتصور الطبيعة اليهودية ، التى تميزها غرائز الأنانية والاحتكار والحرص ، والحقد على سائر البشر .

* * *

والحقيقة الأخيرة — التى تضاف إلى ما تقدم — هى أنه بعد أن هدم مجتمع اليهود وشردوا فى أرجاء الأرض ، ذاب بنو إسرائيل القدامى فى الأمم واختلطوا بغيرهم من الأجناس . فأصبحت اليهودية دينا فقط ، وليست قومية أو جنسية .

وقد دخل فى هذا الدين كثير من أجناس الأرض ، كما أن كثيراً من اليهود تحولوا إلى المسيحية — التى حلت محل الدين القديم — أو إلى أديان أخرى . وبذلك صار هناك يهود من جميع عناصر الأمم ، أو خليط من هذه العناصر .

ومن حقائق التاريخ أن جموعاً كثيرة من قبائل الخزر ـ وهم بعض الشعوب الآسيوية ـ اعتنقوا اليهودية ، ثم هاجر كثير منهم إلى أقطار شرق أوربا ، فاختلطوا بشعوب هذه الأقطار ، وباليهود من أبناء هذه الشعوب . وهؤلاء هم أصل اليهود فى شرق أوربا وهؤلاء هم الذين ابتدعوا فكرة الصهيونية والحركة الصهيونية ، ومنهم أكثر الذين هاجروا إلى فلسطين فى القرن الحالى . فهم من أصل خليط ، من الخزر والأوربيين فى شرق أوربا ووسطها . ونسبتهم إذن إلى بنى إسرائيل القدماء دعوى مزورة ، هى كذب وزيف لا تثبتها وقائع التاريخ . وكذلك اليهود الآخرون : من أصل مغربى أو يمنى ، أو مصرى ، أو هندى أو حبشى ، أو أوروبى ، أو غير ذلك .

فالصهيونية إذن لا تقوم إلا على كذب وادعاء وتزوير للتاريخ .

* * *

وفى النهاية ، خلص لنا من هذا البحث إثبات هذه الحقائق :

أن دعوى الصهيونيين بالوعد الموهوم خرافة . وأن نسبتهم إلى

بنى اسرائيل القدماء تزوير وتضليل . وأن فلسطين هى أرض كنعان منذ القدم - وكنعان فرع من الجنس العربى - وأما قبيلة العبريين فكانوا جماعة طارئة أجانب عن البلاد . وبعد أن بقوا زمنا وسط السكان الأصليين بادوا ونفوا وفنوا فى الأمم ، كما بادت العناصر القديمة ، وبقى السكان الأصليون.

وأن فلسطين صارت — منذ قرون قبل الميلاد — ولاية فى دولة الفرس ، فاليونان ، فالرومان . ثم جاء العرب والإسلام ، فحرروا البلاد من حكم الرومان وسكن العرب البلاد وعمروها ، فكملت طبيعتها العربية . واستمرت فلسطين عربية مائة فى المائة - أربعة عشر قرنا متتالية - وذلك منذ أوائل القرن السابع إلى القرن العشرين — (أى منذ هاجر الإنجليز إلى بلادهم فصارت إنجليزية ، وألف عام قبل أن يهاجر الأمريكيون إلى قارة أمريكا) . ففلسطين عربية عربية : مثل سوريا والأردن والعراق ومصر وجزيرة العرب والمغرب ، وسائر أقطار العروبة .

وهذه هى الحقيقة الكبرى - كالشمس الساطعة المتوهجة - التى تبدد الأوهام الضالة والدعاوى الزائفة ، وتمحق كل أباطيل الصهيونية والاستعمار . والحق هو الذى يغلب ، وسيبقى وينتصر . ولابد أن ينصر الله الحق ، ويؤيد المستمسكين به المجاهدين من أجله .

«ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » .

العدوان على الدول العربية

ظلت إسرائيل - منذ أقامها المستعمرون فى الوطن العربى - تواصل عدوانها على الأقطار المجاورة : تارة على حدود الأردن ، وتارة على حدود سوريا ، وطوراً على حدود مصر .

عدوان عام ١٩٥٦

وفى عام ١٩٥٦ انتهزت فرصة الأزمة الدولية - التى أعقبت تأميم قناة السويس - فدخلت فى مؤامرة مع الحكام الإنجليز والفرنسيين ، الذين كانوا موجودين فى ذلك الوقت ، وشنوا جميعاً هجوما على مصر. وهو ماسمى بالعدوان الثلاثى ، الذى بدأ فى يوم ٢٩ أكتوبر من ذلك العام . ولكن هذا العدوان فشل فشلا تاما ، إذ عارضه مجلس الأمن بقوة ، وأصدر قرارات بانسحاب القوات المعتدية فوراً ، واحتج عليه الاتحاد السوفيتى منذراً بالتدخل ، ولم ترض عنه أمريكا لأن المؤامرة حيكت من وراء ظهرها ، وأهملها المعتدون فلم يشركوها فى الأمر ، كما أن العدوان قوبل فى نفس الوقت بمقاومة شعبية باسلة ؛ كما تجلى ذلك بصور رائعة فى مدينة « بور سعيد » . فلكل هذه الأسباب اضطرت القوات المعتدية إلى الانسحاب فى آخر نفس العام ، ولم تنل إسرائيل من جراء عدوانها شيئاً .

* * *

لكنها أخذت منذ ذلك الوقت - كما صرح به حكامها فيما بعد - تستعد لعدوان جديد أكبر وأشمل ، وأخذت تستورد الأسلحة من ألمانيا الغربية وأمريكا وفرنسا وانجلترا وغيرها ، وكانت أمريكا دائما هى الوسيط المتحمس النشط لعقد صفقات هذه الأسلحة . وازداد تدفق الأسلحة - بصفة خاصة -

منذ عام ١٩٦٤ ، بعد مقابلة تمت بين أشكول رئيس وزراء إسرائيل وجونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى هذه المقابلة تمت اتفاقات سرية ، ترمى إلى تأييد أمريكا لإسرائيل حينما تشن هجومها المنتظر على الدول العربية .

ونتيجة لاتباع سوريا والجمهورية العربية المتحدة سياسة لا تتفق مع ماتريده أمريكا ، وكان استعداد إسرائيل للهجوم فى ذات الوقت قد كمل ، وتأكد لها التأييد التام من أمريكا فى جميع أعمالها ، وهو التأييد الذى يتمثل فى وجود الأسطول السادس فى البحر المتوسط ، لتقديم الحماية والعون لإسرائيل فى أى وقت — نتيجة لكل ذلك أخذت إسرائيل تمهد لعدوانها المتفق عليه بينها وبين أمريكا فى خلال عام ١٩٦٧ ، فقامت باعتداءات عنيفة على الأردن وأجرت مجزرة فى قرية « السموع » على حدود الأردن ، وأخذت تتحرش بسوريا ، وتغير طائرتها عليها حتى وصلت إلى قرب العاصمة ، فى حين أعلن زعماؤها تهديداتهم بأنهم سيهجمون على سوريا ، ويزحفون إلى دمشق .

* * *

عدوان عام ١٩٦٧

ولما كانت سوريا قد بادرت إلى عقد اتفاقية دفاع مشترك بينها وبين الجمهورية العربية المتحدة ، ووصلت إلى القاهرة أنباء بالحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، وبقرب الهجوم المتوقع — فقد أهاب الواجب وداعى النخوة والأخوة العربية ، بالجمهورية العربية أن تنهض للدفاع عن شقيقتها .

فتنفيذاً لذلك ، حشدت جانباً كبيراً من قواتها المسلحة على الحدود بينها وبين إسرائيل — وذلك فى خلال النصف الثانى من مايو من ذلك العام ١٩٦٧ . وأعلنت فى أثناء ذلك أنها تغلق خليج العقبة ، لتمنع مرور السفن الإسرائيلية

التى تحمل مواد حربية إلى إسرائيل . ولـكن فى نفس الوقت حرص زعمـاء الجمهورية العربية على أن يعلنوا أنهم لن يكونوا البادئين بإطلاق النار بأى حال إذ أنهم لم يقصدوا بذلك إلا مجرد زجر المعتدى ، ومنعه من شن عدوانه على سوريا أو أية دولة عربية أخرى .

لـكن إسرائيل كانت قد أتمت خططها مع أمريكا لتنفيذ العدوان. ولم توافق أمريكا على التنفيذ فحسب ، بل اشترك قوادها الحربيون ورئيسها نفسه مع الإسرائيليين فى وضع خطط الهجوم وطرق تنفيذه — كما ثبت ذلك مما نشرته الصحف الأمريكية نفسها فيما بعد — وكان المتطوعون الأمريكيون قد وفدوا إلى إسرائيل — إلى جانب أعداد غفيرة من المتطوعين ، مأجورى الحروب ، من جنوب أفريقيا ومن بعض الدول الغربية الاستعمارية ، وكان الأسطول السادس والقواعد الأمريكية كلها متأهبة لمعاونة هذا الهجوم ، وحماية إسرائيل من الجو والبحر .

* * *

وفى صباح يوم الإثنين ٥ يونيو من عام ١٩٦٧ جاءت الضربة المباغتة وبدأ العدوان الغادر . قامت الطائرات الإسرائيلية — التى قادها متطوعون أجانب مدربون إلى جانب الإسرائيليين — بضرب جميع المطارات المصرية ، وظهر أن العدو كان على علم بمواقعها وأخبارها ، إذ أن المخابرات المركزية الأمريكية والإسرائيلية كانت أمدته بالمعلومات الهامة . ولما نجحت هذه الضربة ، بدأت إسرائيل الهجوم بقواتها على جبهة سيناء وعلى الضفة الغربية فى الأردن ، فلاقت فى بادىء الأمر مقاومة باسلة ففقدت عدداً كبيراً من جنودها . لـكن القوات العربية لم تجـد غطاء جوياً يحميها — والحماية الجوية لهـا أكبر الأهمية فى

المعارك الحديثة — وكان من أثر المفاجأة أنها أدت إلى وقوع خلل وارتباك فى النظام ، وحدثت أخطاء عديدة ، فتراجعت القوات العربية . واستطاعت إسرائيل أن تحتل شبه جزيرة سيناء من أرض مصر ، والضفة الغربية من الأردن ، والمرتفعات الجنوبية فى سوريا . وكانت نكسة كبيرة أحدثت صدى عميقاً فى وقتها فى نفوس العرب ، إذ جاءت على عكس ما كانت تتوقع الآمال ، ومنيت الجيوش العربية بخسائر لا يستهان بها فى الأرواح والمعدات .

***

صمود وعزم

ولكن روح الأمة العربية كانت أقوى من كل ذلك ، فسمت فوق الأحداث ، ولم تنل منها محنة عارضة . وهذا الشعور لم يستمر طويلا ، فتلاه صمود وعزم . وعرفت الأمة الأسباب والأخطاء فصممت على إزالتها . بل كان ما حدث حافزاً على الدفع إلى الأمام ، والسعى لمضاعفة القوى وتعويض ما فات .

وسرعان ما ظهر أثر ذلك فى الناحية العسكرية نفسها : فبعد شهر واحد من العدوان ، حاولت إسرائيل — وقد داخل الغرور رأسها — أن تتقدم لتهاجم « بور فؤاد » على المدخل الشمالى للقناة ، فتصدت لها القوات المصرية المرابطة عند « رأس العش » واستطاعت أن تردها على أعقابها ، وعبثا أعادت الكرة فردت بأعنف من المرة الأولى وبخسائر أفدح . وكان هذا دليلا على أن الجيش أخذ يسترد روحه المعنوية وقوته ، وبدءا للانتصارات التى ستتوالى كلما حاول العدو أن يخطو خطوة أو يشرع فى عمل من أعمال الاعتداء .

وكان للنكسة — من نواح أخرى — نتائج طيبة ، فلم تكن كلها شراً ،

ورب خير ينتج من شر . فمن أكبر هذه النتائج أن تجلى على الفـور شعور التضامن والإخاء والتعاطف ، الذى يربط بين شعوب الأمة العربية ، وظهرت أصول الوحدة قوية رائعة . فـكان هذا الضمان الأول للنصر . وأدهشت هذه الوحدة فى الشعور والعمل العالم ، وأذهلت بصفة خاصة أعداء الأمة العربية من المستعمرين وأذنابهم الصهيونيين .

فهكذا جاءت قوات الجزائر والسودان لتقف إلى جانب قوات الجمهورية العربية المتحدة فى الجبهة ، كما كانت قوات العراق تقدمت لتساند قوات سوريا والأردن ، وثبت للعالم أن هذا وطن واحد ، وأن هذه أمة واحدة ، وأن المعتدى على جزء منها إنما يعتدى على الأمة كلها . ولذا فهى تقف صفا واحداً وقلباً واحداً ، ضد العدو المشترك .

* * *

مؤتمر الخرطوم

كان شعور الإخاء والتضامن إزاء الخطر المشـترك أقوى من أى اعتبار آخر ، فتبددت الجفوات المفتعلة ، وذابت الخلافات سريعاً ، وتبادل الرؤساء الزيارات وعقدت الاجتماعات . فكان أظهرها المؤتمر الأول الذى عقد فى القاهرة فى شهر يوليو ، بين رؤساء عدد من الدول العربية .

ثم توجت الجهود كلها بعقد « مؤتمر القـــمة » فى الخرطوم فى أواخر أغسطس ـ بعد أن تقدمته إجتماعات الوزراء فى خلال ذلك الشهر ـ وصدرت قرارات المؤتمر فى أول سبتمبر إجماعا رائعاً أعلن اتفاق العرب وإصرارهم على المضى فى المعركة جبهة واحدة .

وقرر الجميع أن إزالة آثار العدوان مسئولية مشتركة ، لأن الأراضى التى

احتلتها إسرائيل هى أرض عربية . ولتحقيق التعاون والوصول إلى هذا الهدف قرروا وضع الموارد الاقتصادية والوسائل السياسية فى خدمة الجهود لتحرير المناطق العربية وفلسطين ، مع رفض الاعتراف بالمعتدى أوقبول التفاوض أو الصلح معه . وكان من ثمرات الاتفاق والاتحاد أن حلت مشكلة اليمن ، التى طالما بدا أنها عسيرة الحل . وكان هذا نصراً عربياً أثلج صدور الأصدقاء ، وأثار الغيظ فى قلوب الأعداء .

* * *

مواقف الدول

كذلك كان من النتائج الطيبة لهذه النكسة أن تبينا — عن يقين — مواقف الدول من قضية العرب وآمال العرب ، كما قال الشاعر القديم « جزى الله الشدائد كل خير ... »

فمنذ اللحظة الأولى وقفت الدول الصديقة تدافع عن العرب وتستنكر العدوان ، وتطالب بإدانة المعتدى ومعاقبته . وبادرت الدول الاشتراكية إلى عقد مؤتمر هام فى «موسكو» أصدر قرارات حاسمة ، كلها تعلن إدانة إسرائيل المعتدية ، والقوى الاستعمارية التى تشجعها وتساعدها ، وتؤكد التأييد لقضية العرب العادلة ، والوقوف معهم حتى تزال آثار العدوان ، ويقضى على مطامع الاستعمار والصهيونية . وتنفيذاً للقرارات ، قطعت الدول الاشتراكية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ، ثم طلب الاتحاد السوفييتى عقد دورة غير عادية للجمعية العامة للأمم المتحدة . فبدأت هذه الدورة فى ١٩ يونية فى نيويورك ، حضرها « كوسيجين » رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى بنفسه . وهناك جرت مقابلة خاصة هامة بينه وبين رئيس الولايات المتحدة فى مكان يسمى « جلاسبورو » .

بالقرب من نيويورك ، حيث تباحثنا فى أزمة الشرق الأوسط ، والمسائل الدولية الأخرى .

ولئن كانت الجمعية العامة لم تتمكن — لضغط أمريكا — من إصدار قرار بالأغلبية يدين العدوان ، ويطالب إسرائيل بالانسحاب من غير شرط ، إلا أن الدول العربية كسبت تأييد الرأى العام العالمى ، كما ظهر من المناقشات . وتكشفت للعالم حقيقة إسرائيل . ووقف إلى جانب العرب الدول الاشتراكية كلها والدول غير المنحازة . وكان موقف فرنسا يثير الإعجاب ، ويعتبر نقطة تحول فى سياستها نحو الشرق العربى . هذا فضلا عن تأييد الدول الإسلامية كلها ، وكانت هذه الحقيقة الأخيرة برهاناً على قوة الرابطة الإسلامية ، التى صنعتها العقيدة المشتركة والتاريخ المشترك . وفى هذا الصدد ينبغى التنويه بموقف « باكستان » وسيسجل التاريخ لها هذا الموقف الرائع من أجل تأييد قضية العروبة والإنسانية والعدالة .

وبالجملة ، فقد أثبتت جميع الشعوب المحبة للسلام مناصرتها لقضية العرب العادلة ، التى هى فى نفس الوقت قضية الحق والقانون والسلام . وعرف العرب أصدقاءهم ، الذين استحقوا شكرهم . ولا تزال هذه الدول الصديقة — التى تكون أكثرية سكان العالم — توالى جهودها من أجل انتصار الحق وإزالة الهزيمة بالعدوان . ولابد أن تثمر هذه الجهود ، ولو طال التمادى ، ولابد أن ينتصر الحق والعدل فى النهاية ، لأن هذا هو حكم التاريخ والتطور الذى لا يرد .

* * *

عداء أمريكا :

وفى الجانب المقابل ، ظهر عداء أمريكا سافراً ضاريا للشعوب العربية . فمن البداية ، لا يمكن أن ينسى العرب أن أمريكا هى التى صنعت إسرائيل ، وأقامتها بينهم قاعدة مسلحة ، على الرغم من رفض العرب ومقاومتهم . لكن العداء لم يكن بلغ ذروته إلا حين اندفعت أمريكا تسلح إسرائيل جهاراً بكل الأسلحة لتقتل بها العرب ، ولم يكن ظهر بهذه الصورة من الشراسة إلا حين قررت التنفيذ فى هذا العام ، ودفعت إسرائيل للتحرش بالعرب لتستفزهم ، وإذ أوقدت الفتنة أتمت خططها مع إسرائيل ، وأعطتها إشارة لبدء العدوان بطريقة غادرة ، لتحتل بعض الأراضى العربية وتضم القدس ، غير عابئة بالقوانين والمواثيق الدولية . ولما تم العدوان وقفت تباركه وتؤيده وتظهر الفرح بهذا النصر الإجرامى . وتكتل كل جهودها لتمنع الدول المؤيدة القانون ، المحبة للعدل والسلام ، من الحصول على قرار ، فى مجلس الأمن أو الجمعية العامة ، يدمغ المعتدى بالعدوان ويطالب بالانسحاب من الأراضى التى احتلت ، ويضع حداً لامتداد الحرب التى تنذر بأن تتطور إلى حرب عالمية تهدد شعوب العالم كله .

فهذه هى عقدة الموقف ، وهذه هى الحقيقة الكريهة البارزة ، التى كانت من الأصل سبب العدوان على شعب فلسطين وعلى وطن العرب ، والتى ولدت العدوان الأخير والتى اقترنت به وتابعته ، والتى ظلت ترعاه حتى هذه اللحظة — هذا هو موقف أمريكا الذى اتضح وسفر ، ومجمله التأييد لإسرائيل تأييداً مطلقا ، ومعاداة العرب وإهدار حقوقهم معاداة مطلقة لاشبهة فيها . وهذه هى سياسة أمريكا التى نفذها « جونسون » ورسمها معه من يحيط به من مستشاريه الصهيونيين .

أحداث اعتداء ، واغراق « ايلات » :

فهذه أهم الحقائق الرئيسية فى الموقف الحاضر ، الذى يسمى بأزمة الشرق الأوسط .

وليكتمل وصف الصورة ، فإن إسرائيل لما رأت تحول المعركة لصالح العرب ، وبوادر النصر المؤكد لهم ، حيث حققوا وحدتهم ، وأعلنوا فى مؤتمر القمة إصرارهم على مواصلة الجهاد المقدس ، وعدم الاعتراف بدولة الصهيونية المغتصبة ،وشاهدت كذلك تأييد الرأى العام العالمى لهم - لم تجد أمامها إلا اللجوء لتكرار العدوان : ففى ٤ سبتمبر شنت عداونا فاجراً على السويس وقتلت عدداً من المدنيين . ثم كررت عدوانا على الإسماعيلية ، فالقنطرة فى يوم ٢١ سبتمبر ، ثم عدوانا أشد يوم ٢٧ سبتمبر حيث ركزت هجومها على القنطرة ، وامتد القتال على طول خط القناة . ولكن للدفعية المصرية أصلتها ناراً حامية ، وصدتها بقوة وعنف ، فكبدت إسرائيل خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، كما اعترفت بذلك تقاريرها الرسمية وقال المراقبون الدوليون إنها كانت معركة حربية كاملة . وتأكد الإسرائيليون أن الجيش المصرى مصمم على طردهم من أرض الوطن . وكان ختام الانتصارات فى هذا العام أن البحرية المصرية نجحت فى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٧ من أن تغرق بالصواريخ أكبر مدمرة لإسرائيل — وهى المدمرة « إيلات » — فكان لهذا النصر صدى كبير من الفرح فى نفوس العرب ، وأدخل الحزن العميق فى قلوب الإسرائيليين .

* * *

وهكذا ، فى ضوء هذه الحقائق ، نرى أن العرب أصبحوا فى موقف

أفضل بكثير مما كانوا فيه إثر وقوع العدوان . فقد زال تماما أثر الصدمة الأولى . واستعادت جيوشهم معنوياتها وبنت كثيراً من قوتها . وقد توحدت صفوفهم وأصبحوا كتلة واحدة أمام المعتدى ومن يؤيدونه ، وانضمت إليهم معظم دول العالم ، وتبين للجميع أن إسرائيل ماهى إلا قاعدة استعمارية توسعية وكادت أمريكا تنعزل هى وبعض الدول الدائرة فى فلكها عن بقية شعوب العالم . فالعقبة أمام السلام هى أمريكا ، حيث تبلغ بها الحماقة والغباء إلى المدى الذى لاتدرك فيه أن مصالحها ستتحطم ، ونفوذها سينهدم ، وسمعتها ستفنى ، نتيجة لتأييدها لباطل الصهيونية وعدوانها .

والخلاصة أنه يمكن القول بأن العرب كادوا أن يكسبوا معركتهم السياسية الدولية بعد أن كسبوا أملهم فى محيطهم بوحدتهم العربية . وإن الأمة العربية قوية بحقها ، لكن الحق فى دنيا المعتدين يصبح معطلا مالم تنصره قوة مادية صارمة . فإذا جمع العرب القوة إلى جانب الحق فإنهم لمنتصرون . ولابد أن ينتصروا بإذن الله .

أمريكا والأمة العربية

أصبح واضحاً لكل عربى ، وأمام جميع العالم ، أن مصدر الشر ومنبع القلق والاضطراب، والقضاء على السلام فى الشرق الأوسط ، وما أصاب ويصيب الأمة العربية من أضرار — هو التأييد المطلق الذى تمنحه أمريكا لدولة أو عصابة الصهيونيين المدعوة « إسرائيل » ، وتحريضها لها، ومساندتها فى جميع أعمالها العدوانية ضد الشعوب العربية واغتصابها لأراضى العرب وانتهاكها لحقوقهم ، واقترافها الجرائم الوحشية ضد السكان الآمنين — تفعل أمريكا ذلك ، وهى لا تبالى بوجود العرب ولا تقيم وزناً لآمالهم أو كرامتهم ، ولا تدخل فى اعتبارها أى تقدير لتاريخهم ومآثرهم على الحضارة والإنسانية ، وحقوقهم الأزلية الثابتة فى أوطانهم وأراضيهم ، فى ظل دولهم المستقلة استقلالا تكفله القوانين والمواثيق الدولية .

لا تأبه الولايات المتحدة الأمريكية بكل ذلك ، وتقف موقف العداء المطلق للأمة العربية بكل شعوبها ودولها، وتهدد بقوتها الطاغية حاضر العرب ومستقبلهم ولقد بلغ العداء حده الأقصى — الذى فاق كل ما كان يتصوره أكبر مسىء للظن بالأمريكيين — فى عهد رئيسهم المستر (جونسون) . فمنذ تولى منصبه ، الذى آل إليه بالصدفة بعد اغتيال سلفه . . لم يأل جهـــداً فى تقوية إسرائيل وإمدادها بالأسلحة المتنوعة ، وبكميات طائلة ، وبالمعونات الفنية والمالية، عن طريق دولته المباشر أو عن طريق تابعتها ألمانيا الغربية ، تمهيداً لشن العدوان على الدول العربية ، فى الوقت الذى يقرره تآمر الاستعمار والصهيونية .

* * *

وقد صرح رئيس وزراء الصهيونيين إذ ذاك بأن مقابلته مع الرئيس الأمريكى (جونسون) عام ١٩٦٤ ظهرت نتيجتها فى حرب عام ١٩٦٧ : أى فى الحرب العدوانية التى قامت بها إسرائيل - بتأييد أمريكا - فى ٥ يونيو ١٩٦٧ . وهو قد أعلن بذلك أن مقابلته الثانية — التى عجل بالذهاب إليها مع هذا الرئيس فى واشنطن فى يناير من عام ١٩٦٨ — سيكون لها مثل هذا الأثر أو أكبر منه فى العدوان القادم الذى تزمع إسرائيل أن تشنه فى وقت قريب أو بعيد، على أوطان العرب . وقد فضح الحزب الجمهورى فى أمريكا نفسها جانباً من اتفاق التآمر الذى تم بين رئيسى الدولتين ، اللتين تشتركان فى تدبير العدوان ، فنشر فى وثيقة رسمية أن الرئيس جونسون عقد صفقة أو مساومة مع زعيم الصهاينة على أن يمده بما يطلبه من أسلحة وأموال وتعضيد فى المجالات السياسية، نظير تعهد الأخير بأن يضمن إعطاء اليهود الأمريكيين أصواتهم له أو لحزبه فى انتخابات الرئاسة التى كانت ستجرى فى نوفمبر من نفس العام .

وهكذا ، يتم هذا التآمر على حساب العرب . وهو تآمر ينافى كل قوانين الأخلاق أو القواعد التى أقرتها المدنية ، ويدل على أن السياسة الأمريكية انحدرت فى هذا العهد إلى أدنى مستوى ، وانكشفت حقيقة الدولة الأمريكية بعد أن تمزقت عنها أقنعة الخداع والتضليل ، التى نسجتها الدعايات الكاذبة. وهكذا يصل رئيس دولة الولايات المتحدة الأمريكية إلى مقعد الرئاسة على جثث وأشلاء الضحايا العرب ، وبين صيحات آلام السكان ، الذين أخرجهم الصهيونيون من ديارهم ليحولوهم إلى (لاجئين) ، ويستوى على كرسيه وسط بحور من دماء ! وهذه هى رسالة أمريكا الديمقراطية إلى العالم ، وهذه جهود دولة يقال إنها أكبر دولة فى العالم ، لتحقيق السلام والعدل وصيانة حقوق

الإنسان،واحترام القوانين الدولية ، وهذه هى أعمال ونوايا أمريكا نحو العرب والأمة العربية .

* * *

على أن عداء أمريكا ، ومحاربتها لكيان العرب وحقوقهم ، لم يبدأ من جونسون ، وإنما بلغ ذروته أو غايته الشريرة فى عهده فقط . أما العداء فقد بدأ منذ أيام سلفه الأسبق (ترومان) ، الذى أخذ على عاتقه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية رعاية الشراذم الصهيونية ، وحل محل إنجلترا الاستعمارية فى تأييد مطامع وأهداف الصهيونية ، فى فلسطين والوطن العربى . فأجبر سلطات الانتداب على قبول الآلاف من اليهود النازحين ، وبذل كل جهده لاستصدار قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، ووضع قوة دولته وراء إعلان قيام دولة إسرائيل المصطنعة ، على الأرض العربية ، بعد إجلاء وقتل سكانها وإجراء المذابح فى (دير ياسين) وغيرها .

فأمريكا هى المسئولة فى هذا الدور ، بعد بريطانيا ، عن إقامة هذه الدولة المدعوة إسرائيل ـ أو هذه المجموعة من اليهود الصهيونيين المتعصبين ـ الذين اغتصبوا البلاد ، وتحالفوا مع الاستعمار ، وكونوا جيشاً وأخذوا الأسلحة والأموال من أمريكا وتوابعها . وبذلك أقامت أمريكا فى الحقيقة قاعدة عدوانية استعمارية لتنفيذ أغراضها الإمبريالية ، ووجد الصهيونيون الرعاية والحماية لتحقيق مآربهم ومقاصدهم ، وهى مزيج من مطامع مادية ، ونزعات إجرامية شريرة ، وخرافات وأوهام دينية . وهذه القاعدة تقوم تهديداً للوطن العربى كله ، وتظل عائقاً مستمراً لنهضة العرب ، ووحدتهم ، أو ازدياد قوتهم أو استقرارهم . فهى مصدر دائم للقلق والاضطراب والمتاعب والمصائب ، فى

داخل الكيان العربي ، ونفى للسلام والأمن من منطقة الشرق الأوسط . وكل هذا المسئولة عنه أمريكا ، التى ظلت تواصل حمايتها لهذه الدولة الشاذة ، منذ إقامتها فى عام ١٩٤٨ إلى اليوم .

ففى عام ١٩٥٠ عملت أمريكا على أن يصدر التصريح الثلاثى الذى يعلن ضمان حدود إسرائيل — بما فيها المناطق التى اغتصبتها بعد قرار التقسيم . وفى عهد (أيزنهاور) — على الرغم من اعتداله — ظلت البعثات تفد من أمريكا تضع مشروعات لتوزيع المياه ، وتحويل مجرى نهر الأردن ، لتزيد إسرائيل رقعة المساحات الزراعية ، حتى تتمكن من إيواء أكبر عدد من المهاجرين . وكانت أمريكا تضغط باستمرار على ألمانيا الغربية لتدفع للصهيونين ملايين الدولارات ، بحجة التعويضات — على حين سحبت عرضها لتمويل مشروع السد العالى فى مصر . وفى عهد (كنيدى) — على الرغم من تعقله — دبرت المؤامرات ضد سوريا والوحدة العربية ، وظلت الأسلحة تتدفق على إسرائيل منذ عام ١٩٦٠ من طرق مختلفة .

وفى جميع العهود ، كانت زيارات زعماء الأمريكيين لدولة الصهيونية تتوالى ، ويصرحون — بمناسبة وغير مناسبة — أن إسرائيل منارة الحضارة أو معقل الديمقراطية ، أو نحو ذلك من الأكاذيب الوضيعة ، مع أنها بؤرة التوحش والإجرام والشر ، ومعقل الطغيان . ويقولون : إنها وجدت لتبقى — أى بحماية أمريكا وتأييدها — على الرغم من إرادة العرب ومع عدم الاكتراث بحقوقهم ، وبالإصرار على اغتصاب الأراضى ، وإبقاء أهل البلاد الشرعيين العرب لاجئين مشردين فى مختلف الأقطار ، وقد انتهبت دورهم وأملاكهم ، ويتعرضون للهلاك ، دون أن يحرك هذا أى ضمير فى وجدان الأمريكيين —

بينما قلوبهم تخلق شغفاً وهياماً بالصهيونيين ، أحبابهم ومهوى أفئدتهم !

* * *

هذه الحقائق الدامغة ، التى أصبحت واضحة أمام كل عربى فى جميع أقطار العروبة - وضوح الشمس — كما يقولون — فى رائعة النهار — ما مغزاها وما مؤداها ؟ .

مغزاها ومعناها أن أمريكا قررت واختارت ، منذ عشرين عاماً أو منذ دخلت المسرح العالمى عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أن تؤثر حفنات من اليهود الصهيونيين الغرباء أصلا عن البلاد ، والمجلوبين من مختلف العناصر والجهات ، والذين لا تجمعهم رابطة إلا رابطة الحقد والشر والطمع ، والتعصب والخرافة - أو بعبارة أخرى هذه المجموعات من الأفاقين الأشرار المغامرين - آثرتهم واختارتهم على الشعوب العربية ، أو على الأمة العربية - التى تملأ هذه المنطقة الهامة من العالم ، وهى الشرق الأوسط ، من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى - هذه الأمة العريقة الأصيلة النبيلة الطباع ، الراسخة أقدامها فى المجالات الإنسانية ، والتى أنتجت الحضارات العديدة التى قادت العالم : من عهود قدماء المصريين ، إلى الآشوريين والبابليين ، إلى الفينيقيين والآراميين ، ثم الحضارة الإسلامية الزاهرة التى أشرقت على أوروبا ، فنقلتهـــــا من ظلمات العصور الوسطى إلى أضواء العصور الحديثة .

أمريكا فضلت هـذه الفئات من الصهيونيين الواردين ، وهم لا يتجاوز عددهم مليونين ، أو ثلاثة على الأكثر ، على الدول والشعوب العربية — وهم الذين يكونون أربع عشرة دولة ، ويبلغ عددهم نحو مائة مليون من الأنفس

— لاتزال أمريكا تضع هذه الحفنات فى كفة ، وتضع ملايين العرب ودولهم فى كفة أخرى ، وهى تقول إنها لابد أن تحقق التوازن بين الجانبين ، وهذا هو واجبها ، وهذه هى رسالتها الإلهية ، التى كلفها بها الرب الأعلى . فلا تعطى إذن كل دول العرب من الأسلحة والمعونات إلا بمقدار ما تعطى لإسرائيل ، التى تعدل عندها كل الدول العربية ، بل تفوقها فى ميزانها ، بكل تأكيد ، وهى — عمليا — تعطيها أضعاف ما تعطى الدول العربية مجتمعة . بل الحقيقة أنها لاتعطى العرب شيئاً يذكر وتعطى إسرائيل كل شىء .

* * *

ومؤدى ذلك كله أن أمريكا هى التى خلقت دولة العدوان ؛ وتحمى العدوان ، وتصر على بقائه وتتحدى الأمة العربية كلها - أو بالتعبير الأصرح والأوضح - هى المعتدى الأصلى والمعتدى الأول على العرب وأوطانهم ، والعدو الحقيقى لهم ، والعقبة الكئود فى طريق نهضتهم ، وما إسرائيل إلا يد أو قدم ، أو أداة لها .

فما قيمة إسرائيل هذه من غير أمريكا ؟ إن إسرائيل ما كانت لتوجد ، وما كانت لتساوى شيئاً يذكر ، وهى بذاتها لا قدر ولا قوة لها . وما كانت تستطيع أبداً أن تبقى يوما واحداً بين العرب ، لولا حماية أمريكا لها ، ووقوفها وراءها ، وإمدادها دائما بالأسلحة ، والأموال والسندات والخبرات والمساعدات ، والمعلومات ، والتعضيد المطلق لها . وها هو ذا الأسطول الأمريكى السادس يقف فى البحر المتوسط — بحاملات طائراته ومشاة بحريته ، وسفن تجسسه ، لحمايتها ، ورهن إشارتها .

* * *

ولقد أحدثت التطورات الأخيرة تحولا هاماً فى مواقف بعض الدول

الأوربية ، التى كانت تؤيد إسرائيل، إذ انكشفت حقيقتها العدوانية التوسعية وطبيعتها العنصرية والبربرية ، بعد العدوان الأخير أمام هذه الدول . وظهر بعض الساسة الحكماء الذين يحترمون المبادىء والعدالة — كما حدث فى موقف فرنسا ورئيسها ، الذى أخذ يقدر مأساة العرب والظلم الواقع عليهم، وبدأ صفحة ودية جديدة مع العرب ، بل حتى بريطانيا وجدت أنها لا تستطيع أن تجارى إسرائيل فى مطامعها التى لا حد لها ، وانتهاكها للمواثيق الدولية — وهذا فضلا عن الإدراك الكامل للشعوب الاشتراكية لخطر إسرائيل والصهيونية ؛ وتحالفها مع الاستعمار وقوى الشر والعدوان .

فالواقع أنه لم يبق الآن إلا أمريكا الحامية والمعضدة لإسرائيل، فى عدوانها واغتصابها واقترافها الأعمال الإجرامية الوحشية ضد العرب الآمنين . وهى لا تزال ـ حتى بعد ارتكابها هذه المآسى ـ تمدها بأحدث الأسلحة الفتاكة ، لتواصل قتل العرب ، وإجلاءهم عن أوطانهم ، ونسف دورهم، وقذف مخيمات اللاجئين بالقنابل ، وضرب المدن : فى الأردن أو سوريا أو الجمهوريه العربية المتحدة ، ثم ما بعد ذلك .

فهذا هو موقف أمريكا ، وهذا هو وضعها الحقيقى من العرب وأمة العرب . وهذه هى الحقائق الثابتة ، التى أصبحت متجلية أمام أى مواطن فى الاقطار العربية . فأى مواطن تسمح له نفسه إذن أن يتعاون مع هذه الدولة المعتدية على بلاده ؟ وأى عربى يسمح له ضميره أن يقف فى صف هذه القوة الباغية التى تريد تدمير وطنه ؟ وتعطى الأسلحة لأعداء العرب ليقتلوهم ، أو يحولوهم إلى لاجئين ؟ يجب أن يعامل العرب أعداءهم بمثل ما يعاملونهم ، ويجبروهم على احترامهم . ويجب أن يدفعوا عن بلادهم ، ويزيلوا قواعد

العدوان من أرضهم . إن مصير العرب واحد ومصالحهم واحدة ، وعدوهم متعين ومعروف .

* * *

ولا بد أن يتساءل المرء : ما هى الدوافع التى دفعت أمريكا لهذا الموقف العدوانى ؟ فالأسباب عديدة ، ويكفى أن نشير إليها دون تفصيل. فالدافع الأول هو الإمبريالية الأمريكية ، ومطامع الدوائر الاحتكارية والاستعمارية لإخضاع منطقة الشرق الأوسط ، وهناك الصراع الدولى ، وهناك أصوات اليهود فى الانتخابات ، وهناك رشاوى اليهود للساسة والزعماء الأمريكيين .

ولكن مع هذا كله ووراءه هناك الدعايه الصهيونية ، وجهل الشعب الأمريكى بأحوال العرب وتاريخ العرب وحقيقة القضية .

فالشعب الأمريكى لا ينظر للمسألة إلا بعين الصهيونية ، ولا يشعر إلا بشعورها . ولذا يرى المسائل مقلوبة ، فهو يظن العرب هم المعتدين ، وأن إسرائيل هى حمل وديع معتدى عليها . ولا تصله أنباء المجازر والفظائع اليهودية .

وهذا الجهل هو سبب البلاء ، وهو الذى يمكن للساسة والزعماء أن يضللوا شعبهم . وهذا السبب هو الذى يجب أن يوجه إليه العرب عنايتهم . فلن يكون من اليسير حل القضية و إثناء أمريكا عن غيها وضلالها، إلا إذا قام العرب بحملة دعائية واسعة ، فى داخل أمريكا ، لتفهيم الشعب الأمريكى حقيقة القضية العربية ، والعدوان الإسرائيلى والمظالم الصارخة الواقعة على العرب ، وليعلم الشعب الأمريكى أنه يخسر بالسير فى هذا الطريق ، وتضيع مصالحه وتنهار سمعته ـ وهو الذى حدث فعلا . فأمريكا قد سقطت الآن سقوطا ذريعا

فى العالم العربى . وصارت فى نظر العرب قـوة متوحشة ، تعمل للظلم ، ولا يحركها أى شعور إنسانى ، ولا تعبأ بالقوانين الدولية . ولن تنقـذ نفسها وسمعتها إلا إذا غيرت سياستها ؛ وعرفت الحق وأيدت العدالة : حق العرب فى أوطانهم ؛ وعـدالة قضيتهم ، ضـد شراذم الصهيونيين المعتدين الأفاقين المجرمين .

العدوان والقرارات الدولية

بعد مداولات ومناورات مضنية ، أصدر مجلس الأمن قراره بالإجماع فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ بشأن أزمة الشرق الأوسط ، أو بتعبير أدق — بشأن العدوان الإسرائيلى الاستعمارى على الدول العربية . ونص هذا القرار — بين بنود أخرى — على عدم شرعية احتلال الأراضى بالقوة ، وعلى وجوب انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها بعد عدوانها فى ٥ يونيو ، وتسوية مشكلة اللاجئين .

ومضى على هذا القرار الدولى الآن مدة طويلة ، حضر خلالها مندوب من الأمم المتحدة قام برحلات متعددة بين عواصم الأقطار المعنية ، بهدف تنفيذ قرار مجلس الأمن ، لكن ماذا كانت النتيجة ؟ لا يزال الوضع كما هو : لا تزال إسرائيل تصر على ستمرار احتلالها للمناطق التى احتلتها بعد العدوان ، أو تجبر العرب على الدخول فى مفاوضات معها ، لتملى شروطها . بل زادت على ذلك تقررت ضم هذه الأراضى التى احتلتها : من الجمهورية العربية والأردن وسوريا .

وهذا القرار الذى اتخذه مجلس الأمن إنما توصل إليه بعد مناقشات وبيانات شغلت الجمعية العامة للأمم المتحده ، فى دورتين فى العام الماضى . ومنذ ذلك الحين توالت التصريحات من رؤساء ووزراء معظم دول العالم ، تستنكر العدوان ، وتطالب إسرائيل بالانسحاب من هذه الأراضى التى

اغتصبتها ، وتعلن أن الانسحاب هو الشرط الأول والأساسى لتسوية الأزمة فى الشرق الأوسط .

* * *

وكانت الجمعية العامة قد اتخذت قراراً مرتين ، بأغلبية ساحقة ، ينص على عدم مشروعية احتلال إسرائيل للقدس العربية ، وعلى بطلان الإجراءات التى اتخذتها لضمها .

كما صدرت قرارات بوجوب معاملة سكان الأراضى المحتلة معاملة إنسانية متفقة مع مبادىء ميثاق جنيف،وكذلك أصدرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة قرارا يلزم إسرائيل بإعادة أهالى الضفة الغربية إلى أرضهم وديارهم . ثم أصدرت قراراً آخر يطالب إسرائيل بوقف نسف منازل العرب فى القدس والأراضى المحتلة ، وعمليات الإرهاب التى تمارسها ، ويندد بالأساليب النازية التى تتبعها ، والتفرقة العنصرية ، والجرائم التى ترتكبها ضد الإنسانية .

* * *

وبجانب هذه القرارات كلها ، فإن ميثاق الأمم المتحدة الذى وقعته دول العالم — والذى أصبح هو القانون الدولى القائم المعترف به — ينص على عدم جواز الاستيلاء على أراضى الغير بالقوة ، وعلى ضمان حدود الدول واستقلالها ، وعلى منع العدوان واستخدام وسائل العنف ، ويعلن حقوق الإنسان فى وثيقة تحتفل بها الدول كل عام .

لكن هذا كله لا يجدى ، ولا أثر له عند « إسرائيل » ! وكأن هذه القرارات كلها لغو ، ولا قيمة لها . فهى تستمر فى تنفيذ أغراضها كما تريد :

تشن العدوان على الدول العربية مرة بعد أخرى ، وتوسع حدودها من عام لآخر ، وتدمر وتنسف وتقتل ؛ وتسلب وتنهب ، وتعامل العرب — سواء الباقين فى داخلها ، أو الذين تستولى على بلادهم — معاملة همجية ، لا يقرها قانون ولا خلق ولا دين .

* * *

وبهذه الوسائل ، استطاعت أن توسع حدودها — فى مدى عشرين عاما منذ إقامتها — إلى أضعاف ما كان أعطى لها فى قرار التقسيم . وكانت آخر مراحل التوسع هى احتلالها لهذه المناطق : قطاع غزة وسيناء من مصر ، والضفة الغربية فى الأردن ، ومرتفعات جولان فى سوريا . وكان تاريخها دائماً ، منذ وجودها ، أنها لا تكترث بقرارات الأمم المتحدة . فأهدرت قرارها ، الذى اتخذ فى عام ١٩٤٩ ، بشأن عودة اللاجئين وتعويضاتهم . وانتهكت اتفاقية الهدنة مئات المرات ، ولم تعبأ بما أصدره مجلس الأمن من قرارات بإدانتها بالعدوان ، فى إغاراتها المتتالية : على غزة وقبية والحولة وطبرية وغيرها . وهكذا ظل أكثر من مليون عربى لاجىء — وهم شعب فلسطين — يهيمون على وجوههم طيلة عشرين عاما ، ثم زادوا فى العدوان الأخير أربعمائة ألف آخرين ، أو يزيدون .

وها هى ذى بعد هذا العدوان ، وبعد جهود الجمعية العامة ، ومجلس الأمن ، والهيئات الدولية — تتحدى هذه الجهود والرأى العام العالمى ، وترفض قرار مجلس الأمن الذى يقضى بانسحابها من الأراضى التى احتلتها بعد العدوان .

* * *

سلسلة طويلة ممتدة ، من العدوان والتحدى ، وانتهاك القوانين والمواثيق ، وعدم الاعتراف بالقرارات الدولية ، مع أن سبب وجودها ـ ولا سند غيره ـ هو قرار صدر ـ بضغط أمريكا ـ فى ظروف مريبة، من الجمعية العامة ، ولم يعترف به شعب فلسطين صاحب الشأن ، ولا الدول العربية ـ خصص لها مساحة صغيرة محدودة ، تجاوزتهـا الآن إلى أضعافها . وكان الغرض من إقامتها أن تكون ملجأ يضم شتات اليهود المشردين فى أنحاء الأرض ، وليست دولة توسعية عنصرية ، تخرج العرب من أوطانهم لتحل محلهم . فإذا كانت قرارات الأمم المتحدة غير ملزمة ولاقيمة لها ، فهذا القرار الذى كان جائرا ، والذى كان سبب إقامتها ـ ماهو إلا مجرد توصية غير ملزمة ، ولاقيمة له، وإذن فليس هناك أى سند لبقائها ووجودها .

* * *

ماسبب هـذه الاعتداءات ، وما السر فى هذا الوضع الشاذ ؟ وكيف استطاعت وتستطيـع إسرائيل أن ترفض هـذه القرارات الدولية ، وتهزأ بالمنظمـة العالمية ، وتمزق ميثاق الأمم المتحـدة ، وتتحدى الرأى العـام العالمى ؟ .

هل لها من القـدرة مايجعلها تستطيع أن تفعل ذلك ، ولايقدر أحد على مجابهتها، أو إيقافها عند حدها ؟ كلا . فالجواب واضح وقاطع . وهو أنها ما كانت أبدا لتستطيع أن تفعل أى شىء من هذا ، أو تقف هذا الموقف ، بذاتها ، فإنها ـ مهما حصلت على أسلحة ـ قوة صغيرة محدودة ، وكان يمـكن القضاء عليها فى أى وقت ، بل لم يكن من الممـكن أن تظهر من البداية ، لولا السر الأكبر ـ وهو ليس سرا ، وإنمـا هو الحقيقة الواضحة التى يراها كل إنسان ـ وهو

حماية الاستعمار لها ، ووقوفه إلى جانبها أو وراءها . فالاستعمار هو المسئول الأول عن وجودها أولا منذ البدء ، ثم عن الأعمال العدوانية ، والتوسع ، والجرائم التى ترتكبها وانتهاك القوانين والمواثيق الدولية - الاستعمار أيدها ويؤيدها فى كل هذا العدوان .

فبعد إقامتها أصدرت الدول الاستعمارية تصريحها الثلاثى فى عام ١٩٥٠ ، الذى أعلنت فيه تعهدها بضمان حدود إسرائيل .

وظلت منذ الساعة الأولى تمدها بالأسلحة والأموال، وتغضى عن اعتداءاتها المتكررة ، ولا تتخذ أى إجراءات عملية لمنعها . بل فى أحيان كثيرة كانت هى التى تحرضها ، واشتركت معها دولتان بالفعل فى العدوان الثلاثى . فكانت القوى الاستعمارية دائما ضد العرب . ولو حدث أن أية دولة عربية حاولت أن تدافع عن نفسها بهجوم على ربيبة الاستعمار هذه إسرائيل ، لقامت الدنيا وقعدت ا وأظهرت هذه الدول كأن السماء انطبقت على الأرض ! وتسرع إلى إنزال العقاب والتنكيل بهذه الدول العربية ، التى حاولت أن تدافع عن نفسها . أما إسرائيل فلها أن تفعل ما تشاء ، ولا تجد من هذه الدول إلا أن توافقها وتباركها . فطوال هذه العشرين عاما كانت الدول العربية فى موقف الدفاع دائما ، وتنقص أراضيها . أما إسرائيل فكانت المهاجمة والمعتدية باستمرار ، وتكسب المواقع والمغانم من العدوان .

* * *

والآن ، بعد وقوع هذا العدوان الكبير ، الذى زاد عما سبقه ، واحتلال هذه المناطق الشاسعة - نرى أنه قد حدث بعض التحول فى مواقف دول الاستعمار . ففرنسا وجدت أن إسرائيل جاوزت كل حد ، وأنه حان الوقت

للتوقف عن التأييد المستمر فى كل أعمالها، فأدانتها بالعدوان وطالبتها بالانسحاب، كإجراء مسبق لحل الأزمة. وكان هذا موقفا تاريخيا. وبريطانيا أيضا خفضت من غلوائها فى تأييد إسرائيل. فاعترضت على بعض قراراتها كما فى مسألة القدس والتوسع بضم أراض بالقوة، وكانت هى التى قدمت المشروع الأخير الذى وافق عليه مجلس الأمن، وإن كانت لاتزال تتبع سياسة ذات وجهين.

فلم يبق فى الواقع من يمثل الاستعمار بوضوح غير أمريكا. فهى القوة الوحيدة الباقية الآن، التى تولى إسرائيل تأييدها المطلق بدون حدود، وتقف وراءها تسندها وتشجعها وتباركها فى كل أعمالها. بل هى التى أعطت — وتعطى — إسرائيل الأسلحة والأموال لتتمكن من شن العدوان، والتمادى فيه واستمرار اغتصابها للأراضى العربية. ولايهم أمريكا ما تقترفه إسرائيل من جرائم وحشية، فاقت فى هولها جرائم النازيين التى استنكرها العالم. فهذا العدوان الذى حدث يوم ٥ يونيو ما كان ليقع لولا أن اشتركت أمريكا فى تدبيره من قبل، وزودت إسرائيل بأكبر كميات من الأسلحة، وأمدتها بالمعلومات. ثم بعد أن وقع ألقت أمريكا بكل ثقلها وضغطها، لتمنع الهيئات الدولية من اتخاذ قرار يدين إسرائيل بالعدوان أو يلزمها بالانسحاب بنص صريح.

* * *

ومع أنها اشتركت فى الموافقة على قرار مجلس الأمن الأخير، إلا أنه لم يبد منها ما يدل على أنها تريد أن يحترم هذا القرار وإسرائيل فى هذه الأثناء مستمرة فى احتلالها الأراضى، وفى إجراءاتها التعسفية غير القانونية، ونسف الدور، وإخراج الزعماء، وقتل شباب العرب، وفى تحديها للأمم المتحدة، ورفض كل

قراراتها بل استهزائها بها . وكل هذا وأمريكا راضية بل مغتبطة ومؤيدة ، وتعلن بصراحة أنها ستواصل إعطاء إسرائيل كل ماتحتاجه من أسلحة حديثة أى لتواصل العدوان والاحتلال ، والتمادى فى الجرائم ، والإستهانة بالمنظمة الدولية وقراراتها .

ومن الواضح جداً — بل هو بديهى — أن أمريكا لوشاءت أن تمنع هذا كله ، وتنهى إسرائيل عن العدوان ، وتأمرها بالكف والانسحاب ، وإنهاء الأزمة التى خلقتها — لاستطاعت ذلك بكل سهولة ، وما أمكن لإسرائيل أن تخالفها ، فهى مصدر وجودها وولى أمرها ونعمتها ، بل إنما إسرائيل تحارب بأسلحتها وتعيش بأموالها ، ولم يعد لإسرائيل فى العالم سند آخر قوى غيرها .

وأمامنا مثل صار إحدى حقائق تاريخنا المعاصر ، وهو ما حدث فى أثناء العدوان الثلاثى ، إذ أعلن رئيس أمريكا الأسبق « أيزنهاور » عدم موافقته على شروع إسرائيل فى العدوان ، ثم استنكر ماقامت به من العدوان بعد ذلك . وأمرها بأن تنسحب من سيناء ، فأصاخت ورضخت — على الرغم من إرادتها . وهذا موقف — مهما كانت البواعث عليه — حفظه التاريخ للرئيس الأسبق (أيزنهاور) وأثنى عليه بسببه .

وغريب أن أمريكا التى وقفت حينذاك موقفاً معتدلا ، بالنسبة للدول التى اشتركت فى العدوان ، قد قلبت الآن موقفها رأساً على عقب . فهى الآن الأشد حماساً وإخلاصاً ، بل بلغ بها الحماس والغلو فيه إلى درجة ما كانت تجول بخاطر أحد . فقد وصلت إلى درجة أنها ـ فى سبيل إرضاء إسرائيل ـ تسمح لها بانتهاك كل المواثيق

الدولية وحقوق الإنسان. لا، بل تشجعها وتشترك معها فى العدوان، وبحيث أنها أصبحت لا تدرك ما سيصيب مصالحها فى البلاد العربية - وهى كثيرة وهامة - من ضرر، ولا تبالى أيضاً بسمعتها التى انحطت إلى أدنى درك. فهدمت بسياستها هذه كل ماجهدت الجامعات التى أنشأتها فى الشرق الأوسط، والوفود التى أرسلتها، ومؤسساتها الثقافية - ما جهدت أن تنشره بين العرب من دعاية لها. فلم تعد أمريكا الآن فى نظر الأمة العربية، وكذلك فى نظر أكثر شعوب العالم، إلا دولة إمبريالية استعمارية، وقوة غاشمة متآخرة، لا تكترث بالقوانين ولا بمبادىء الأخلاق، التى سعت المدنية لاحترامها والالتزام بها.

* * *

والآن ماهو الحل فى نظر أمريكا، الدولة الغنية القوية ؟ إن كان ميثاق الأمم المتحدة، وقرارات الجمعية العامة، ومجلس الأمن، ولجنة حقوق الإنسان — لا تنفذ ولا قيمة لها، فماذا يبقى إذن ؟ . لا يبقى إلا أن يكون الحق للقوة : أى شريعة الغاب. وهذا هو المنهج الذى تسلكه إسرائيل، وهو المبدأ الذى سارت عليه منذ أقامها المستعمرون. والذى يبدو أن أمريكا - حتى الآن تؤيدها فى هذا المذهب. فماذا ستكون نتائج ذلك، وماذا سيكون مصير السلام فى الشرق الأوسط وفى العالم ؟.

إن الدول العربية لا يمكن أن تسكت على الأراضى التى انتزعت منها بالعدوان، فإن لم يتسن إجلاء الغاصب عنها بالطرق القانونية، فلا بد من إجلائه عنها بالقوة. وهذه تكون حينئذ حرباً مقدسة لتحرير الوطن والانتصاف للكرامة والشرف. فالمعتدون - بعنادهم - ومن يساندونهم، إنما

يعملون إذن من أجل الحرب ، وعليهم تقع كل المسئولية فى ذلك . وهم بذلك يريدون تفاقم الأزمة ، وأن يقودوا العالم إلى الهاوية .

مهما يكن من أمر ، فإن العرب مصممون على تحرير كل أراضيهم — ما انتهب منها بعد العدوان أو قبله . والعرب — إذا دعا داعى الواجب والشرف — هم رجال نضال وحرب . وقد عرفهم التاريخ فى كل أدواره مجاهدين ، طالما ردوا الأعداء الذين أغاروا عليهم ، وقهروهم . وقد أقسموا الآن على أن يواصلوا الجهاد حتى النصر . وهم واثقون بأن الله القوى القادر ، الذى يقهر أعتى الأقوياء ، ويؤيد الحق والعدل ، لابد ناصرهم ومؤيدهم . وإن الله تعالى لا يحب المعتدين ولا الظالمين . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

موقعـة حطين

أو

الانتصار على الصليبيين

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وكأن التاريخ يعيد نفسه .

يعد المؤرخون موقعة حطين من المواقع التاريخية الحاسمة : تلك التي يكون من شأنها أنها تنهى عهداً وتبدأ عهداً يختلف فى طبيعته وروحه عن سابقه . فقد اعتبرها بعضهم « الخاتمة » الحقيقية للحروب الصليبية ، وإن استمرت بعدها مدة طويلة . وعلى العموم يتفق المؤرخون على « أن وقعة حطين كانت بمثابة ناقوس الفناء لدولة الصليبيين ببيت المقـدس ، وللصليبيين جميعاً بالشرق » . وذلك لأنه فنى فيها زهرة فرسانهم الذين وفدوا من مختلف أقطار أوروبا ، وقتل أو أسر معظم قادتهم ، وحطم أكبر جيش حشدوه منذ الحملة الأولى التى بدأوا بها عدوانهم على وطن العروبة والإسلام .

كان الصليبيون قد جاءوا إلى الشرق مدفوعين بمشاعر دينية مضللة ، وأفكار خاطئة ومطامع مادية جشعة ، فكانوا يمثلون روح التعصب والجهل والشره التى كانت سائدة فى أوربا فى تلك العصور ، وارتـكبوا من أفعال التخريب والفتك وسفك الدماء ، مايدمغهم بالوحشية والتأخر ، وما لا يماثله إلا أعمال الصهيونيين التى يقترفونها فى نفس البلاد فى زماننا الحاضر . غير أن

الصليبيين كان لهم عذر أنهم كانوا يعيشون فى ظلام العصور الوسطى . أما الصهيونيون فماذا يبررما يقومون به فى عالم القرن العشرين ، بعد أن قطعت الإنسانية أشواطاً طويلة فى نهج التقدم والحضارة ؟ !

وبعد أن ظفر الصليبيون بانتصاراتهم فى السنين الأولى ، وظنوا أنهم باقون فى ممتلكاتهم التى أسسوها : فى القدس وسائر فلسطين وطرابلس والرها، وغيرها - بدأت قوة الشرق العربى الكامنة فى الظهور ، وأخذ الشرق يتحرك ويمد العدة وينهض ، ليرد المعتدين ، ويدحرهم ويسترد منهم الأراضى التى احتلوها .

* * *

ففى شمال العراق فى « الموصل » ، ظهر القائد المقدام « عماد الدين » واستطاع أن يتغلب على الصليبيين ويوقع بهم هزيمة فادحة ، ويسقط دولتهم التى أقاموها فى « الرها » وما حولها . وتلقف الراية بعده ابنه المجاهد المؤمن المثالى ، الذى شبه المؤرخون سيرته بسيرة الخلفاء الراشدين ، وهو « نور الدين » فى دمشق ، فوقف حياته على مجاهدة المعتدين الآثمين ، ونجح فى الدفاع عن سوريا والعراق ، ثم بادر بإرسال بعثة حربية إلى مصر ليرد عدوان الصليبيين ، ويحبط محاولاتهم التى كانت تهدف إلى الاستيلاء عليها ، وهى البعثة التى قادها أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ونجحت البعثة فى مهمتها فردت الصليبيين على أعقابهم ، بعد أن أنزلت بهم عدداً من الهزائم . ثم استقر الأمر لصلاح الدين فى مصر .

فمنذ اللحظة التى آلت فيها إليه قيادة الأمة ، نهض صلاح الدين براية الجهاد ، وجعل هدفه أن يكرس كل جهوده لينزل الهزيمة القاضية بالصليبيين ، ويستأصل

شأفتهم ، ويطهر جميع البلاد من رجسهم وعدوانهم . وشعر أن الله اختاره لهذه المهمة ، فقد أثر عنه أنه قال : « لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل (أى فلسطين والشام) لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

ووجد صلاح الدين أنه لتحقيق هذه المهمة يجب أن يثبت دعائم دولته أولا ، ويقوى الدفاع عنها وينظم مواردها ، ولا بد أن يعيد الوحدة بين مصر وسوريا كما كانت فى عهد سلفه نور الدين ، ويتمم الوحدة بضم الموصل وشمال العراق أيضا ، وذلك لكى تتجمع جهود جميع أقطار الوطن العربى وتقف كلها كتلة واحدة ، وسداً منيعاً ضد الأعداء . وفى الوقت الذى كان يعمل فيه للوصول إلى هذه الغايات ، كان يقوم بواجبه فى مقاتلة الأعداء بين حين وآخر ، فى مصر أو فلسطين أو الشام ، حتى تعرض جنده مرة فى أوائل عهده لهزيمة عند « الرملة » جنوبى فلسطين ، إذ هاجمهم العدو على غرة وهم مشغولون بترتيب الفرق ، فتبدد الجند فى الصحراء وكانت كسرة كبيرة . لكنها لم تؤثر شيئاً فى عزم صلاح الدين ولا ثقته بالنصر ، فاستأنف تكوين قواته وصار أقوى مما كان ، وعاد إلى منازلة الأعداء ، حتى استطاع أن ينتصر عليهم فى موقعة هامة .

غير أن الهدف الأكبر الذى كان يتطلع إليه هو أن يوفق فى أن يتم الوحدة بين البلاد ، ويأتى الوقت الذى يستطيع فيه أن يحشد كل قواه وموارده ، ليلتحم مع الأعداء فى موقعة حاسمة كبرى ، فيتمكن من أن يحطم جيشهم ويدمر قوتهم ، فيضع بذلك حداً لبقائهم ونهاية لعدوانهم ، ويصبح الطريق مفتوحاً أمام جيش المسلمين ليحرر المدن والبلاد التى استولى عليها الصليبيون ، وفى طليعتها « القدس الشريف » . فيحقق بذلك آمال الأمة

ويؤدى واجبه لربه ويرضى ضميره ، وعندئذ يوقن الصليبيون أن مآلهم إلى الزوال والجلاء ، ويستريح الناس من شرورهم وآثامهم . وكان صلاح الدين الزعيم الكفء والقائد القدير ، الجدير بتحقيق هذه المهمة والفوز بالنصر ، فقد كانت له الصفات التى تؤهله ليكسب هذا المجد .

* * *

كان « صلاح الدين » – كما يصفه المؤرخون الذين عاصروه وعرفوا حياته عن كثب – قوى الإيمان شديد الإخلاص عارفا بربه مسلماً تقياً كريماً ، يسير فى الناس بسيرة العدل ويقضى فى الأمور بالشورى . كانت غاية حياته الجهاد ، ووهب نفسه فى سبيل الله . قال عنه القاضى « ابن شداد » — الذى كان وزيره الملازم له — : « إنه كان شديد الاهتمام بالجهاد . ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ووجدانه ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا فى عدته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله . وقال عنه أيضاً : « ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه ، وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب منها الرياح ميمنة وميسرة . ووصف اشتراكه فى الحروب فقال : « كان إذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين يرتب العساكر وينظم الفرق ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف . وكان يشارف العدو ويجاوره » . فالواقع أن صلاح الدين لم يكن ملكا أو سلطاناً ، وإنما كان فى الحقيقة قائداً فى الميدان يعيش وسط جنوده ، ويتقدم جيشه فى المعارك ، ويقضى ليله ونهاره فى أعمال الحرب . . . وأما عن شجاعته ، فقد حدث الوزير عنه فقال : « كان – رحمه الله – من عظماء الشجعان ، قوى النفس شديد البأس لا يهوله أمر» . وأفضى إلى الوزير بما فى نفسه ، فقال إنه كان ينوى بعد أن

يطهر البلاد من الأعداء أن يتبعهم فى البحر إلى جزائره ، حتى يجليهم عنها أيضاً »

فهذه حقيقـة صلاح الدين الذى قضى حياته فى الميدان ، مجاهداً فى سبيل الله والوطن والعزة .

* * *

وإلى جانب الأسباب الأصلية والاعتداءات المتكررة من الأعداء ، أخذت تتجمع الأسباب المباشرة التى كان من شأنها أنها لابد أن تحدث صداماً بين القوتين . وفى مقدمة تلك الأسباب أنه كان هناك فى قلعة حصينة بجنوب الأردن تسمى « الكرك » — وهى قلعة كانت تشرف على المنطقة الواقعة بين «أيلة» والبحر الميت ، أو صحراء النقب ، وتقف حاجزاً بين مصر والشام والحجاز — كان يوجد فى هذه القلعة أحد عتاة الصليبيين ، ويدعى « أرناط » . كان هذا الصليبى متعصباً فظاً خبيث النفس ناكثاً للعهود ، ودأبه الإجرام فى حق المسلمين والاعتداء والسلب . فكأنه كان سلف زعماء الصهيونيين الموجودين فى عصرنا الحاضر .

كان هذا الرجل يعتدى على القوافل المترددة بين مصر والأقطار العربية ، وينهب ويأسر ويقتل . وبلغ من قحته وغروره أنه هم بإرسال جيش إلى شمال الحجاز ، متوعداً أن يغزو « المدينة » ، لكن حين علم بذلك والى دمشق — وهو ابن أخى صلاح الدين — بادر بإرسال جيش هاجم القلعة ودمر المنطقة ، حتى اضطر الرجل إلى الكف عن مشروعه . وكان هذا الخبيث قد سير أيضاً بعض سفن محاربة من «أيلة» على خليج العقبة إلى البحر الأحمر ، فاعتدت على مراكب المسلمين فى الشواطىء المصرية والحجازية ، وكان غرضها أن تصل إلى « المدينة » . لكن العادل — أخا صلاح الدين ونائبه فى مصر —

أرسل أسطولا من خليج السويس فقصد « أيله » ، ثم سار يتعقب السفن الصليبية حتى أدركها بميناء « حوراء » شمالى المدينة فأحرقها وأغرقها ، وتتبع من فروا إلى البر فأسر بعضهم وأفنى الباقى . وأرسل بعض الأسرى ليزفوا فى شوارع القاهرة .

وكان آخر اعتداءات هذا الرجل أنه فى عام ٥٨٢ هـ انقض على قافلة تجارية كبيرة قادمة من مصر ، فنهب كل أموالها وأسر رجالها ، وكان هذا نقضاً أخيراً لهدنة كان عقدها مع صلاح الدين ، وكان يتوقح على الأسرى ويقول لهم : « . . قولوا لمحمد يجىء ليخلصكم » !! فلما بلغ ذلك صلاح الدين نذر إن أظفره الله به ليقتلنه بيده ! .

وكان الصليبيون يعتدون فى كل مكان حلوا فيه ، ولا يرعون العهود ، وقد استشرى شرهم وطال احتلالهم ، والبلاد تتوق إلى الخلاص منهم وإجلائهم . ورأى صلاح الدين — وهو ممثل آمال الأمة — أن الوقت قد حان لمنازلتهم فى الموقعة الفاصلة ، وإنجاز للمهمة التى وقف عليها حياته . وكان فى أثناء حصاره للموصل قد مرض مرضا شديدا ، فخاف أن يدركه الأجل قبل إنجازه مهمته . فلما فرغ من الحصار ، وتمت له الوحدة التى كان يعمل لها بين الموصل والجزيرة والشام ومصر ، ووجد أن الله قد أكمل له النعمة — شعر أنه لا بد من أن يؤدى شكر النعمة لله بالجهاد فى سبيله . وعلى ذلك ـ وبعد الأحداث الأخيرة ـ أعلن فى ذاك العام ٥٨٢ هـ التعبئة العامة والجهاد ، وأرسل يستدعى الجنود من جميع العواصم والبلاد العربية ، فوفد عليه ألوف الجنود والمتطوعين ، حيث أقام معسكره العام بإحدى ضواحى « دمشق » .

فلما علم الصليبيون بما عزم عليه صلاح الدين نادوا أيضاً بالتعبئة العامة ،

وأخذوا يحشدون جنودهم . وكان رئيسهم ملك بيت المقدس «جى لوزجنان» ، ومن زعمائهم المحرضين على الحرب « أرناط » هذا ، واتفق جميع زعمائهم ونسوا الخلافات بينهم. وتجمعت الجنود والفرسان من كل حدب ، فقد كان الصليبيون يحتلون كل فلسطين، وساحل لبنان وساحل سوريا إلى إنطاكية شمالا. واتخذوا معسكرهم العام بالقرب من « عكا » .

وفى أوائل عام ٥٨٣ هـ قام صلاح الدين على رأس حملة إلى جنوب الأردن، ليفتح الطريق أمام العساكر المصرية ، القادمة بقيادة أخيه العادل ، لتنضم إلى الجيش بالشام ، وأيضاً ليؤمن قافلة الحج العائدة من الحجاز . ونجح فى كلتا المهمتين . ثم أرسل ابنه « الأفضل » على رأس جريدة سريعة ليهاجم الصليبيين فى أقرب مواقعهم ، ليبدأ القتال ويختبر قوة العدو ، فنجحت البعثة إذ فاجأت فرقة من الصليبيين ، فهزمتهم وقتلت عدداً من رؤسائهم .

* * *

ولما أتم صلاح الدين تعبئته ، وأكمل استعداده وتنظيمه ، زحف بجيشه متجهاً إلى الجنوب من دمشق ، حتى وصل إلى بحيرة طبرية ، فاختار المكان وقرر أن يرابط الجيش على الهضبة الواقعة غربى طبرية وتكون البحيرة وراء ظهره ، وأحاط بها بحيث لا ينفذ إليها أحد من العدو . وكان جيش الأعداء غير بعيد ، مرابطاً خارج عكا. ونظم صلاح الدين الفرق وحدد المواقع ووزع الأسلحة ، واستعد للقتال وانتظر أن يقدم العدو لمهاجمته ، ولكنه لم يفعل . فعقد صلاح الدين مجلس شورى الحرب واستشارهم ، وتبادلوا الرأى فرأى بعضهم أن لا ضرورة لخوض معركة شاملة قد تكون مخاطرة ، وأن يكتفى بشن الغارات والالتقاء فى معارك محدودة متفرقة ، ولكن صلاح الدين —

ومعه من يؤيده — كان يرى غير ذلك ، فخاطبهم بكلام يعد من أروع ما سجل التاريخ ، فكان مما قال لهم : « الرأى عندى أن نلتقى بجمع المسلمين جمع الأعداء . فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان. ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا. ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد » .

وختم خطابه قائلا : « هذا هو اليوم الذى كنت أنتظره » . وقد جمع الله لنا العساكر . وأنا رجل قد كبرت (كان فى الخمسين من عمره) وما أدرى متى يحين أجلى . فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا لله تعالى لا من أجلى . فاقتنع الجميع بكلامه ، وصمموا على الدخول فى المعركة الشاملة .

وهكذا اختار صلاح الدين الوقت والمكان، اللذين يحارب فيهما الأعداء . أما الوقت فقد اختاره بعد أن جمع كل قواته والأمة معه متحدة ، ووضع خطة الحرب محكمة بتفكير وروية ، وعنده الأسلحة والأموال موفورة ، والعزم صادق والإيمان فى ذروته ، كما كان يعلم أنه فى ذلك الوقت كان هناك خلاف دفين بين رؤساء الأعداء ، وأن النوايا بينهم ليست صافية . وكذلك اختار المكان ، فقرر أن تدور الموقعة على سطح جبل طبرية وتل حطين القريب منه ، ويقف الجيش سداً أمام الأعداء ، حائلا دون بحيرة طبرية فلا يصلون إلى مائها العذب . ولكن المشكلة كانت كيف يجبر العدو أو يغريه ليجعله يقدم لمهاجمته فى هذا المكان الذى اختاره ، ووقف مستعداً فيه للحرب وهو بكامل أهبته .

لا بد أن يستثير العدو ويستدرجه إلى هذا المكان الذى اختاره . فلكى يحقق هذا ، ترك الجيش واقفاً مستعداً حيث هو ، وسار على رأس جريدة ، ليهاجم مدينة طبرية وقلعتها الواقعة وراءه ، والتى كانت تحكمها أميرة صليبية ، فهدم أسوار المدينة وبعد قتال عنيف استطاع أن يستولى عليها ، ولكن القلعة

اعتصمت ، وأرسلت الأميرة إلى زملائها الصليبيين تستنجد بهم وتستغيث . فاختلفوا فى الرأى . وأخيراً غلب عليهم الحماس واستفزهم الغضب والحمية ، فقرروا السير والتقدم لإنقاذ طبرية وجاليتها وأميرتها . تحرك جيش الصليبيين أو الفرنج فى يوم الخميس الموافق ٢٢ من ربيع الثانى من ذاك العام (٥٨٣ هـ) وهو الثانى من يوليو من عام ١١٨٧ ميلادية — تحرك من معسكره فى عكا ؛ متجهاً صوب مدينة طبرية ، فى ذلك الشهر القائظ الشديد الحرارة ، وفى طريق مترب وعر .

فلما علم صلاح الدين بتحرك جيش الصليبيين وقدومهم إليه ، فرح فرحاً شديداً ، وقال لمن حوله :

« جاءنا مانريد . ونحن أولو بأس شديد . وإذا صحت هزيمتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ، ولا عن فتحه وازع » .

* * *

نهض صلاح الدين بجيشه حتى وقف فى وجه الجيش الزاحف وسد الطرق أمامهم ، وصمم على أن يمنعهم من النفوذ أو الوصول إلى الماء ، وأن يرغمهم على الاشتباك معه فى المعركة ، فى المكان الذى اختاره . وقد نجحت خطته نجاحاً فائقاً .

وصل جيش الفرنج متعباً مجهداً من السير والحر ، وجيش المسلمين مستريح متمكن من موقفه ، وافر القوة ، فاضطر الجيش القادم أن يتوقف وأن تبدأ للمعركة . فنشبت المعركة منذ عصر ذاك اليوم « الخميس » . ويالها من معركة ! إحدى معارك التاريخ الفذة ، التى يقف التاريخ عندها متحفزاً مترقباً مشدود لأعصاب ، ينتظر ماذا سيكون المصير الذى سيحدد أقدار الأقوام ، ونهاية

أو بداية الحقب من العصور ، وتحول الجدود بين النصر والهزيمة والجد أو الخذلان . كانت معركة مستميتة ضارية . فقد بلغ العزم والحماس فى كل من الفريقين قمته . ولم يكن لأى من الفريقين مقصد إلا النصر أو الموت .

وحجز الليل بين الجيشين فى نهاية ذاك اليوم الأول . فبات جيش المسلمين على تعبئة ، وهم شاكو السلاح . شبه مؤرخ معاصر تلك الليلة بأنها كانت « كليلة القدر » ، التى هى خير من ألف شهر ، تنزل للملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » . وقد سهر السلطان صلاح الدين تلك الليلة يرتب الجنود ، ويعطى التعليمات ، ويزود الجيش بالأسلحة ، ولاسيما فريق الرماة ، وبلغ ما فرقه من الأقواس والنشاب ألوفاً ـ غير ما ترك كرصيد. وكان شعور الجميع أنه اليوم الذى سيتقرر فيه المصير ، فكان العزم منعقداً على أنه لا بديل للنصر وهم واثقون بنصر الله . فلما أسفر صباح الجمعة ، خرج رماة السهام من جيش المسلمين فبدأوا الاشتباك ، ودارت المعركة فقتل كثير من خيول الفرنج وفرسانهم؛ وكلما حاول هؤلاء التقدم نحو صفوف المسلمين صدهم أولاء ببطولة ، وأكثروا فيهم القتل والجراح بالسيوف فكان القتال فى ذاك اليوم رائعاً لا يمكن وصفه . غير أن الظاهرة العامة التى ميزت موقف المسلمين كانت هى الثبات والإقدام . فبقيت صفوفهم متينة راسخة ، على حين اختلت صفوف العدو ، وظهرت فيها الثغرات . وبعد أن استمرت المعركة طوال اليوم ، بدا فى آخر النهار المشهود واضحاً أن كفة المسلمين هى الراجحة . فباتوا تلك الليلة وقد ارتفعت روحهم المعنوية ، وازدادوا إيقاناً بالنصر وتضاعف عزمهم وإصرارهم ، وأخذوا يعدون العدة للجولة الأخيرة التى لابد أن يجهزوا فيها على العدو وأكثروا التكبير والتهليل تلك الليلة ، والسلطان يطوف على الصفوف ، يحرض الجنود ويعدهم بالنصر المبين من الله .

وجاء اليوم الثالث ـ وهو يوم المواقف الهائلة والنتيجة الحاسمة ـ فجرى القتال فيه بأشد من سابقه . بدأ جيش المسلمين بالهجوم ، فأمطروا الأعداء وابل السهام كالجراد المنتشر ، وهاجموهم بالصفاح والحراب ، حتى أثخنوا فيهم القتل والجراح . وكان اليوم شديد الحرارة ، وقد برح بالصليبيين العطش وهم يلهثون كلهث الكلاب ، ولا يقدرون أن يصلوا إلى الماء . وعمد بعض المتطوعين من المسلمين إلى إشعال العشب تحت أقدام الأعداء وخيولهم ، فتأجج الميدان ناراً . واجتمع عليهم حر الجو وحر العطش وحر القتال والنار ، فاضطربت صفوفهم وبدت دلائل الانهزام . ففر أحد قادتهم وهو صاحب طرابلس وطبرية فأخلى له الطريق . ثم أطبق المسلمون كالدائرة على الأعداء ، وواصلوا الهجوم حتى أفنوا أكثرهم . وحينئذ اضطر ملكهم إلى اللجوء إلى إتل حطين مع فريق مقاتل ، للوقفة الأخيرة . ولكن هذا لم يجدهم شيئاً ، فحمل المسلمون عليهم حملات متعاقبة ، حتى تمت عليهم الهزيمة . واستسلموا ، فأسر ملك الصليبيين وكبار قادتهم . وكانت هذه نهاية جيشهم جيش المعتدين ، فأصبحوا بين قتلى وأسرى ، فلما شاهد السلطان صلاح الدين النصر نزل فسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة الفرح .

* * *

هكذا انتهت موقعة حطين أو طبرية ـ الموقعة الخالدة الحاسمة فى التاريخ ـ وذلك فى اليوم الأخير ، وهو يوم ٢٥ من شهر ربيع الثانى من عام ٥٨٣ هـ الموافق ٤ من يوليه عام ١١٨٧ م) . وكانت النتيجة الكبرى للمعركة أن أبيد جيش الصليبيين تماما ، فلم ينج منه إلا أفراد .

قال أحد مؤرخى العصر : « فمن شاهد القتلى ذاك اليوم قال ماهناك أسير ،

ومن عاين الأسرى قال ماهناك قتيل» . وقال « ابن الأثير » — بعد أن مر بالموقع: « اجتزت بموضع الموقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملآى من عظامهم تبين على البعد : منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق . هذا سوى ماجرفته السيول وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد » .

وكان من بين الأسرى ذاك الخبيث اللعين « أرناط » صاحب القلعة — الذى سبق ذكره — والذى طالما اعتدى على المسلمين . فقيد إلى السلطان إلى أن أحضر بين يديه ، فذكره السلطان بأفعاله وعدد عليه جرائمه ، وكان من بينها قتل الأسرى والغدر وإيذاء شعور المسلمين ، فقال له : «ياهذا كم تحلف وتنكث » . وعرض عليه الإسلام فلم يقبل . فقال له السلطان : « كنت تقول : قولوا لمحمد يجىء ليخلصكم » ! فها أنذا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ! وكان السلطان قد نذر لئن أظفره الله به ليقتلنه ، فسل السلطان حربته فضربه بها ، ثم أجهز عليه من حضر من جند الحرس ، وسحبت جثته إلى خارج الخيمة فرميت للكلاب .

فبعد أن بدد جيش الصليبيين وأصبح أثراً بعد عين ، أصبحت الطرق كلها مفتوحة أمام صلاح الدين ليتوجه حيث يشاء . صارت فلسطين كلها تحت رحمته وحان وقت تحريرها ، ولم يضع السلطان وقتاً ، ففى اليوم التالى للموقعة عاد إلى طبرية ونازلها ، فسلمت بالأمان ، ثم توجه السلطان على الفور إلى عكا — وكانت أهم ثغر فى فلسطين — فبعد أن حاصرها بضعة أيام ، استسلمت ، فاستولى عليها المسلمون فى غرة جمادى الأولى . وهكذا سار صلاح الدين وقلاع ومدن الصليبيين تسقط بين يديه كأوراق الخريف : واحدة بعد الأخرى . فحرر الناصرة وحيفا وبيروت ونابلس وعسقلان ويافا وغيرها ، حتى

حرر فلسطين كلها ، فلم تبق للأعداء إلا (صور) على الساحل . ثم تقدم لفتح بيت المقدس ، فوصل إليه فى منتصف رجب من نفس العام وحاصره ، وبعد قتال طلب سكانه الأمان فدخل صلاح الدين والمسلمون « القدس الشريف » ـ وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب ـ وهو يوم الإسراء والمعراج . وبذلك سقطت دولة الصليبيين فى القدس وفلسطين ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وهكذا أتم الله النصر لصلاح الدين وحقق مهمته ، وصار فى التاريخ بطل موقعة حطين وقاهر الصليبيين ومحرر فلسطين .

فإذا أردنا أن نسأل — بعد عرض هذه الأحداث — : ما السر فى انتصار صلاح الدين ونجاحه ، وانتصار المسلمين معه ؟ فان السر يتلخص فى الإخلاص لله والتقوى والعدل ، والإيمان بأن الواجب والعقيدة والشرف فوق الحياة الدنيا ، والسير فى الأمور بالعقل والرأى الصائب والشورى ، وإكمال الاستعداد ، والأخذ بالوسائل ، والتفوق على العدو فى الأسلحة والتدريب ووضع الخطط والتنفيذ ، والمرابطة وصدق العزم والجهاد ، وأخيراً الاعتماد على الله . فبهذا انتصر المسلمون فى عهد صلاح الدين ، وبهذا ينتصرون فى كل عصر وفى عصرنا الحاضر ، إذا جمعوا هذه الصفات ونهجوا نفس الطريق . وحينئذ يستطيعون أن يحرروا فلسطين وأراضى العرب من الصهيونيين ، كما حررها أسلافهم من الصليبيين وغيرهم . والله الموفق ، وما النصر إلا من عند الله ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ـ وعد الله ، لا يخلف الله وعده » . ؟

محتويات الكتاب

الصفحة

الجتمع العربى . . . . ٣ — ١٤
مقومات الوحدة العربية . . . . . . ١٤ — ٣١
بين الشرق والغرب ونشوء الاستعمار . . . . ٣٢ — ٥٧
الحملة الفرنسية على مصر . . . . . . ٥٨ — ٦٦
ثورة الشعب المصرى على الحكم العثمانى . . . . ٦٧ — ٧٥
انتصار الشعب فى رشيد . . . . . . ٧٦ — ٨٥
محمد على أو الجندى المغامر . . . . . . ٨٦ — ٩٣
النزاع بين الوالى والسلطان . . . . . ٩٤ — ١٠٤
النفوذ الأجنبى والمسألة الشرقية . . . . . ١٠٥ — ١٢٥
مصر بعد معاهدة لندن . . . . . . ١٢٦ — ١٣٢
جمال الدين الأفغانى . . . . ١٣٣ — ١٤٣
الثورة القومية الدستورية . . . . . . ١٤٤ — ١٥٣
محمد عبده ومنهجه . . . . ١٥٤ — ١٦٠
الشرق الأوسط فى دور انتقال . . . . . ١٦١ — ١٧٦
الشعوب العربية فى الحرب العالمية الأولى . . . . ١٧٧ — ٢١١

الصفحة

مصر من الحرب العالمية حتى الثورة	٢١٢ — ٢٣٥
كارثة فلسطين	٢٣٦ — ٢٧٢
إسرائيل جريمة الاستعمار	٢٧٣ — ٢٨٢
خرافة الصهيونية : أرض الميعاد	٢٨٣ — ٢٩٣
العدوان على الدول العربية	٢٩٤ — ٣٠٣
أمريكا والأمة العربية	٣٠٤ — ٣١٢
العدوان والقرارات الدولية	٣١٣ — ٣٢١
وقعة حطين أو الانتصار على الصليبيين	٣٢٢ — ٣٣٤

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٠٠ لسنة ١٩٧٠

مطابع سجل العرب